

طه حسين

من هناك





● ولد طه حسين بإحدى بلاد المنيا سنة ١٨٨٩ وتلقى دراسته بالأزهر الشريف ثم فى الجامعة المصرية الاهلية ثم فى جامعة السوربون بباريس ٠

● أول طالب منح درجة الدكتوراه من الجامعة المصرية الاهلية بسنة ١٩١٤ ثم نال دكتوراه الآداب من جامعة السوربون سنة ١٩١٨

● عين أستاذا للأدب العربى بالجامعة المصرية عند افتتاحها سنة ١٩٢٥ وانتخب عميدا لكلية الآداب عام ١٩٣٢

● عين وزيرا للمعارف سنة ١٩٥٠ فنادى بأن التعليم ضرورى لحياة الأمة كالماء والهواء ٠

● شهرته كمفكر حر وكاتب شهير وخطيب مفوه طبقت العالم العربى والغربى ٠

● كتب نحو سبعين مجلدا فى مختلف أنواع الأدب من نقد وابحاث وقصص وتاريخ ٠

● نال من وسائل التكريم أعظمها ومن الأوسمة أرفعها ولكن أرفع وسام يحمله هو مكانته فى قلوب قومه وشعوب الشرق العربى ٠

نادى القصة

يقدم

الدكتور طه حسين

فى

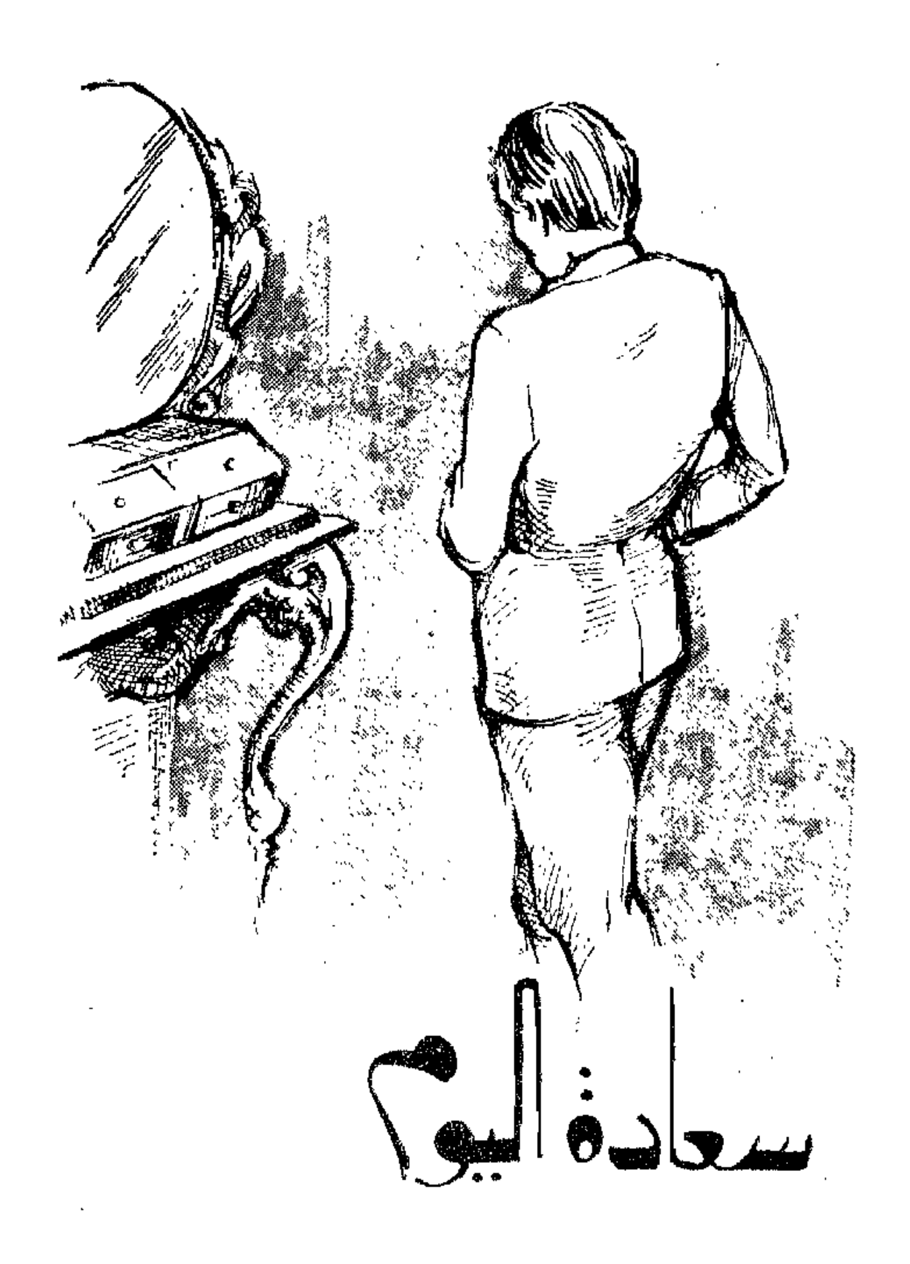
من هناك ..

الكتاب الذهبى

يصدر عن دار روز اليوسف

العدد الثامن والثلاثون

١ يوليو سنه ١٩٥٥



قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي أدمون جيرو

وليس ينبغي أن يخدعك هـذا العنوان فتقدر أنك ستقرأ تحليل قصة خلقية اجتماعية تعرض للسعادة وتصور الناس لها في هذا العصر ، فليس بين القصة التي نلخصها في هذا الفصل وبين هذا الموضوع صلة ما • وانما « سعادة اليوم » اسم أداة من هذه الأدوات التي تتخذ في الدور نستطيع أن نطلق عليها هذا الاسم العلمي المبتذل « المكتب » ، ونريد به هذه المائدة التي تتخذ للكتابة ، وفيها أدراج كثيرة تحفظ فيها السيدات أوراقهن وما لهن من هذه الأدوات الدقيقة المتنوعة • « فسعادة اليوم » في هذه القصة ليست شيئا غير هذا . هو لفظ أطلق في عصر من العصور الفرنسية ، وفي طبقة من الطبقات الفرنسية على هذه الأداة الشائعة • وقد أعطت هذه الأداة الشائعة اسمها لهذه القصة لأنها كانت تحتوى سرا من أسرار أسرة ، فكشف هذا السر ، وكان مصدر طائفة من الاحداث والانفعالات ، عبثت بطائفة من القلوب والنفوس عبثا عرضه علينا الكاتب في قوة ودقة ومهارة خليقة بالاعجاب •

ولعلك لم تنس بعد هذه القصة البديعة التي حدثتك عنها في الشهر الماضي ، قصة الفؤاد المقسم • ولعلك لم تنس بعد هـذه العواطف المختلفة التي تتنازع القلوب وتعبث بالنفوس فيما رأيت من قوة وعنف • فقصتنا في هذه المرة تشبه تلك القصة من هذه الناحية ، فهي قصة جهاد عنيف بين عواطف قوية حادة تتنازع قلبا كريما بريئا من الشر والاثم ، ولكنه في الوقت نفسه متأثر أشد التأثر بالحياة الاجتماعية وما توارث الناس من عادة ورأى وحكم ، وما تواضعوا عليه من خلق ونظام • هي قصة نفسية لأنها تعرض عليك نفسا انسانية في ظرف من هذه الظروف الحرجة العسيرة التي تكشف عن دخائل الانسان ، وتجرده ، أو تكاد تجرده ، من كل هذه اللفائف التي تلفه بها الحياة الاجتماعية • وهي قصة اجتماعية لأن هذه النفس التي يعرضها عليك الكاتب انما تألم وتحس ماتحس من عذاب وتخضع لما تخضع له من حرب وجهاد بحكم الأوضاع الاجتماعية المتناقضة وبحكم الأحداث الاجتماعية التي تحدث في حياة الناس من حين

الى حين ، فتكونهم كما تحب لا كما يحبون ، وتصورهم كما تريد لا كما يريدون . وهي قصة خلقية أيضا لأن هذه النفس حين تتألم وتشعر بالعذاب مضطرة الى أن تظهر شيئا من الجلد والقوة على المقاومة . وهي لا تقاوم عبثا وانما تقاوم فرارا من شر ، وحرصا على خير . ونفورا من الأذى ، ورغبة في البر .

وهي بعد هذا كله قصة لم تنس المثل الأعلى الذي يضعه الأفراد والجماعات أمامهم حين يحبون وحين يختلفون في أمورهم المتباينة . هي هذا كله ، وهي الى هذا كله نموذج اللفظ المختار المنتقى . والحوار الدقيق اللطيف ، والمعاني الجيدة التي فكر فيها صاحبها فأحسن التفكير ونسقها فأجاد التنسيق . وقد يستطيع هذا الفصل من فصول التمثيل الفرنسي أن يغتبط بعض الاغتباط ، فهو غني بهاتين القصتين ، وهو خير من فصول أخرى سبقته ولم يظهر فيها كما رأيت في الشهر الماضي الا لون من هذا القصص التمثيلي الفاتر الذي لا يمثل شيئا ولا يدل على شيء .

ولأعرض عليك أشخاص هذه القصة كما تعودت أن أفعل بازاء القصص الأخرى . فقد يكون هذا العرض أيسر سبيل الى فهمها وتذوقها . ولكني حائر لا أدري بأي هؤلاء الأشخاص أبدأ ، فالظاهر أن لهذه القصة بطلا ممتازا تدور حوله ، ولكن أشخاصها جميعا أبطال ممتازون ، وما أرى في حقيقة الأمر الا أن لكل واحد منهم حياته القوية المؤثرة الممتازة . أأبدأ بهذا الشاب الذي تدور القصة كلها حوله والذي يظهر أنه البطل الممتاز فيها ، والذي يظهر في الوقت نفسه أنه ضحية أبيه وأمه وعصره ؟ ولم لا ! فلا بد من أن نبدأ بواحد من هؤلاء الابطال . فليكن هذا الشاب .

***

جان بلنيسيه .. شاب قد ناهز من عمره الثلاثين ، جميل المنظر ، قوي ، عذب الخلق ، حلو الحديث ، رقيق القلب ، ولكنه في الوقت نفسه بطل من أبطال الحرب الكبرى ، أدركته ولما يكد يدع المدرسة ، فدخلها جنديا ، ولكنه أبلى فأحسن البلاء ، وتقلب في مراتب هذه الخدمة العسكرية العاملة ، وذاق آلامها ولذاتها جميعا ، حتى انتهى به الأمر الى أن أصبح ذا مرتبة عالية في فرقة الطيران . وقد أحسن البلاء في هذا اللون من ألوان

الحرب ، وجر عليه ذلك خطوبا وألوانا من الشرف ، فرأى الموت وصافحه أو كاد ، واضطر الى المستشفى ، وتحلى صدره بالأوسمة المختلفة ، ثم انجلت عنه غمرة الحرب فاذا هو يعود الى حيث يقيم أبواه فى أحد الأقاليم الفرنسية ويعيشان عيشة ثروة ونعمة وعمل وهدوء • يعيشـان فى قصر فخم من قصور العصـور الوسطى ، اشترته الأسرة حين أثرت • ولكن هذا القصر وما حوله من الأرض الواسعة مهملان أو كالمهملين ، لأن رئيس الأسرة متصرف عنهما الى مهنة الطب التى يحبها ويكلف بها • فاذا عاد الشباب الى أسرته أسرعت ففكرت فى أن تكل اليه تدبير هـذه الثروة على أن يكون ذلك عمله فى حياته ، وأسرعت فاختارت له فتاة حسناء لتكون زوجه • وظهر اطمئنان الفتى الى هذا النوع من الحياة ، فعنى بالقصر والأرض ، وشغف بالفتاة وشغفت به الفتاة أيضا ، وأخذا يستقبلان الحياة فى ابتسام وبهجـة لولا « سعادة اليوم » التى حدثتك عنها فى أول الفصـل ، والتى ستظهر لهذا الفتى أن نشاطه وسروره وابتهاجه للعمل فى هذه الحياة السلمية ليست طبيعية ، وانما هى علة يتعلل بها كارها ، وانما حياته الحقيقية فى الحرب • وهذا الشاب من أبوين مختلفين أشد الاختلاف فى الطبقة والتربية • فأمه من أسرة شريفة بعيدة فى الشرف ، تحفظ نسبها فى القرون الوسطى ، وتذكر ماكان لأجدادها من بلاء فى تاريخ فرنسا ومن مكانة فى قصور ملوكها ، وأم هذا الفتى قد ورثت عن أسرتها الشريفة هذه كل خلالها ، فهى مترفة ، مهذبة ، رقيقة ممتازة ، وقد أورثت هذه الخلال كلها ابنها الشاب •

أما أبوه فمن طبقة أخرى ، من هذه الطبقة التى كانت مهضومة مظلومة قبل الثورة ، والتى اكتسبت الحرية بعد الثورة، وجدت فأضافت الى الحرية ثروة وقوة واستئثارا بالحكم ، وفيها خلالها ، فهى نشيطة عاملة صريحة شريفة الخلق • وفيها عيوبها أيضا ، فهى غليظة خشنة قليلة الحظ من التهذيب والرقة والامتياز ، لاتتنزه عن صغائر تعافها الارستقراطية • كان جد هذا الفتى يعمل فى البريد ، ولكنه جد حتى أثرى ، وأحسن تربية ابنـه حتى أصبح ابنه وزيرا فى الامبراطورية الثالثة ، وترك هـذا الوزير ابنا أحسن تربيته فهو طبيب وهو أبو هذا الشاب •

وهذا الشاب متأثر ، كما قلنا ، بما ورث عن أمه ، نافر أشد النفور من أخلاق أبيه . فهو لايكاد يحتمل أباه منذ رجع من الحرب ، وهو يألم لهذا ولكنه لايجد الى اتقائهسبيلا . وأبوهيألم له أيضا ، ولكنه يروض نفسه على هذا الألم ، وقد علمته الحياة أن يروض نفسه على الألم . فقد نشأكما رأيتابنا لهذا الوزير وأدركته حرب السبعين وماتبعها من الهزيمة فتركت في نفسه ماتركت في نفوس الفرنسيين جميعا من هذه الآثار المؤلمةالتي يمثلها ضعف العزيمة والاستسلام ثم الطمع والشك .

وكان أبوه ضخم الثروة ، فزوجه من امرأته الشريفةالفقيرة . وجد هذا الرجل في مهنة الطب حتىأحبها علما وعملا،واتخذها سبيلا الى البر بالفقراء والاحسان الى البائسين . وهو شديد الاعجاب بأسرته وجدها ونشاطها ، لايكره مع ذلك أن يزدري الأشراف وخمولهم وكبرياءهم . ولكن الحياة كانت تدخر لهألما هو الذي جعله بطلا كما أنه أسبغ البطولة على امرأته أيضا . وليس من الخير أن نتعجل فنكشف لك عن هذا الألم ، فهو قوام الشطر الأول من القصة .

فلندع هذه الأسرة ، ولنذكر الشخص الرابع من أشخاص القصة وهو « جرمين داجوزون » خطيبة جان . فهي فتاة جميلة فتانة ، ولكنها فقيرة .هي من أسرة نبيلة ، ولكن أباهاكانسيء السيرة والخلق ، وأمها كانت تعسة سيئة الحال . فأما أبوها فقد مات . وأما أمها فقد بقي لها من هذه الحياة السيئة ضرب من الاضطراب العقلي والخلقي يمثله الغرور والشره والتكلف وما الى هذه الأخلاق مما يجعل الانسانموضعالسخريةوالاشفاق في وقت واحد . ولكن الفتاة لم تتأثر بشيء من هذا،وانمانشأت نبيلة ذكية القلب ، جلدة قوية الارادة ، قادرة على المقاومةولكنها رقيقة محبة أيضا . ولم تكد تعرف هذا الفتى حتى أحبته حبا قويا عنيفا ، ولكنه شريف ممتاز يشبه حب الفتى لها .

هؤلاء هم الأشخاص ، لم أعرض عليك من أمرهم الا مايمكن

أن يعرف قبل أن تحدث حوادث القصه فتكشف من نفسياتهم عما كان مخبوءا

***

فاذا كان الفصل الأول ، فنحن فى أعلى القصر ، فى هـــذه الغرف التي تتخذ ملقى للأدوات العتيقه بعد أن يستغنى عنها ويزهد فيها ، فتترك فى هذه الغرف مهملة وديعـــة فى أيدى الزمان يفنيها قليلا قليلا ، وتهمل معها هذه الغرف قد أغلقت أبوابها من دون هذا المتاع ، كما تغلق المقابر دون ماتودع من أجسام الموتى . وقد صعد جان الى احدى هذه الغرف ، ففتح أبوابها ونوافذها للهواء والضوء ، وأخذ يتفقد مافيها من متاع في اعجاب وشغف . وماهي الا أن أخذ ينسق من هذه الغرفة وما فيها مكانا يستقبل فيه خطيبته وأمها وأبويه لتناول الشاى . وكانت هذه الفكرة قد خطرت لخطيبته حين علمت بأن فى أعلى القصر أدوات قديمة من متاع القرون الوسطى ، فأقبل الفتى يهيىء لها هذه الغرفة وهو يحاور في ذلك خادمه حوارا لذيذا خفيفا . فهو كلف بهذا المتاع القديم لأنه يمثل حياة آبائه - ولكن خادمه منصرف عن هذا المتاع لأنه عتيق ، قد عمل فيـه الفناء ، ولأنه يؤثر الجديد الذى لم ينله البلى . وانظر الى الغرفة قد نسقت تنسيقا حسنا ، والى طاقات الزهر قد وضعت فى هذه الآنية القديمة . ثم انظر الى الفتاة قد أقبلت ، فما تكاد تنظر الى هذه الأشياء حتى تفتن بها وتمضى فى الاعجاب والثناء . وماكان أخلقها أن تمضى فى ذلك الى غير حد لولا أنهـــا تحب صاحبها ، وصاحبها يحبها . وخلوتهما ضيقة محدودة ، فلا بد من أن يتحدثا فى الحب ، ولا بد من أن يتبادلا هذه القبل التى يفتن الخطيبان فى انتهاز الفرص لها .

وهما يتحدثان فى حبهما فى خفة ورشاقة وجد أيضا . ونحن نحس أننا لسنا أمام حب فاتر أو نزق ، وانما هو الحب القوى الحاد الذى لايكاد يدخل القلب حتى يملأه ويستأثر به ، ويندفع منه الى جميع الملكات والعواطف والحواس فيخضعها لسلطانها ، هذا الحب الذى كله ثقة وأمل ورغبة واحترام وطمأنينة . وهما فى هذا الحديث وفي هذا الحب واذا الأسرة قد أقبلت . فلا أقص ثك مايدور من حوار حول المتاع ثم حول الشاى ، فقد تستطيع

أن نستغني عن هذا كله · وانما ألاحظ أن الأب قد أقبل فرحا مبتهجا ، فتغني مع الفتاة بعض أغاني الأقاليم ، وكانت الفتاة بهذا مبتهجة ، وأمها كذلك ، وامرأته أيضا ، الا الفتى فقدغاظه ذلك وضاق به ذرعا ، ولم يستطع أن يخفي ضيقه بل عرض باللوم لأبيه ، وقبل الشيخ هذا اللوم في ألم وغيـظ وحزن وسخرية · وانقضى الشاي بين الضحك والحزن تتقيه أم الفتى ما استطاعت ·

ثم يعلن الشيخ الى الفتاة أن في القصر غرفا كهذه الغرف فيها متاع أقدم من هذا المتاع وأجمل · فترغب الفتاة في أن ترى · ويقبل الشيخ على أن يظهرها على هذا المتاع · وينصرفون جميعا الا الخطيبين تخلفا فيما يظهر ليختلسا كلمة أو قبله · والفتاة تدعو صاحبها الى أن يتبعها الى حيث ترى المتاع · وهو يأبى ويتعلل ، وما هي الا أن تفهم من تعلله أنه لايريدأن يرافق أباه، وأنه ضيق الذرع بأبيه وطبقة أبيه وما لهذه الطبقـة من عادة وما فيها من عيب ، وأنه شديد الاعجاب بأمه وطبقة أمه ومافيها من ترف ولين ورقة ، وانظر اليه وقد كشف هذا المتاع القديم الذي كان يسمى « سعادة اليوم » ، فهو يظهر الفتاة على محاسنه وما فيه من رشاقة فنية ، وهو يوازن لها بين هذه الأداة الرشيقه التي تمثل ذوق أمه وأسرتها الشريفه ، وبين تلك الأدوات الغليظة التي يمتلىء بها القصر والتي تمثل ذوق هذه الطبقة الوسطى التي سادت بعد الثورة ·

وقد تركته الفتاة ، فعمد الى هذا المتاع وأخذ ينظر في أدراجه ويستنشق رائحتها في شغف وفتنة ، لأن هذا المتاع قد كانت أمه تستخدمه في شبابها ، فهو انما يتنسم شباب أمه · وقد جذب اليه درجا فتنسمه ، ثم حاول أن يرده فيستعصي عليـــه كأن شيئا يعترض دونه ، فينظر فاذا حزمة من الورق ، فيسرع اليها متلهفا ويتردد ثم يفضها ، فاذا رسائل تنثر ، فيسرع الى هذه الرسائل يجمعها ويخفيها في جيبه ، ولكنه يسمع صوتا فيبالغ في السرعة ، ثم ينهض فينصرف ، وقد أقبل أبوه فرآه

موليا ، ونظر فاذا رسالتان على الأرض قد أخطاهما الفتى ، فيسرع اليهما فيدسهما فى جيبه ·

***

فاذا كان الفصل الثانى فقد مضت أيام على ماقدمت لك ، والقوم مجتمعون فى غرفه المائدة بعد العشاء ومعهم الخدم جميعا كأنهم فى حفل منزلى ، والشيخ قائم أمام نار الموقد المتأججة يشتوى فيها بنفسه الشاه بلوط ، أو «الكاستنيا» ـ كمايسمونه الآن ـ وهو يقص على الفتاة وأمها من عادات الاقليم وأحاديثه مايضحكهما ويلذهما · وهم جميعا مبتهجون الا الشاب فقدتنحى وانصرف الى كتاب كأنه ينظر فيه · والا أم الفتى فهى قلقة لما تشاهد من ضيق ابنها وسوء الحال بينه وبين أبيه · وقد انتهى عبث الجماعة الى آخره ، وأعلن الشيخ أن ستجمع طائفة من هذا الشاه بلوط الذى يشتوى ، تخرج من الجمر ، ثم يوضع عليها غطاء ما ، ثم تجلس عليها أصغر الحاضرين سنا · وقد قبلت الفتاة ، والخدم مبتهجون ، وأمها مترددة متكلفة · ولكن الفتى يترك كتابه وينهى خطيبته عن هذا العبث فتأبى ، فيلح فتزداد اباء ، فيبالغ فى الالحاح فتغضب ، ويفسد الأمر بينهما بعض الشىء ، وتنصرف غير حافلة بأمها ونذيرها ، وقدأعلنتأن خطيبها يجب أن يعرفها حق المعرفة ، وأن يعلم قبل أن يتخذها له زوجا أن لها ارادة ، وأنها قد تغلو فى هذه الارادة أحيانا · وقد فسد الحفل ، وانقلب السرور شيئا يشبه الحزن ·

ومضى كل الى مضجعه ، ويظل المسرح خاليا حينا · ثم اذا الشاب قد أقبل الى المكتبة يلتمس فيها شيئا ، فيستخرج مجمعا للصور ، وينظر فيه كأنه يبحث عن صورة بعينها ، حتى اذا انتهى اليها اختلسها ودسها فى جيبه · ومايكاد يفرغ من هذا حتى يحس صوتا ، فيرد مجمع الصور ، ويظهر أنه يأخذ كتابا · وقد أقبل أبوه ، فيسأله ماذا يصنع ، فيجيب الفتى أنه قدامتنع عليه النوم فأقبل يلتمس كتابا يستعين به على الأرق · يجيب الشيخ : وهذه حالى ، فلنتحدث قليلا ،

وما يكادان يبتدئان الحديث حتى يصل الشيخ الى ما كان يريد ، فهو يريد أن يتعرف من شأن ابنه مصدر هذا الضيق الذى ظهر عليه منذ أيام ، والذى أقلق أمه ونغص عليها الحياة · أو قل

ان الشيخ يعرف مصـــــدر هذا الضـــيق ، ولـكنه يريد أن يتحـــدث فيـــه الى الفتى · أما الفتى فيتـكلف الجواب ، ويحتال في اتقاء الشيخ ، ويعلن اليه أنه ضيق الذرع بهــذه الحياة التي يحياها بعد الحرب ، والتي لا عمل فيها ، وأنه يريد ان يعمـل وأن يكسب ، وألا يكون مدينـا بحياته لأحـــد · اما الشيخ فلا تخدعه هذه المحاولة · وما هي الا أن يصل الى غرضه في صراحة ، فيعلن الى الفتى أنه قد عثر بطائفـــة من الرسائل ، ولكنه نسي منها اثنتين ويدفعهما اليه ، وأنه قد قرأ هذه الرسائل وعرف ماعرف من أمرها ، وأن هذه الرسائل هي التي تنغص عليه حياته · فاذا أظهر الفتى شيئا من الدهش أنبأه الشيخ في هدوء وألم مبتسم بأنه يعرف مافي هذه الرسائل منذ ثلاثين سنة · ثم يقص على الفتى القصص ·

فليس الفتى ابنه ، وان كان ابنه أمام القانون وأمام الناس وأمامه هو أيضا · ذلك أنه قد كان تزوج من امرأته دون أن تحبه كما يتزوج أصحاب الثروة من الفقيرات في غير حب ولا كلف · فلما لم يجد من امرأته حبا ولا حنانا ولا هيامازهد فيها وانصرف عنها الى اللهو والعبث ، وفرحت هي بهذا الزهد والانصراف · وفي ذات ليلة لقي صديقا له كان رفيقه في المدرســة وكان من الأشراف ، وكان قد أحب امرأته ، وكانت قد أحبتــه ، وكانا يريدان الزواج ، ولكن الفقر حال بينهما وبينه · فلأمر ما حرص صاحبنا على أن يستأنف الصلة بينه وبين صديقه القـــديم · وانظر اليه يتهم نفسه أشنع التهم في لطف ورقة وكرم أيضا · أنظر اليه يحدث الفتى بأنه اجتهد في أن يتردد صديقه على بيته وتتجدد الصلة بينه وبين حبيبته القديمة لأمر لايكاد يتبينه ، وربما كان منه أنه أحب أن يثير في نفس امرأته حبها القـديم لهذا الرجل لعلها تتورط في شيء من الاثم ، فيتخذ ذلك حجة عليها وعذرا لنفسه من آثامه الكثيرة · ومهما يكن من شيء فقد كان ما لم يكن منه بد ، وأثمت المرأة وكان الفتى نتيجة هــذا الاثم · فأما أبوه فقد ندم وألح عليه الندم حتى التحق بجيش من جيوش المستعمرات الافريقية وجاهد حتى اشترى خطيئتـــه بالموت · وأما أمه فقد لقيت في الحمل آلاما ثقالا وتعرضت في الوضع لخطر الموت ، ووقف زوجها بين الأمانة لمهنته كطبيب

يجب أن ينقذ المريضة ، والانتقام لنفسه كزوج يريد أن يقتل الخائنة . فوفى لمهنته وأنقذ المريضة ، حتى اذا تم لها الشفاء لم يجد في نفسه القدرة على استئناف الانتقام فصفح وعفا ، ونعمت زوجه وثابت ، وكانت بينهما مودة استحالت حبا قويا شريفا ، استفاد منه الطفل فنشأ بين قلبين يحبانه ويعطفان عليه .

وقد سمع الفتى هذا القصص ، ولكنه بطل من أبطال الحرب ، قد تعود الهول وتجشمه ، وتعود المكروه وصبر نفسه عليه ، فهو يألم ولكنه يكظم ألمه ، وهو بين أمرين يتنازعان قلبه ونفسه : السخط على أمه وأبيه لأنهما وضعاه في هذه المنزلة الكريهة ، والبر بهذه الأم التي لقيت في سبيله ما لقيت من ألم ، وتعرضت في سبيله لما تعرضت له من خطر . وهذا الشيخ الذي كان يظنه أباه والذي كان ينكره ويضيق به ، والذي ظهر الآن أنه ليس منه في شيء : أيحبه لأنه نشأه ورباه كما ينشئ الأب ابنه في مودة وحنان وحب ، أم يبغضه لأنه ليس منه في شيء ، ولأنه هو الذي عرض أمه للاثم والخطيئة ، وهو الذي اضطر أمه الى أن تلده في غير رضا الأخلاق والقانون ؟ وأبوه ! أيحبه لأنه أبوه . أم يبغضه لأنه ورط أمه في الاثم وجنى عليه هذا الوجود المنكر ؟ وخطيئته ! ماذا يصنع بها ؟ أيمضي في حبها ويكتمها ما عرف من أمره فهو اذن يغشها ويدلس عليها ، أم يظهرها على كل شيء واذا فالى أي حال ينتهي حبه وكبرياؤه وكرامته ؟ . . .

وهذه الثروة الضخمة التي يكلها اليه الشيخ أيقبلها وليست له ، أم يردها ، واذا ماذا يصنع ؟ فأنت ترى الى هذا الموقف المعقد والى ما فيه من حرج .

وموقف الشيخ ! أتظنه يخلو من الحرج ؟ كلا ! فقد عفا عن امرأته ، وقد استطاعت امرأته أن تمحو ما في نفسه من موجدة . وهو يحب امرأته ويريد أن يحميها من كل مكروه ، وقد كان هذا يسيرا ما خفيت القصة على الفتى . ولكن الفتى قد عرف القصة ووقف الشيخ منه في صراحة موقف الغريب فماذا يصنع ؟ وكيف يعصم امرأته من احتقار ابنها وسخطه ؟ وهو كان أحب الفتى واتخذه ابنا حقا ، وقد ظهرت خبيئة الأمر فما له بشيء هذا الفتى ؟ ومع ذلك فلم يأثم الرجل ولم يقترف خطيئة ، وانما تكلف اتهام نفسه ليخفف عن امرأته وليعطف

الشاب على أمه . ماخانها ولاتعمداغواءها وتوريطها فى الاثم . ومهما يكن من شىء فهو لايطلب الآن الا أن تجهل امرأته أن ابنها قد ظهر على جلية الأمر . وهو يائس أو كاليائس من حب هذا الفتى . وقد ضحى بنفسه مرة ، فلم لايضحى مرة أخرى على أنه قد لقى من حب امرأته ماعزاه عن تضحيته الأولى . فلعله يلقى من احسانه الى الناس ومن حب الفتاة مايعزيه عن التضحية الثانية ..

***

فاذا كان الفصل الثالث فقد مضى أسبوعان على ماكان فى الفصل الثانى . ونحن نرى الشيخ فى عيادته يستقبل المرضى ويطب لهم ، ولكنه متعب قد ظهر عليه السأم والضيق . حتى اذا انصرف آخر مرضـــاه دعا الخادم فيأمرها بأن تذهب الى الصيدلى وتطلب اليه أن يحتال فى ألا تدفع اليه احدى مرضاه ثمن الدواء ، فهو كثير وهى فقيرة ، ولكنهاعزيزةالنفس لاتقبل الصدقة ، فليخدعها الصيدلى اذن ، وليخيل اليها أن الدواء رخيص ، وليضف قيمته الحقيقية الى حساب الطبيب .

وانظر الى امرأة الطبيب ، قد أقبلت محزونة تشكوالى زوجها ضيق ابنها وانصرافه عنها وعن خطيبته ، وتلتمس لذلك العلل والأسباب . وتخبر زوجها بأن الرسائل متصلة منذ أيام بين ابنها وبين وزارة الحرب . وهى مشفقة من ذلك والشيخ يعزيها فى مودة وحب ، ولكنه لايظفر من تعزيتها بشىء . وهى تطلب اليه أن يتحدث الى الفتى ويعظه لعله يكشف من أمره شيئا . ولعله يرده الى حب أمه وخطيبته والرفق بهما . فيتردد ثم يذعن ، وتنصرف امرأته وترسل اليه الفتى !

وما هى الا أن يتحدثا حتى نعلم أن الفتى قد طلب الى وزارة الحرب عملا فعرضت عليه بعثة فى الصين حيث الحرب قائمة فقبل . ومهما يفعل الشيخ ، ومهما يحتل ، ومهما يتلطف للفتى ، فلن يغير رأيه و عزمه . والموقف هنا بديع مؤثر حقا . اللين حينا والاستعطاف ، والعنف حينا والنذير ، والفتى ثابت

لايتزحزح عن موقفه قيد شعرة · ولم يتزحزح عن موقفه وهو ابن الحرب قد كونته كما أرادت لا كما أراد ! لقد أنفق من عمره أربع سنين في قتل وتدمير ، يقتل النساء والاطفال والشيوخ والشبان ، لا رأى له في ذلك ولا ارادة ، ويواجه الموت يتقيه مرة ويرسله على الناس مرة أخرى ، فكيف تريده على أن يكون كغيره من أبناء السلم ! انه يعلم حق العلم أنه يمزق قلب في هذه الصورة ! فليكن مصدر ألم ، وليكن مصدر موت · فكذلك أرادت الجماعة أن يكون · وقد أيس منه الشيخ ، وأقبلت أمه يائسة أيضا تسأله : أحق ما أنبأتني به خطيبتك من أنك مرتحل الى الصين ؟ يجيبها : نعم ! فما أشد تأثير هذا الموقف بين الفتى وأمه تستبقيه ضارعة فلا يحفل ·· تحاول أن تعرف السر الذى يضطره الى هذا فلا تفلح ·· وهى تفترض الفروض وتتوسل الى الفتى بخطيبته .ثم يخيل اليها أنه لايحب هذه الفتاة فتجتهد فى صرفه عنها · ويكون بينهما حوار بديع مؤلم نتمثل فيه نحن الى أى حد نسيت هذه المرأة اثمها وانصرفت عن خطيئتها ، والى أى حد أثر هذا الاثم فى نفس الشباب وأفسد عليه أمره ··

وينصرف الشاب وقد أيأس الشيخين من نفسه · ولكن أمه قد عرفت الآن أنه قد ظهر على جلية الامر ! ·· فانظر اليها منتحبة بين ذراعى زوجها وهو يعزيها وينبئها بأنه قد اتهم نفسه ما استطاع ليخفف عنها الوزير أمام ابنها · فاذا رآها تسرف فى البكاء خيل اليه انها تبكى ندما لما تذكر من اساءتها اليه ، ولكنه لايلبث أن يتبين أنها انما تبكى على ابنها لا عليه · فليضح بنفسه مرة ثالثة ! ··

اليس يحب هذه المرأة ، أليس يحب هذا الفتى · فليعز هذه وليجتهد فى امساك ذاك · ولكن ليس الى امساك الفتى من سبيل ··

***

فنحن فى الفصل الرابع وقد أخفق الشيخ وامرأته والفتاة فى صرف الفتى عن عزيمته · ونحن فى طولون ثغر فرنسا الحربى حيث يأخذ الفتى سفينته الحربيه الى الصين · وقد أقبل

الجماعة يودعونه . ونحن في أحد المطاعم المطله على البحر حيث السفينة وحيث يستطيع المودعون آن يروا السفينه حين تقلع ويتبعوها بأبصارهم حتى تغيب . وأنا أعفيك من هذا الحوار اللذيذ الطويل بين الشيخ وصاحب المطعم وانتهى مسرعا الى هذا الموقف البديع بين العاشقين . فقد التقيا وتعاهدا على الحب والامانة والوفاء ، وأعلن كل منهما الى صاحبه خبيئة نفسة ، ولكن أنظر الى الفتاة تطلب الى صاحبها أن يرفق بأمه فقـــد أثمت كارهة . ومن ذا الذى يستطيع أن يزعم لنفسه العصمة من الاثم ! وأن يحب الشيخ ولو قليلا فقد كان زوجا برا وأبا رحيما . وما ذنبه في كل ماكان ! . .

فاذا سأل الفتى صاحبته كيف عرفت سره ؟ أجابته لقـد أخبرتنى به آمك واتخذتنى سبيلا الى استعطافك وحملك على الرفق . وانظر الى الفتى وقد تأثر بهذا كله : بمكان أمه من نفسه ، ومكان هذا الشيخ الخير البرىء ، ومكان هذه الفتاة الطاهرة المحبة تستعطفه على هذين البائسين . وقد أقبـــل الشيخان فالفتى رفيق بهما ما استطاع ، يظهر لأمه من العطف والمودة مايملؤها رضا . ويقبل الشيخ ولكن دون أن يقول له شيئا . والشيخ يرضى بهذه القبلة وهو واجم لأنه كان ينتظر كلمة مودة لم يظفر بها . .

وقد أقبل ضابط من السفينة يتعجل الفتى ، فيودع القوم جميعا ، ولكنه لايقول للشيخ هذه الكلمة التى كان ينتظرها : وقد مضى نحو السفينة وهم جميعا يتبعونه بأبصارهم الا الشيخ فهو على كرسيه واجم محزون . ولكن القوم يسمعون من الفتى صوتا لايتبينونه ، ثم لايلبثون أن تبينوا ، فاذا الفتى يدعو أباه ، واذا هم جميعا يدفعون الشيخ دفعا الى النافذة حيث يرى الفتى ويسمعه يدعوه بهذه الكلمة التى كان ينتظرها « الى اللقـاء يا أبت ! »



الثعلب الأزرق

قصة تمثيلية وضعها الكاتب المجرى فرانسوا هرزج ..
وصاغها فى الفرنسية الكاتب الفرنسى رينيه سونييه ..

يقول النقاد الفرنسيون لهذه القصة انها وضعت منذ خمس عشرة سنة فلقيت فوزا عظيما في بودابست . ثم ترجمت الى لغات مختلفة ، فأعجبت بها الجماهير في فينا وبرلين وروما ولندن وأمريكا ، ولكنها لم تمثل في باريس الا هذا العام ..

والنقاد الفرنسيون يجمعون ، أو يكادون يجمعون ، على أنها قصة جيدة ، متقنة الوضع ، بديعة التنسيق والتأليف . ولكن هذه القصة لم تنقل الى الفرنسية كما وضعها صاحبها ، وانما صاغها الكاتب الفرنسي صيغة جديدة، فجعل أشخاصها فرنسيين وأجرى حوادثها في ضاحية من ضواحي باريس ، ولاءم بين نظامها وبين الذوق الفرنسي في التمثيل . ومن هنا يتفاوت النقاد الفرنسيون في تقدير ماينال المؤلف والصائغ من حظ في الاحسان والاجادة ، ثم من حظ في الثناء والتقريظ . فمنهم من يضيف جمال القصة الى المؤلف المجرى ويأسف أسفا كثيرا أو قليلا لأن الصائغ الفرنسي لم يكن أمينا في الترجمة والنقل ، ومنهم من يضيف هذا الجمال الى الصائغ الفرنسي ويرى أنه قد أحسن الاحسان كله حين غيرها وعرضها على الفرنسيين في هذه الصيغة الجديدة التي تلائم ذوق باريس .

وقد يكون من العسير علينا أن نحكم في قضية كهذه ، لأننا نجهل الأصل المجرى ولم نوفق لترجمة ألمانية أو انجليزية لنوازن بين الأصل وبين الصيغة الفرنسية لهذه القصة ، لاسيما أن النقاد الفرنسيين يحدثوننا بأن الكاتب الفرنسي قد غيرها تغييرا شديدا ، وبدل أشخاصها تبديلا باعد بينها وبين الأصل الى حد ما .

على أن النقاد مهما يختلفوا فيما بينهم متفقون على أن الكاتب المجرى نفسه متأثر في قصته هذه وفي غيرها من القصص التمثيلية بالأدب الفرنسي . وهم يذكرون تأثره بموباسان وهنرى بيك وماريفو . فهي اذن في رأيهم قصة فرنسية عادت الى فرنسا . .

ومهما يكن من شيء فان من المحقق أن هذه القصة على جمالها ودقة موضوعها ، وعلى مافيها من قوة في التصوير لاتخلو من

شيء غير قليل من ضعف التأليف · فأنت حين تقرؤها لاتستطيع أن تنسى أنك تقرأ قصة وضعت للتمثيل بحيث لايســـتطيع جمالها الفني أن يشغلك عن تأليفها وعما تكلف الكاتب فيها من هذه الحيل التي يتكلفها أصحاب التمثيل للملاعب · فحركات الأشخاص مثلا حين يدخلون ويخرجون وحين يذهبون ويجيئون وحين يظهرون ويستخفون ليست حركات طبيعية ، وانما هي في كثير من الأحيان حركات متكلفة ، نرى تكلفها ونحسه ، حتى ليخيل الينا أن هؤلاء الأشخاص قد اتصلوا بحبل أو ســلك يجذبه شخص خفي ليظهروا حين يجب أن يظهروا ، وليستخفوا حين يجب أن يستخفوا ، وما هكذا يكتب أفذاذ الكتاب في التمثيل ·· أذلك عيب الكاتب أم ذلك أثر الصائغ ؟ هذا شيء لانستطيع الفصل فيه كما قدمنا ·

وموضوع القصة نفسه مطروق ، سبق الكاتب اليه غير مرة ، سبق اليه في قصص مختلفة منها المضحك ومنها المحزن ومنها ماهو بين بين · ولكن هذا كله لايمنع أن هذه القصة جيدة ، يجد قارئها لذة قوية ، ويضطر الى أن يقف عند بعض فصولها وقفة التفكير والتأمل · وليس أدل على ذلك من هذا الفوز العظيم الذي ظفرت به في عواصم أوروبا وأميركا ·

وليس في هذا شيء من الغرابة · فقد يطرق الموضوع الواحد مرات ومرات دون أن يحول ذلك بينه وبين الحدة وقوة التأثير في نفوس الأفراد والجماعات · ذلك حين يكون الموضوع نفسه قويا قوة لاتذهب بها الأيام ولا يعمل فيها تغيير الظروف ، وحين يكون الموضوع شائعا مألوفا نشهده في مواطن كثيرة وفي ظروف مختلفة ··

ولست في حاجة الى أن أذكرك بهذه الموضوعات الخالدة التي تناولها الشعر القصصي اليوناني وأخذها عنه الشعر التمثيلي اليوناني فزادها قوة وتأثيرا ، ثم أخذها عنه التمثيل الحــديث والقصص الحديث في فرنسا والمانيا وانجلترا فلم يزدها الا قوة وقوة على الأخذ بمجامع النفوس كما يقولون ··

والموضوع الذي طرقه كاتبنا من هذه الموضوعات التي ان لم تكن شائعة مألوفة في بعض البيئات التي قلما يختلط فيها الرجال والنساء ، فهي شائعة مألوفة في كثير من البيئات

الأوروبيه . وهو موضوع يسير جدا : زوجان لم يصل بينهما الحب ولا مايشبه الحب ، وانما قامت صلاتهما الزوجيةعلى المنفعة أو على المصادفة ليس غير . فهما يعيشان عيشة هادئة وادعة ، لولا أن لهما صديقا قد اتصل بهما وقويت بينه وبينهما الصلة فهو يلازمهما لايستطيع أن يقضى يوما دون أن يراهما ، ولا يستطيعان هما أيضا أن يحتملا الحياة اذا لم يرياه .

وهو خير ليس بالشرير ولا بصاحب المجون والدعابة،ولكنه على ذلك صاحب قلب يخفق ونفس تحب . فلا يستطيع الا أن يحب صديقته وامرأة صديقه . وهو يخفى على نفسه هذا الحب ويصوره فى صورة الصداقه والمودة الخالصة . وربما كان صديقه مثله مخدوعا أو ربما لم يكن مخدوعا ، وربما خدعت المرأة نفسها ، وربما عرفت حقيقة الأمر وأحبت هذا الصديق، ولكنها تجاهد هذا الحب وتنتصرعليه ، تسلك الى ذلك ماتستطيع أن تسلكه من طريق . ولعلهم يستطيعون جميعا أن يعيشوا مطمئنين الى هذه الحال الغامضة الواضحة معا . هم سعداء ، أو هم يحسبون أنفسهم سعداء . ولعلهم يستطيعون أن ينفقوا حياتهم كلها فى مودة كلها صفو مطرد لولا أن يعرض لهم من الظروف مايزيل الغشاوة عن الأبصار ويشق الغلاف عن القلوب فيروا .. وهم اذا رأوا قد يسعدون وقد يشقون .

هذا الموضوع مألوف فى البيئات الأوربية ، تنشأ عنه فى كثير من الأحيان ألوان من التعقيد فى حياة الأسر وصلات الأصدقاء . منها ماينتهى الى السلام والدعة ، ومنها ماينتهى الى الشر والنكر . وقد طرقه كاتبنا هذا فصوره تصويرا حسنا مؤثرا ، ولكنه لايخلو ، كما قلنا ، من تكلف ومن غلو أحيانا .

وأنا ــ كالنقاد الفرنسيين ــ شديد الاعجاب بشخصية هذه المرأة التى تدور القصة حولها ، أو قل بقدرة الكاتب على اختراع هذه الشخصية الغريبة التى استطاعت أن تقاوم مهارة الصائغ الفرنسى فاحتفظت بشىء غير قليل من طبيعتها المجرية ، فهى غامضة أحيانا أشد الغموض ، وهى واضحة أحيانا أشد الوضوح، وهى ضاحكة مغرقة فى الضحك ولكنها فى الوقت نفسه تكفكف عبراتها وتمسح دموعها مسحا رقيقا .

ولست أدرى الى أى حد وفق الكاتب والصائغ فى شخصية

الزوج ، فأنا أفهم ، ألا يخلو الرجال ولاسيما العلماء من ضعف وسذاجة ، ولكني أرى أن الكاتب قد صور هذا الزوج تصويرا اعتمد فيه على خياله أكثر مما اعتمد فيه على الحقائق الواقعة .

***

نحن في سان كلو .. ضاحية من ضواحي باريس ، في بيت تظهر عليه النعمة والثروة ، وفي غرفة يظهر عليها الترف ولين الحياة كما يظهر عليها الجد والعمل . ونحن نجد في هذه الغرفة رجلا قد جلس الى مائدة بين الكتب والاوراق، وهو يتحدث ويتحدث لايكاد يقف و لايستريح . هذا الرجل هو العالم النباتي « فرانسوا دوجل » .. وهو يتحدث الى مصوره الذي اتخذه ليصور له أنواع النبات في كتاب يهيئه للنشر .. و لانكاد نسمعه يتحدث حتى نتمثل العالم بما فيه من عيوب وخلال ، فهو يتكلم مندفعا في موضوعه لايلوى على شيء ولا يثنيه عن الحديث شيء . وهو يتكلم لأن الموضوع يلذ له لا لأنه يريد أن يفيد سامعه . وسامعه متبرم به يريد أن يتخلص منه ليدرك القطار الذي سينقله الى باريس . وهو يحتال في هذا التخلص فلا يوفق له الا بعد مشقة شديدة، وهو يخلص وقد استيأس من ادراك القطار .

فاذا انصرف هذا المصور وخرج الأستاذ من غرفته لحظات ، أقبلت الى هذه الغرفة فتاة ظريفة ، حسنة الصورة ، متجملة ظاهرة الرغبة في أن تعجب الأستاذ وتقع من نفسه . تدخل ، فما أسرع ماتهوى الى علبة الحلوى فتزدرد منها شيئا وتخفى شيئا آخر في حقيبتها ، ثم تقف منتظرة أن يعود الأستاذ . فاذا عاد وتحدث اليها عرفنا أنها كاتبته التي تنسخ له مايهيىء من فصول كتابه .

وهو يتلقاها مبتسما لها مبتهجا بلقائها يسألها عما كتبت ، فاذا هي قد أتمت عملها على أحسن وجه ، فيقدم اليها بعض الحلوى فترفض معتذرة بأنها لاتحب الحلوى . فاذا قدم اليها السجارة اعتذرت بأنها لاتدخن . ثم يتركها لحظة وقد ترك سجارته على المائدة ، فما أسرع ماتهوى اليها فتزدرد منها جرات ثم تردها حيث كانت . ويعود الأستاذ فيستأنف معها الحديث . واذا هي تظهر له رسما من عملها فيه صورة نبات ، فلا يكاد

الأستاذ يزاه حتى يفتن به وحتى يعلن اليها رغبته في ان تكون مصورته وأن تضيع له هي صور الكتاب . وهي سعيدة مغتبطة تصفق بيديها ، وتكاد تقبل الأستاذ فرحا وابتهاجا . ولاتسل عن سعادتها حين يعلن اليها الأستاذ أنها ستقيم معه منذ غد . فتكتب له وتصور وتنسخ على الآلة الكاتبة .

وهما في هـذا الحديث واذا رجل يقبل وهو « جان دى فيليبه » صديق الأسرة وخليطها . كان قد سافر يقضي الصيف في الألب ، ولكنه استثقل السفر فعاد الى باريس . وهو سعيد بهذه العودة ، لأنه سيرى صديقيه وسيأخذ مكانه بينهما كدأبه في كل يوم . وهو يسأل صاحبه عن امرأته ، فيحدثه هذا بانها ذهبت الى باريس تصيد الثعلب الأزرق ، لأنها مفتونة به ، ولن تستريح حتى تظفر بهذا الصيد . ولكنها لاتصيده من الغابات ولا من الحقول ، وانما تصيده من المتاجر . فهي لاتلتمس الثعلب ، وانما تلتمس فرو الثعلب . وهي تخرج في طلبه كل يوم اذا أصبحت ، ولا تعود الا اذا أقبل المساء . وهو يدعها وما هي فيه من صيد لأنه مشغول ببحثه عن النبات .

ويمضيان في الحديث حتى يصلا الى لون من الطعام يحبه هذا الرجل الذى أقبل ، واذا الفتاة الكاتبة المصورة تزعم أنها تحسنه وتعد بعمله اذا كان الغد . فلا تسل عن ابتهاج الأستاذ بهذه الفتاة النادرة الكاتبة المصورة الطاهية معا . ويتم الاتفاق بينهم على أن تهيىء لهم الفتاة من الغد هذا اللون من ألوان الطعام ، ثم تتركهما يتحدثان .

والرجل يقص على صاحبه أنه رأى سيارة الراقص المعروف « ريالتو » .. فأعجبته ، ولن يستريح حتى يشتريها منه . وقد ذهب ليتحدث اليه في ذلك فلقي خادمه يحمل زجاجات الشمبانيا وألوانا من الطعام . ولكن الخادم أنبأه أن سيده غائب . فانطلق وهو يعلم أن سيده مشغول باحدى السيدات لايستطيع أن يستقبله . ذلك أن « ريالتو » هذا أستاذ رقص ، وهو أجنبي ، جميل الطلعة ، تفتن به تلميذاته عامة .

ثم يمضى « جان » في حديثه فيقول انه انصرف من بيت الراقص الى الغابة ، فما هي الا أن رأى الراقص في سيارته ومعه

امرأة لم ير منها الا ساقها وحذاءها · وقد استقرت في نفسه صورة هذا الحذاء ، فهو يصفه ويحقق وصفه حتى يسئم صاحبه · و « جان » هذا موسيقي بارع ، فهو يجلس الى « البيانو » ويأخذ في الايقاع وقد انصرف عنه صديقه الى عمله ·

وهما في هذه الحال اذ تقبل الزوجة « سسيل » وكأنها قد سمعت ايقاع البيانو فعرفت وجود صديقها ، فدخلت في رفق ووقفت الى جانبه وأخذت ترافقه مغنية وهو يوقع ، فيلتفت ، ثم تكون التحيات ، ثم الحديث ، ثم تقع منه نظرة على ساقها وحذائها واذا هو صعق ، أو كالصعق ، لأنه عرف الساق وعرف الحذاء · وهو يعود فيصف الحذاء مرة أخرى لصاحبه ويذكر الراقص ، وتسمع سسيل هذا فتضطرب قليلا ، ثم تخفي من أمرها ماتستطيع ، وهي تبالغ في الاخفاء ، وهو يبالغ في الوصف والاعادة والتكرار حتى يسأم الزوج فينصرف الى عمله ويدعهما يتحدثان كدأبهما دائما · فاذا خلا بعضهما الى بعض كان بينهما حوار ينتهي بأن يتهم « جان » صاحبته بالاثم · وهي تدفع عن نفسها وتغلو في الدفاع · وهو يتهمها ويسرف في الاتهام ، حتى يفسد الأمر بينهما أو يكاد · ونحس نحن في هذا الحوار أن الصلة بين هذين الصديقين ليست صلة مودة وصداقة ، وانما هي صلة حب يخفيها كل منهما على نفسه وعلى صاحبه · ثم يدور الحوار ، ويشترك فيه الزوج مرة أخرى ، فيذكر أمر الكاتبة المصورة ومهارتها في الطهي ، وما تقرر من اعداد هذا اللون اذا كان الغد · واذا « جان » يعلن أنه سيدعو الراقص « ريالتو » ليتناول معهم العشاء وليذوق من هذا اللون البديع ·

وكان المعقول أن يبقى « جان » حتى يتناول العشاء معهما ، ولكنه ضيق الصدر ، فهو ينصرف ويترك الزوجين لما بينهما من شأن · ·

***

فاذا كان الفصل الثاني فنحن في غد ذلك اليوم ، وقد دنا الليل أو كاد ، والزوجان ينتظران مقدم « جان » ومقدم الراقص · و « سسيل » مضطربة محزونة تدخن فتسرف في التدخين ، وزوجها يحاول أن يتعرف من أمرها فلا يظفر منها بشيء · وهو

يعتذر اليها لأنه منصرف عنها الى علمه ونبابه · وهي لاتكاد تسمع له ، فان سمعت فلا تكاد تجيبه · وقد أقبل « جان » فتلقاه الزوج مبتهجا ، وتتلقاه الزوجة محزونه مضطربة ، فاذا خلا بعضهما الى بعض كان بينهما حوار كحوار أمس فيه اتهام ودفاع ، ثم فيه مايشبه الاعتراف ، ثم فيه ثورة الصديق ·· ولكن الراقص قد أقبل ، فيتلقاه الزوج و« جان » و « سسيل» لقاء مختلفا : هذا مبتهج ، وهذه مضطربة منكرة ، و « جان » يدبر في نفسه أمرا · فأما الراقص نفسه فقد أقبل لايقدرشيئا ولا يفكر في شيء · وهو يتكلم ويمضي في كلامه مثنيا على الزوج مرة ، وعلى الزوجة مرة أخرى ، وعلى صديقهما مرة ثالثة ، وعلى البيت مرة رابعة ، حتى اذا فرغ من هذا الحديث الطويل المضحك التفت اليه « جان » وأخذ يذكر حب النساء له وكلفهن به ، والرجل ينكر ذلك في ضعف ورفق · ولكن « جان » يلح ويذكر حظه عند هذه وحظه عند تلك ، ويسرف في هذا · وهو في أثناء الحديث يرقب الراقص مرة ، و « سسيل » مرة أخرى ، وكل شيء على وجه « سسيل » يثبت اضطرابها وتورطها ·

وقد خرج الأستاذ لبعض شأنه ، وخلا الثلاثة الى أنفسهم فاذا الراقص قد عرف المكيدة ، واذا « سسيل » تطلب اليه أن ينصرف · فيتردد فتلح وتطرده طردا فينصرف ، وقد ثبت كل شيء ، ولم يبق شك في أنها قد أثمت معه ·

ويعود الأستاذ ، فاذا لم ير الراقص سأل أين هو ؟ فيقال أنه انصرف · ويتكلف « جان » تأويل هذا الانصراف فلا يحفل الأستاذ بهذا ، ولكن جان نفسه يريد أن ينصرف ، فيدهش الأستاذ لذلك ويسأل في شيء من الغفلة : «ماذا يحدث؟» فتجيبه امرأته في دعة وهدوء : « يحدث أني قد خنتك » · فيتلقى هذا الخبر في دهش هادىء ويحاول أن يتبين الأمر ، فتتركه امرأته معلنة اليه أن « جان » سيخبره بكل شيء لأنه كشف كل شيء ·

فاذا خلا الى «جان» لم يتردد هذا في أن يخبره بكل شيء في غضب وحقد وثورة لايعدلها الا هدوء الزوج ودعته واطمئنانه · والزوج يرثي لامرأته ويشفق عليها ، ولا يؤثم الا نفسه ، فهو قد انصرف من امرأته الى العلم وتركها مهملة لايحفل بها · فليس غريبا أن تفتتن هذه المرأة · ثم يثور الزوج ولكن لا على

امرأته ولا على نفسه بل على صديقه . ذلك لأن صديقه قدسافر وأهمل « سسيل » وتركها وحدها ، وكان من الحق عليهأن يبقى معها وأن يرعاها ويحوطها . فاذا أنكر الصديق عليه هذا القول ولفته الى أن هذا واجب عليه هو ، أجابه : « أنت تعـــلم أنى مشغول بالنبات .. »

و « جان » يغريه ويذكي في نفسه نار الحفيظة . ينصح له مرة بالطلاق ، وأخرى بمبارزة الراقص . والأستاذ يسمع هذا كله في هدوء وسخرية . ثم يجيب بحديث له قيمته يمثل ذكاء وفطنة وبصرا بالأمر واذعانا للقضاء . فالأستاذ يعلم حق العلم مصدر هذا الغيظ وهذه الحفيظة ، وهو يقدر حب هذا الصديق لامرأته ولا يتردد في أن يقول له : « ان كنت محفظا فلأنها خانتني مع غيرك لا معك » . بل لايترددفي أنيقول له : «لووددت لو كنت أنت الآن ، فالت صديق الأسرة تخفي مساوئها عـلى الناس وتخفيها على أنا ، فتضعني بمعزل عن هذه الأمور المنكرة التي تنغص على الحياة وتصرفني عما أنا فيه من عمل وبحث » .

وتقبل « سسيل » وقد تهيأت للخروج . فاذا سألها زوجها الى أين تريد أن تذهب ؟ أعلنت اليه أنها ذاهبة الى بيت عمها تنتظر فيه الطلاق . ثم تطلب اليه أن يرافقها الى هذا البيت ، فليس ينبغي أن تخرج وحدها ، فيقبل . وبينما هما يتهيئان للخروج تلتفت الى « جان » قائله : « لقد أردت المأساة فهذه هي المأساة ، ولقد أردت أن تؤلمني فقد ظفرت ، ولكن قد آن أن تألم أنت وستألم كثيرا .. »

***

فاذا كان الفصل الثالث فقد مضت سنة على ذلك اليوم وتغير كل شيء في بيت الأستاذ . وقد تزوج الأستاذ . وقد تزوج الأستاذ من كاتبته ومصورته . ونحن نراها في أول الفصل تنهر الخدم وتتصرف تصرف السيدة المسيطرة ، وتدخل عـلى زوجها فاذا هو منكب على كتبه . فتتحدث اليه في رفق ولـكن في سلطان وتغلب ، وهو مذعن مطيع ولكن على كره .

وهي تطلب اليه الانتقال الى باريس اذا أقبل الشتاء ، فيدافعها قليلا ، فتلح ، فيستسلم . ثم تعلن اليه أن لديها من العمل

مايمنعها من أن تعينه بالكتابه والتصوير ، وأنها ستلتمس له الكاتب والمصور ٠

ثم يعلن اليها الاستاذ أنه قد وصلت اليه أخبار من«سسيل» فيظهر عليها الحنق والموجدة ، وتهم بالنيل من هـــذه المرأة ، فيمنعها الأستاذ من ذلك ، وينبئها بأن « سسيل » قادمة الآن لتتفق معه على زيادة الراتب الذى فرضه لها ، فتأبى الا أن تذودها عن البيت ٠ ولكن الأستاذ قد وجد الحل الملائم،فسيأتى « جان » وسيستقبل « سسيل » وسيتفق معها على كل شيء على حين يخرج الزوجان لبعض شأنهما ٠

وقد أقبل « جان » وعهد اليه صديقه بقضاء هـــذه المهمة ، فيأبى ثم يقبل ٠ ونحن نرى أنه قد تألم كثيرا وقد تغيرت حاله حتى أنكره الأصدقاء ٠

وقد خرج الزوجان وتركاه وحده يتردد فى الغرفة ذاهبـــا جائيا ، ثم يجلس الى « البيانو » ويأخذ فى الايقاع الذى كان يوقعه فى الفصل الأول ٠

ومن هنا تحسن القصة حقا ، وتتخلص من التكلف والتصنع وترقى الى الخيال البديع المؤثر ٠

هو الى البيانو فى ايقاعه واذا « سسيل » قد أقبلت ، فتقف كما كانت تقف ، وترافق كما كانت ترافقه ٠ ويحس بهافيلتفت وقد بلغ التأثر منه ومنها أقصى مبلغ ٠ وكأنهما قد نسيا كل شيء لحظة ، وخيل اليهما أنهما فى عهدهما القـــديم ٠٠ ثم يفيقان فيتبادلان أسئلة وأجوبة قصارا ، ثم يعرض عليها ورقة تركها زوجها القديم لتمضيها ، فتقرأ فاذا هو يعلن أن يزيد راتبها على أن تعيش عيشة امرأة شريفة ٠ فتمضى معلنة فى سخرية أنها تؤجر على الشرف فى حين يؤجر غيرها على الاثم ٠

ونحن نحس أنها لاتملك نفسها من التأثر والاضطراب،وأن صاحبها لايملك نفسه أيضا ٠ وقد أمضت وخرجت متعجلة لانها مدعوة الى الشاى ، فنسيت أحد قفازيها ، فيهوى اليه « جان» ويحمله الى فمه يقبله باكيا ، وكأنها ذكرت مانسيت فتعود غير منتظرة ، فترى ٠٠ فتطلب قفازها ، فيدفعه اليها ٠ ثم تطلب اليه الورقة التى أمضتها ، فاذا دفعها اليها مزقتها تمزيقـا ٠ فاذا سألها عن ذلك أخبرته انها ليست فى حاجة الى هذا الراتب ،

وأنها مخطوبة ، وأنها ستتزوج من رجل غنى .

فقدر أنت وقع هذا فى نفس « جان » . وهى تريد أن تمضى ولكنها لاتستطيع . وهى تتحدث الى « جان » حديثا قصيرا فيه ابهام وغموض ، وفيه جلاء ووضوح .. ولكنها لاتلبث أن تفاجىء « جان » بأنها تعلم مافى نفسه حق العلم ، وتقدر أن تألم ألما لا حد له . وهى تعلم من أمره كل شيء ، وهو يعـلم كذلك كل شيء . وقد أجلسته في المكان الذىتعود الجلوس فيهمنقبل ، وجلست أمامه كما كانت تفعل ، وأخذت تتحدث اليه لينة مرة عنيفة مرة أخرى ، معلنة اليه أنها أحبته منذ ست سنين حـين كانت خطبا لزوجها . ولو قد دعاها فى ذلك اليوم لأسرعتاليه ولكنه لم يفعل ايثارا لمودة صاحبه . وهى مازالت تحبه وترى زوجها صديقا ليس غير . وهى لم تخن زوجها وانماخانته هو . واذا هو ينكر أن تكون قد خانته ، ويزعم أنه كان مخطئا كذابا وهى تؤكد له أنه لم يخطىء ولم يكذب . فيجيبها بأنها ان كانت آثمة فهو يحب الاثم ويكره الفضيلة ، وان كانت كاذبة فهويحب الكذب ويكره الصدق .

وينتهى بهما هذا الحوار الى شيء من الذهول يدفع كلمنهما الى صاحبه . واذا هما قد اعتزما السفر معا واستئناف حيـاة جديدة فيها الحب الصريح الذى لا تكلف فيه ولا غشاء عليه . ولكنها تذكر أنها تعرف من أمره ومن خلقه ماتعرف، وأنها تؤثر أن يكون الزواج بينهما قبل السفر . فلن يعيشا خليلين . فيفيق عند هذا ويذكرها بخطيبها الغنى وما أنبأته به من الزواج .. فتضحك وتعلن اليه أنه هو خطيبها ، وأنه سيكون زوجها ، وأنها قدرت ذلك كله منذ رأته . وهما يتهيئان للخروج واذا الاستاذ قد أقبل ومعه امرأته الجديدة ، فيدهش وتدهش امرأته ، ولكنها تقبل على « سسيل » لتحييها كارهة . وهى تلتمس لها اسما تدعوها به فلا تجد . فتجيبها « سســـيل » أن انتظرى أياما فستدعينني « مدام دى فيلبيه » . فانظر الىابتهاج الأستاذوالى قوله : « لقد أضعتما الوقت فى انتظار هذا اليـوم . وماكان أحراكما أن تصلا اليه منذ أمد بعيد » .


ظهر حديثا

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي أدوار بورديه

بهذه الجملة تعنون الاعلانات التي تنبيء الناس بظهور الكتب في فرنسا . وقد اتخذها الكاتب الفرنسي أدوار بورديه عنوانا لقصة تمثيلية ، دهش لها الباريسيون أشد دهشة ، ثم أعجبوا بها أعظم الاعجاب ، وكان الأدباء أشد الباريسيين دهشا لهذه القصة وأكثرهم بها اعجابا ، ذلك لأنهم رأوا فيها أنفسهم . فمنهم من أعجبته صورته فرضي ، ومنهم من لم تعجبه صورته فسخط ، ولكنه لم يستطع أن ينكرها ولا أن يخفي مابينها وبينه من المطابقة فاضطر الى الاعجاب في شيء من التحفظ قليل أو كثير .

أما جمهور النظارة فقد دهش لهذه القصة لأنه لم يتعود أن يرى أبطالها في الملاعب وانما تعود أن يشهد طائفة من القصص تعرض عليه ألوانا من الناس يراهم في كل يوم ويتصل بهم في كل حين من أحيان الحياة العملية . فأما الادباء والكتاب فهو لايكاد يراهم أو يتصل بهم الا من طريق الكتب التي تذيعها المطبعة في كل يوم وفي كل أسبوع بالعشرات والمئات . وقلما يتصل جمهور النظارة بكاتب أو أديب كما يتصل عادة بالصانع أو التاجر أو المهندس أو صاحب المال . فليس غريبا أن يدهش هذا الجمهور حين يرى الادباء قد عرضوا أمامه في الملعب عرضا صريحا لايخلو من قسوة ، كما أنه ظريف لايخلو من خفة وحيلة ودهاء . ثم ليس غريبا أن يدهش الجمهور لأن الذي يعرض عليه هؤلاء الأدباء هذا العرض القاسي الظريف هو أحد هؤلاء الادباء فعمله هذا لايخلو من شجاعة تسر وترضي وتبعث على الدهش ثم على الاعجاب .

وقد انقسم النقاد والأدباء في أمر هذه القصة ، فمنهم من رأى أن الكاتب انما أراد تمثيل طائفة بعينها من الكتاب والادباء ، هي هذه الطائفة التي تتنافس وتختصم ، لاتحفل في تنافسها وخصومتها بشيء ، والتي تتخذ الأدب والفن وسيلة الى الثروة والشهرة ، لا الى الجمال الفني من حيث هو : ويجب ان نعترف بأن هؤلاء النقاد هم كثرة الذين تناولوا هذه القصة بالنقد -

وذلك يدل دلالة واضحة على أن هؤلاء النقاد جميعا قد سخطوا فيما بينهم وبين أنفسهم على هذه القصة وأبوا ان يروا فيها صورا صحيحة للأدباء فكانوا كالنعامة التى تخفى رأسها حتى لاترى الصائد ·

ونقاد آخرون ولكنهم قليلون رأوا أن هذه القصة تمثل مافى الأدباء من ضعف ، ولكنهم مروا بذلك مرا سريعــا وأظهروا اعجابهم بلفظ القصة وأسلوبها ومافيها من حركة خفيفة لبقة · وفى هؤلاء النقاد شجاعة ولكنها شجاعة اضافية · فقد أبوا أن يخفوا رءوسهم ولكنهم لم يستطيعوا أن يمدوا أبصارهم مدا طويلا ··

وأولئك وهؤلاء – فيما أظن – لم يقدروا القصة قدرها ولم يضعوها حيث أراد الكاتب أن يضعها · ولو قد فعلوا لرأوا أن مافى القصة من عبث بالادباء وتمثيل لما فيهم من عيب ونقص يمس مايقع بينهم من التنافس والخصومة ليس شيئا بالقياس الى الفكرة الاساسية التى أراد الكاتب أن يمثلها والتى هى شىء آخر غير هذه الحياة المادية التى يقع فيها التنافس والاختصام بين الأدباء ·

شىء آخر يمس طبيعة الأديب من حيث هو أديب ويعرفه تعريفا منطقيا صادقا ماأظن أنه يقبل نقضا أو اعتراضا · فالادباء جميعا يختصمون ويتنافسون ، ويكيد بعضهم لبعض ويغرى بعضهم ببعض · وليس هذا العيب مقصورا على الادباء ولكنه يتناول أصحاب المهنة الواحدة فى كل فن وفى كل صناعة تناولا يختلف قوة وضعفا باختلاف المتنافسين وتفاوتهم فى حــدة الامزجة واعتدالها ·

ولو لم يقصد الكاتب فى قصته الا الى تمثيل هذا النحو من عيوب الأدباء لما كان لقصته خطر ، ولما استحقت قصته هــذا الفوز الذى ظفرت به · انما الفكرة الأساسية التى تدور عليها القصة والتى قصد اليها الكاتب معروضة عرضا واضــحا فى الفصل الرابع من فصول هذه القصة حين يظهر فى جلاء وبداهة أن الأديب يمتاز بأنه لايستطيع أن يحس شيئا أو يرى شــيئا حتى يستحيل هذا الشىء فى نفسه فنا يجب أن يكتبه وينشر

على الناس مهما تكن النتيجة التى تنشأ عن هذه الكتابة وهذا النشر ، ومهما يكن فى هذه الكتابة والنشر من خروج على المألوف وتجاف عن العادات والاخلاق ، وما يصل بين الناس عادة من صلات المجاملة وحسن العشرة ، بل من صلات المودة والصداقة، بل من صلات الحب والاخاء .

فالأديب أداة ناطقة لاتستطيع الصمت ، وهى تنطق بكل شىء وفى كل ظرف ، لايحول بينها وبين النطق الا هذه القوى القاهرة التى تضطرها الى الصمت أحيانا ، فتصمت ولكن على كره منها ورغم . والأديب أداة تصوير تصور أبدا ولا تستطيع أن تكف عن التصوير الا حين لاتجد ماتصوره أو حين يعرض لها الفساد فى مزاجها وتكوينها . وهى تصور دون أن تحسب حسابا للنتائج هذا التصوير وما قد يستتبعه من الاحداث فى التصوير . وأكثر ماتصور هذه الأداة وأحسن ماتصور حين تضطر الى تصوير نفسها وما يعرض لها من ألوان التأثر والانفعال . ولو قد خليت وتركت لها الحرية المطلقة لأظهرت للناس من دخائلها أسرارا لاتخلو من بشاعة فظيعة ، ولكنها لاتخلو فى الوقت نفسه من جمال رائع . فالأديب اذن بطبيعته مرن الضمير لايكاد يحفل بما يحفل به الناس فى سبيل القول والتصوير الا لأنه يضطر الى ذلك اضطرارا .

هذه الفكرة هى التى قصد اليها الكاتب وأراد تصويرها . وهو فى طريقه الى تصوير هذه الفكرة قد ألم بطائفة من عيوب الأدباء ونقائصهم لم يكن له بد من الالمام بها لأنه يصور تصويرا صحيحا فلم يكن يستطيع أن يخفى شيئا مما يتألف منه شخص الأديب حقا .

ومع أن موضوع هذه القصة طريف فقد وفق الكاتب الى أن يتقن تمثيله كما لو كان من هذه الموضوعات التى تطرق فى كل يوم والتى سهل أمرها على الناس فهم يتناولونها ويتصرفون فيها دون أن يجدوا فى ذلك مشقة أو عسرا .

وفى الفصل الأول من هذه القصة بنوع خاص حركة خفيفة شديدة الخفة ، سريعة قوية السرعة ، تدفعك معها فاذا أنت مسرع فى القراءة مسرع فى التفكير مسرع فى تحقيق ماتقرأ وما تفكر فيه . واذا انت تحيا حياة كلها سرعة وكلها لذة ورضا

وفكاهة واشمئزاز مضحك ، حتى اذا فرغت من هذا الفصل احتجت الى أن تستريح والى أن تطيل الراحة بعض الشيء، لأنك قد جريت فأكثرت الجرى ٠ حتى اذا كانت الفصول الأخرى سرت سيرا هادئا مطمئنا ولكنه ممتع مفيد لاتكاد تخطو خطوة حتى تضحك أو تعجب أو تستكشف من أمر الأديب شيئا لم تكن تقدره ٠ وما تزال كذلك حتى تنتهي مع القصة الى الاديب المنتج فتراه كما أراد الله أن يكون ممليا ما انتجـــه من الآثار الادبية بعد ماشاء الله أن يقتحم في سبيله ما اقتحم من هول يبعث في نفسك الاشفاق والازدراء معا ٠

***

نحن في دار من دور النشر في باريس يشرف عليها رجل ماهر في صناعته ٠٠ قوى الارادة حديد الفؤاد مرن الضمير ، فصيح اللسان غريب الجمل لايفكر الا في صناعته ولا يعنيه الا أن يفوز ويتفوق على خصومه الناشرين ٠ هذا الرجل هو جوليان موسكا ، ونحن نرى في أول الفصل رجلين يعملان ، يملي أحدهما على صاحبه أسماء الكتب التي طلبتها المكاتب ومقادير هذه الكتب وهو يمضي في ذلك بطريقة مضحكة قد لايكون من اليسير أداؤها في لغتنا العربيه لأنه يقرن بأسماء الكتب المختلفة باختلاف موضوعاتها الفنية والعلمية موازين هذه الكتب بالكيلو جرام ٠ وبينما هما في عملهما هذا تختلف عليهما طائفة من الناس اختلافا سريعا يعرض علينا أكثر أشخاص القصة ٠ فهذا أديب يقال له بريجايون قد أقبل مسرعا يسأل عن صاحب الدار ٠ فلما لم يجده أنكر تأخره في هذا اليوم وأنبأ بأن لديه شيئا هاما يريد أن يفضي به اليه وأنه سيعود بعـد لحظة ٠ وتفهم من حديثه أن لهذا اليوم في حياة الدار خطرا لأن هناك جائزة أدبية كبرى هي جائزة زولا ، يتنافس حولها الكتاب ٠ وقد رشح لها صاحب الدار أديبا وجد في ترشيحه وظفر بوعد الكثرة المطلقة من المحكمين أن يعطوه أصواتهم ٠

ثم ينصرف هذا الأديب ويقبل رجل آخر مهمل الزى تقتحمه العين يقول له مارك فورنييه يسأل عن صاحب الدار فلا يكاد يحفل به أحد بل نحس من أهل الدار تبرما به ورغبة في دفعه عنها وعن صاحبها ٠ ونفهم أنه قد عرف صاحب الدار حين كانا يؤديان

معا خدمتهما العسكرية · والرجل يلح فى السؤال وآهل الدار يذودونه ويمنونه بلقاء صاحبه بعد أيام · ولكن هذا أديب آخر قد أقبل متعاظما مشغول البال فيستقبله أهل الدار فى شيء من الاجلال والتكريم وهو ماريشال مرشح الدار للجائزة· وهو يسأل عن صاحب الدار فينكر تأخره ويسأل عن كتابه فنفهم أنه قد طبع منه خمسة وعشرون ألفا وأعدت النسخ لترسل الى مكاتب باريس والاقاليم بعيد ظهور النتيجة ، وقد كتبت العنوانات وحملت العربات وأعلت صور الكاتب الفتوغرافية ولم يبق الا أن يضع الكاتب اسمه عليها بخطه لتعرضها المكاتب بعد الظهر ، والكاتب ينظر الى هذه الصور فلا تعجبه لأنها تمثله متقدما فى السن كأنه قد بلغ الاربعين، ولكن صاحب الدار قد طلب أن تعرض هذه الصور لأنها هى التى ينتظر أن تعجب السيدات ، فيأخذ الكاتب فى التوقيع · ثم يبدو له فينصرف على أن يعود بعد قليل ··

وهذا صاحب الدار مقبلا ومعه كاتب مشهور فيلسوف أديب من المحكمين هو بورجين · فاذا دخلا تعرض مارك فورنييه لصاحب الدار فينصرف عنه مزورا ويمضى مع صاحبه الى غرفته . ويقبل العمال يعرضون عليه أمور الدار في سرعة غريبة ، فينجزها مسرعا ناطقا بألفاظ قصار متقطعة ، حتى اذا فرغ من ذلك في لحظة التفت الى الفيلسوف الأديب وتحدثا في الجائزة فنفهم أن كثرة المحكمين قد انقادت لهذا الناشر بفضل هذا الفيلسوف · ولكن من المحكمين من يتردد ، فيقول الناشر لصاحبه : أفهمه أني أعتمد عليه فى كتابة النقد التمثيلى لصحيفة كذا · فيغضب الفيلسوف لأنه كان يرجو لنفسه هذا العمل ، ويرضيه الناشر ويتفقان ، وينصرف الفيلسوف على أن يرسل معه الناشر عاملا يأخذ منه أخبار المداولة ليوصلها اليه كأسرع مايمكن ·

وهذا بريجابون قد أقبل فأدخل على الناشر فيدور بينهما حديث موجز سريع يغير كل شيء · ذلك أن هذا الاديب يخبر الناشر بأن مرشحه قد خانه ، وأنه اتفق مع ناشر آخر على أن يعطيه كتبه المقبلة . وقد أمضى العقد بينهما أمس · فاذا سئل عن البرهان قال عرفت ذلك من كاتبة ذلك الناشر التى كانت

تحب ماريشال فخانها فهى تنتقم لنفسها . ثم يخرج ويعود ومعه الكاتبة التى تظهر العقد للناشر فينظر فيه ويرده اليها ويمنحها مكافأة مالية ويعدها بكتمان السر ويصرفها فتصرف. والناشر مغضب مضطرب لأن صاحبه قدخانه وعبث به ولأنه بذل جهدا عنيفا حتى ظفر بأصوات المحكمين ، وانفق ستين الف فرنك في الاعلان عن هذا الكتاب وكانت نتيجه هذا كله الخيانة .

ولكنه رجل لايعرف الهزيمة ولا يطمئن اليها ، ولا تؤلمه الخسارة المادية . فاذا هو يسرع الى التليفون فيدعوفيلسوفه الأديب ويعلن اليه فى حزم أنه لايريد بوجه من الوجوه أن يفوز ماريشال . ثم ينتظر ، وهذا ماريشال قد أقبل ، فيتلقاه مبتسما مبتهجا ويطلب اليه فى هدوء أن ينظما أمرهما وان يمضيا هذا العقد الذى يضمن له نشر كتب الأديب المقبلة ويضمن للأديب موردا ضخما . فيتردد الأديب ويلح الناشر ويشتد تردد الأديب فيشتد الحاح الناشر فيأبى الأديب . وهذا التليفون يدعو فيصغى اليه الناشر فيكتب أرقاما على ورقة أمامه . حتى اذا فرغ أعلن الى الأديب فى هدوء أنه قد انتهى التصويت الأول وأنه لم يفز فيه . فيسخط الأديب ويضطرب ويصيح ويتهم بالخيانة فلانا وفلانا من المحكمين .. ولكن التليفون يدعو مرة أخرى ، ويصغي اليه الناشر ثم ينبىء الكاتب بأن فشله فى التصويت الثانى أعظم من فشله فى التصويت الأول . فيشتدسخط الكاتب . وهنا ينبئه الناشر في سخرية بأنه لم يحسن حين اتفق مع خصمه، فيفهم الأديب ، واذا هو يبرق ويرعد وينذر ويوعد ، ولكن التليفون يدعو للمرة الثالثة فيصغى الناشر ثم يعلن بعد ذلك أن قد انتهى التصويت وفاز بالجائزة رجل مجهول لايعرفه أحد ولم يسمع به أحد ، رجل من الأقاليم يقال له ايفنوس .

وقد خرج الأديب مغضبا موعدا ولكن الناشر عنه في شغل فما أسرع مايستفسر أمر هذا الفائز بالجائزةفهورجل منمدينة أورليان طبع كتابه « استيقاظ الفؤاد » فى مطبعة من مطابع المدينة . فما أسرع مايتصل الناشر بصاحب هذه المطبعة من طريق التليفون فينبئه بالخبر ، ويشترى منه حقوق الطبع وما بقى عنده من نسخ الكتاب ويأخذ منه عنوان المؤلف فى

باريس ويرسل اليه جماعة من العمال فى سيارة يؤدون اليه الثمن ويأخذون منه نسخ الكتاب على أن يعودوا مع الليل تم يدعو أحد عماله فيعطيه عنوان المؤلف ويأمره أن يمضي مسرعا ولا يعود الا ومعه المؤلف مهما يكلفه ذلك من مشقة وحيلة . كل ذلك في سرعة ولباقة لا حد لهما . وما هى الا لحظة حتى يعود العامل ومعه سيدة فينبيء صاحب الدار بأنه لم يجد المؤلف فجاء بامرأته . وتدخل جاكلين فتتحدث الى الناشر فنفهم من حديثها أنها لاتقدر فوز زوجها ولا تفكر فيه ، وأنها تعرف أن زوجها قد ألف كتابا وعرضه على هذا الناشر وهي تظن أن هذا الكتاب قد أعجب الناشر وهى سعيدة بهذا ، والنـــاشر لايفهمها ثم ينتهى بهما الأمر الى أن يفهم كل منهما صاحبه فيعلن اليها الناشر أن زوجها قد ظفر بالجـــائزة ، فاذا هى مغتبطة سعيدة ، واذا هي تنبيء الناشر بأنها هى التى قدمت الكتاب الى المحكمين لأن زوجها رفض ذلك لثقته بأنه لن يظفر بشيء . وهو موظف في احـــدى الوزارات ، وهو رجـل من أورليان يقال له مارك فورنييه ، فاذا سمع الناشر هذا الاسم ذكره وذكر صاحبه وذكر أنه هو هذا الذى يتردد منذ أيام فلا يقبل . وطلب الى زوجه أن تكتب اليه كلمة يحملها اليـه بعض العمال ليأتى به . وبينما هى تكتب يقبل مارك فورنييه فيتلقاه العمـــال فى تبرم وازدراء ويذودونه عن الدار ذودا فينصرف وقد دعا الناشر أحد العمال وطلب اليـه أن يمضى بهذه الكلمة وأن يأتيه بمارك فورنييه . فاذا أدخله على الناشر تلقاه هذا في مودة لا حد لها فهو يضمه اليه ويقبله ثم ينظر الرجل فاذا امرأته واذا هو يعلم بفوزه واذا هو دهش قد أذهله النبأ . وانظر الى الناشر يفتح أمامه أبوابا من الأمل، فسيقبض الجائزة خمسة عشر الف فرنك ، وسيقبض منه هو عشرة آلاف مقدما ، ثم يستقيل من الوزارة وينصرف الى الأدب ، واذا هو من الأغنياء ، واذا هو من أصحاب الصوت الذائع .. وهم فى ذلك اذ أقبل صحفي يستنبيء عن هذا الكاتب الذى فاز فاذا رآه رغب في أن يأخذ منه حديثا وفى أن يأخذ صـــورته ، وما أسرع ماتؤخذ الصورة فيها المؤلف وامرأته والنـــاشر . ولكن المؤلف قد أخذ يشعر بقيمته وأخذت تظهر فيه الصفة

الأولى من صفات الأديب ، فهو يسأل مبتسما أليس يحسن أن أصور منفردا ؟

***

فاذا كان الفصل الثاني فقد مضى على ماقصصنا عليك عام ونصف عام ، وانصرف كاتبنا مارك فورنييه الذى اتخذ لنفسه اسم افنوس الى صناعة الأدب واستقال من عمله فى الوزارة وأخذ من الشهرة الأدبية بحظ موفور • وكان قد اتفق مع الناشر على أن يتعجل اصدار كتاب آخر ، وعلى أن يكون هذا الكتاب استمرارا لكتابه الأول الذى نال الجائزة • وهو منذ ثمانية عشر شهرا يعمل فى هذا الكتاب الثانى فلا تؤاتيه القريحة ولا يكاد يظفر بشىء •

ونحن نراه أول هذا الفصل جالسا الى مكتبه ينظر فى صحيفة كئيبا ضيق الصدر ثم يسرع الى هذه الصحيفة فيمزقها مغضبا محرجا • وما هى الا أن تقبل امرأته فيتلقاها فاترا وتحدثه عمن لقيت فى بعض زياراتها ثم تسأله عن عمله فينبئها بأنه لم يعمل شيئا وبأنه لم يوفق الى شىء ويظهر لها ميله الشديد الى الانصراف عن هذا الكتاب بل عن الأدب كله لأنه لايحسن أن يكتب • وهى تلومه وتشجعه وتغريه ولكنها لاتظفر منه بشىء • ونحس فى هذا الحديث جهاد الرجل بين مايشعر به من العجز وما يشعر به من الاحتفاظ بمكانته الأدبية وما يشعر به أيضا من طمع امرأته وحرصها على هذه الحياة الجديدة التى تجد فيها الدعة والثروة وتجد فيها الشهرة والرفعة• ثم نشعر بشىء آخر هو هذه الموجدة التى يحسها الأديب على الأديب اذا قدر التوفيق والفوز • فصاحبنا واجد على ماريشال لأن الناس يتحدثون عنه والنساء يتهالكن عليه ، وصاحبنا يرى أن هذا الرجل ليس شيئا وأنه من أصحاب الفن السهل الذى لا جد فيه ولا غناء • وامرأته لاتدافعه فى ذلك ولكنها لاتجاريه ، وهى تنبئه بأن ماريشال قد يأتى بعد قليل ليراه فيكره ذلك ويتبرم به • وهذا التليفون يدعو فنفهم من الحديث أن الناشر مقبل ، ونرى كاتبنا شديد الضجر مترددا بين الخروج حتى لايرى الناشر وبين البقاء حتى اذا رآه أخبره بعزمه على الانصراف عن الأدب • ولكن امرأته تستبقيه وتشجعه •وهذا

الناشر قد أقبل فيلقاه وامرأته لقاء حسينا . وما هى الا أن يدور الحديث على الكتاب المنتظر فيزعم الكاتب أن قد مضى فيه الى أمد بعيد ، ويتعجله الناشر ويطلب اليه الأصل بعد ثلاثة أسابيع فيتعلل فيمد له الأجل أسبوعا ، فيأبى فيشتد الحاح الناشر واباء الكاتب حتى يضيق الكاتب ذرعا فيعلن أنه لن يكتب هذا الكتاب لأنه لايستطيع أن يمضى فيه .

وتستطيع أن تتصور غضب الناشر وغيظه بعدما انفق من الجهد والمال ما أنفق . فهو يترضى الكاتب ويتوسل اليه ، ثم ينذره ويخيفه ولكن الكاتب مصر لن يعدل عن رأيه . وهنا يدور حديث نفهم منه طبيعة هذا الكاتب ومقدرته الفنية ، فهو لم يخترع كتابه الأول اختراعا وانما صاغه من قصة وقعت بالفعل لامرأته حين كانت تعمل في المستشفيات في أثناء الحرب فأحبت أحد الأطباء وأحبها هذا الطبيب ، ولم ينته حبهما الى غايته . وكانت الفتاة تكتب مذكرات وخواطر وقعت للكاتب بعد أن اقترن منها فصاغ منها قصته تلك .

وهنا تظهر مهارة الناشر وحرصه على منفعته ، فهو يسأل هذه المرأة : ألم يحبك أحد بعد هذا الرجل ؟ ألم يحدث فى حياتك مايحملك على كتابة الخواطر والمذكرات ؟ فتجيبه : لا . فيشتد غيظه ويسوء الحديث بينه وبين الكاتب ، ويعرض عليه الكاتب الغاء مابينهما من عقد . وما يزال الأمر بينهما فى شدة حتى يفسد ، فاذا الناشر يتهم الكاتب بالخيانة والاحتيال ، واذا الكاتب يطلب الى الناشر أن يخرج من عنده فيأبى فينصرف الكاتب معلنا أنه لن يعود من غرفته حتى يخرج هذا الرجل . ويخلو الناشر الى جاكلين فيكون بينهما حديث آية فى المهارة والغرابة والحرص على النفع والتماسه من جميع الوجوه الممكنة . يعود الناشر فيسأل جاكلين . أليس بين الناس من يحبها أو يظهر لها المودة ؟ فتجيبه : لا . فيلح عليها ثم يعلن اليها أنه لو كان مكانها لالتمس لنفسه عاشقا ومغازلا ولكتب خواطر ومذكرات تمكن صاحبنا من وضع قصته . فاذا انكرت ذلك خيرها بين النعيم والبؤس ، وبين السعة والضيق ، وبين الشهرة والخمول ، ثم فتح أمامها أبواب الأمل فى ثروة لا حد لها ، وشهرة تنتهى بزوجها الى المجمع اللغوى .

وما يزال بها حتى تحس منها شيئا من الضعف ، ثم يسألها الرجل مفاجأة : مابال ماريشال ؟ أليس يحبك ؟ فتجيبه : لا . فيلح فتجيبه : ان هذا الرجل يحب النساء جميعا ويتملقهن جميعا وهو يتملقني كما يتملق غيري من النساء ، وهو مقبل بعد حين ليرى زوجي . فانظر الى الناشر منتصرا مبتهجا لأنه ظفر بحاجته . فلا بد من أن تتلطف جاكلين لماريشال وتطمعه وتقبل تملقه وغزله وتكتب خواطر ومذكرات . وهي تأبى الامر في نفسه . وهو يلح ، فتقبل ولكن مع غير ماريشال . فيلح ويسرف في الالحاح ونحس نحن أن في نفس هذه المرأة ميلا خفيا الى ماريشال وانها لاتحب أن تعبث به هذا العبث . وقد أقبل ماريشال فحيا تحية المحب ، وما يزال الناشر بهما حتى يصل بينهما حديثا يشبه أن يكون حديث حب وقد أغرى كلا منهما بصاحبه ، ثم يدعهما ليصلح ماافسد بينه وبين الكاتب . فاذا خلى أحدهما الى صاحبه أسرع ماريشال فأعلن حبه وهيامه، وهمت المرأة أن تدفعه ولكنها تذكرت الناشر وماتحدث به اليها من الثروة والشهرة ، وتذكر في الوقت نفسه ميلها الخفي الى هذا الرجل فلا تدنيه ولا تقصيه وانما تترك له أملا مغريا ، ويأتي الكاتب والناشر وقد اصطلحا وتم الاتفاق بينهما على أن يستريح الكاتب أشهرا لايكتب شيئا ولا يفكر في شيء حتى اذا أخذ من الراحة بحظ استأنف العمل فتنقاد له المعاني والالفاظ واذا الكتاب قد تهيأ للنشر في وقت قصير .

وللناشر بيت على ساحل البحر في جنوب فرنسا فهو يدعو الكاتب وامرأته الى أن يذهبا الى هذا البيت ليستريحا فيه . وقد قبل الكاتب ورضيت امرأته وفهمنا نحن أن الناشر انما دبر هذا كله ليترك الفرصة لحب ماريشال لعله يظفر بمايحمل المرأة على أن تكتب الخواطر والمذكرات .

وقد أحس الناشر أن ذلك لن يكون الا اذا أرسل ماريشال مع الزوجين الى ساحل البحر ، وقد مهد لذلك فوفق فيه وأصبح ثلاثة القوم مستعدين للرحلة الى الجنوب ، ورضي الناشر عن نفسه وعن خطته وعن فوزه فهو يدعو ثلاثتهم للعشاء معه في مطعم من مطاعم الضواحي وسيحملهم في سيارته . فاما الزوج فسيجلس في مؤخرها مع ماريشال . ولا خوف عليهم من البرد

ولا من الهواء ، ففى السيارة من أنواع الوقاية مايحجب من البرد والهواء ..

***

فاذا كان الفصل الثالث فنحن فى أقصى الجنوب الفرنسى فى بيت الناشر على ساحل البحر حيث يقيم أصحابنامنذحين. ونحن نرى جاكلين تتحدث الى الصحفى الذى رأيناه فى الفصل الأول وقد علم بمكان الكاتبين فأقبل يطلب اليهما حديثين . فأما الزوج فقد تبرم بهذا الصحفى وخرج ، والمرأة تعلل هذا الصحفى وتطلب اليه أن ينتظر حينا ، وأما ماريشال فقد أعد حديثه وكتبه وها هوذا قد أقبل يريد أن يقرأ على الصحفى هذا الحديث وقد بدأ يقرأه عليه ، ثم خرجا يتمان هذه القراءة فى الحديقة . ويقبل الزوج فاذا علم بمكان الصحفى أنكره وسخط على ماريشال فتدافع امرأته بعض الدفاع فيغضب . ونحس أنه يجد فى نفسه شيئا . ثم يخرج ويعلن الى امرأته أنه لن يرى هذا الصحفى ولن يتحدث اليه .

فاذا فرغ ماريشال من قراءة حديثه على الصحفى عادا الى حيث جاكلين فيتعجل الصحفى فتنبئه بأن زوجها قد يتأخر ، فينصرف على أن يرسل اليه الكاتب حديثه مع البريد .

ويخلو العاشقان . فلا يلبث ماريشال أن يلوم صاحبته لأنها مازالت به تطمعه وتغريه حتى ترك عمله فى باريس وأعرض عن سياحة كان ينتظر منها نفعا كثيرا وأقبل معها ولكنه لم يظفر بشىء ، وقد ضاق بهذا الانتظار وكره أن يكون ضحكة لها واعتزم أن يسافر منذ غد . وما يزال بينهما الحديث حتى تعلن اليه المرأة انها تحبه حقا وانها لم تدعه الى اللحاق بها ، ولو قد استطاعت لطلبت اليه ألا يفعل ، ثم تقص عليه القصة كلها . فاذا هو ثائر مغضب لأنه أصبح موضوعا لعبث الناشر والكاتب . وهو محنق لأنه سيكون موضوع قصته ، وهو محنق لأنه لم يظفر فى سبيل ذلك بشىء ما . ومهما تتلطف له جاكلين فهو لايرضى منها الا أن تزوره فى غرفته . وهى تمانع وتغلو فى الممانعة ولكنه مصر على هذه الزيارة فان لم تفعل فهو مرتحل غدا . وقد أذعنت وقبلت هذه الزيارة

والتمسا لها علة وهي أن تأخذ أداتها الكاتبة وتذهب اليه كأنه يريد أن يملي عليها كتبا هو في حاجة الى حفظ أصولها .

وقد صعدت هي تبتغي آلتها الكاتبة وانصرف هو الى غرفته وهو يقول : « اذن فسيكون بينها وبيني شيء لاتستطيع أن تظهر زوجها عليه . ولكن الزوج قد أقبل . ولم يكد يستقر حتى يرى امرأته تهبط ومعها أداتها الكاتبة فيستوقفها ويسألها فتخبره ، فيحظر عليهـــا الذهاب ، فتأبى ، فيلح ويأخـــذها بشيء من العنف ، ويرســـل الخادم لتعلن الى ماريشـــال أن السيدة معتذرة لأن بعض الأمر قد طرأ لها ، ثم يعلن اليها انهما مرتحلان غدا الى باريس فتأبى ، فيعلن اليها أنه يريد ذلك وكفى .

وهذا الناشر قد أقبل ومعه الفيلسوف الأديب الذى رأيناه في الفصل الأول وكانا منتظرين . فاذا سلما وذهب الفيلسوف ليستريح سأل الناشر صاحبه الكاتب كيف يجد نفسه فيخبره بعزمه على السفر منذ غد ليفرق بين امرأته وبين ماريشال بعد أن أصبحت عشرتهما خطرة . فيضحك الناشر منـــه ويهزأ به وينبئه بأن هذه قصة مدبرة وأنه اتفق عليها مع جاكلين وأهدى اليها دفترا تكتب فيه الخواطر والمذكرات ، فأما الكاتب فلا يطمئن لهذا الحديث . وتدعى جاكلين وتسأل فلا تجيب ، فاذا ألح عليها الرجلان أخرجت دفترا ودفعته الى زوجها فينظر فيه فاذا هو نقى لم يكتب فيه حرف واحد . واذن ! فقد كان الأمر بينها وبين الرجل جدا لا هزلا ، وقد احتفظت لنفســها بخواطرها ومذكراتها . فأما الكاتب فكئيب محزون يائس قد أثقله الهم . وأما الناشر فيغريه ويعتذر اليه . واما المرأة فقد صعدت ، ثم عادت وقد تهيأت للسفر تريد أن تعود الى أهلها . فاذا سألها زوجها قالت : أنها تريد أن تخلو وتفكر لترى جلية مايضطرب في نفسها فيأبى الا أن يصحبها . وما يزال بها متهما وشاكا وجزعا ومنذرا حتى تقبل . ذلك أنها تحب زوجها كما يحبها وانمـــا هي أزمة عرضت لها كمـــا تعرض لغيرها من النســـاء والرجال .

سيسافران اذن ، ولكنها تطلب اليـــه الاذن في أن ترى صاحبها وتودعه لآخر مرة بعد أن تقسم له ان لم يكن بينهـــا

وبينه اثم • فيأذن على كره منه ، ويمضي ليتهيا للسفر ، ويقبل ماريشال ، فيكون بينه وبين صاحبته حديث قصير ويتفقان على أن يلتقيا غدا في اورليان • أما هو فنفهم أنه يريد أن يتم خطته ، وأما هي فضعيفة لاتستطيع المقاومة في هـــذه الازمة العنيفة •

وقد سافر الزوجان • واذا نحن نرى الناشر والفيلسوف ومعهما ماريشال ينبئهما أنه سيتبع هذه المرأة الى أورليان ، فيأبى عليه الناشر ذلك ويحاول أن ينصرف عنه فلا يفلح، حتى اذا أحس منه الاصرار الذى ليس بعده رجع اتخذ أقرب الطرق الى الاقناع ، فأعلن اليه أن المجمع اللغوى ســيمنحه الجائزة الكبرى ، وان المجمع اللغوى محافظ لايمنح الجوائز لمن يعرف عنهم الاثم • فلا يكاد ينبئه بذلك حتى يتردد ثم يعلن ايثـاره للجائزة على الحب •

***

فاذا كان الفصل الرابع فقد مضى حين من الدهر على ماحدثتك به • وقـد عاد الزوجان الى باريس ، وانصرف الـكاتب عن الأدب ، واستأنف عمله في وزارته ، وانقطعت الصلة بينه وبين الأدباء والأندية الأدبية ، وأصبح كما كان من قبل موظفا عاديا • ولم يبق من هذه القصة الا ذكرى مؤلمة تنغص عـلى الزوجين حياتهما ، فهو واثق بأن امرأته لاتحبه ، شاك فيما كان بينها وبين ماريشال ، وهي تكره منه هذا الشك وتضـيق به وتعيش معه عيشة المرضة مع المريض ، وتحمل في نفســها آلاما خاصة لاتتحدث بها الى أحد الا الفيلسوف الذى احتفظ بما بينه وبينها من صلة فهو يزورها من حين الى حين •

وقد ساءت حالهما المالية سوءا شديدا ، فكثر الدين وألحف الدائنون ، وأنذرت الخادم بترك العمل ان لم تؤد اليها أجرها • وجاء النذير بأن التليفون سيقطع • وهي تطلب الى زوجها أن يقترض شيئا على مرتبه من الوزارة فيجيبها بأنه قد فعل ذلك مرة وليس له أن يعود ، فتطلب اليه أن يلتمس عند الناشر قرضا فيرفض في عزة واباء • فتعلن اليه انها ستبيع بعض حليهـا •

وقد انصرف وبقيت وحدها فتدعو الخادم وتأمرها أن جاء بعض الدائنين أن تنكر مكانها .

وقد دق الجرس وعادت الخادم تنبىء بأن ماريشال يستأذن. فتدهش جاكلين لمقدمه وتهم أن ترفض استقباله . ثم يبدو لها فتأذن له . ويقبل ماريشال ، وقد لعب الخيال برأس هذه المرأة فأحيا في نفسها كل شيء ورد الأزمه الى حدتها الأولى ، واذا هي تعاتبه لزيارته .

وتنكر هذه الزيارة ، وتعتذر اليه لأنها أبرقت اليه ألا يتبعها في أورليان وقد خيل اليها أنه أقبل مستأنفا للحب والمودة . ولكنه لم يقبل لشيء من هذا ، انما أقبل يعرض عليها قصة صغيرة صور فيها تصويرا بديعا ماكان بينهما من الأمر . ولم يرد أن تنشر قبل أن تقرأها بل قبل أن تكون أول من يقرأها . فلا تسل عن وقع هذا النبأ على نفسها فقد انهدم كل ما بناه الخيال ونظرت فاذا قيمة حبها ومودتها وما احتملت في سبيلهما من ألم وما تعرضت له من خطر وهذه الحياة المنغصة وهذا البؤس .. قيمة هذا كله عند هذا الرجل أنه يصلح موضوعا لكتاب !

وهي تدفع اليه قصته وتعتذر من قراءتها فيخرج مغضبا محنقا لأن هذه القصة خير ماكتب .

وقد دق الجرس وأقبل الفيلسوف فرآها كئيبة محزونة فيسألها فتنبئه فيغضب . فيخيل اليها أنه يغضب لما تغضب له . ولكن الفيلسوف لم يغضب لهذا انما لأنه وضع من هذه الحادثة قصة تمثيلية ويسوءه أن يسبقه ماريشال الى اذاعتها . فهو اذن كصاحبه ! لم يكن صديقا ولا معزيا ولا وفيا . ولم يكن يتردد عليها ويتصل بها الا ليكون أشخاصه ويقومهم . واذن فقد قضى عليها وعلى زوجها أن يألما ويشقيا ويحرما ليكتب ماريشال قصته وليكتب بورجين تراجيديا أو كوميديا .

وقد أقبل الزوج فتدهش لمقدمه فينبىء بأنه لم يذهب الى الوزارة هذا اليوم . وينصرف الفيلسوف فاذا خلا الزوجان رأينا نفس المرأة قد تغيرت . فاذا هي ممتلئة حنانا ومودة لزوجها ، واذا هي تثوب اليه راضية مطمئنة . أليس هو الذى احتمل

ما احتمل من ألم صامتا فلم يستغل ولم يكتب ، وهى تنبئه ينبأ ماريشال والفيلسوف فيثور ويغضب وينذر . وهى تهدئه وتهون عليه . وقد دنت منه فوضعت رأسها على كتفه راضية مطمئنة مستأنفة حبها الأول .

ولكن الزوج يرد رأسها عن كتفه . ويظهر على وجهه الاضطراب والاستخذاء . فاذا سألته أنبأها بأنه هو أيضا قد كتب كتابا .. ثم فصل ذلك فنفهم أنه كان يذهب الى الوزارة فيتم عمله الرسمى فى لحظات ثم ينصرف الى كتابه فيمضى فيه حتى كتب ما يبلغ مجلدين . فتسأله : أين ذلك ؟ فيظهرها عليه . ثم يصفه فاذا هو راض به بل معجب به أشد الاعجاب واثق بأنه سيظفر برضا الجمهور واعجابه ولكنه لن ينشره لأنه لم يكتبه للنشر انما كتبه لنفسه . فاذا أظهرت الشك فى ذلك أعلن اليها أنه سيمزقه ويحرقه .

وهذا الجرس يدق ، وهذه الخادم تقبل وتعلن أن بعض الدائنين يأبى أن ينصرف وينذر بالمحضر ، وهذا الجرس يدق مرة أخرى ، وهذا الناشر قد أقبل لأن الزوج كان قد مر به فلم يجده فترك بطاقته ، فأقبل لعل صديقه فى حاجة اليه . ولكنه يعلن الى صديقه قبل كل شىء أنه مستعد لمعونته الا فيما يمس المال فهو لايستطيع أن يقرضه الآن قليلا ولا كثيرا . هنا يظهر الصراع بين المؤلف والناشر قويا عنيفا ولكنه ممتع مضحك . ذلك أن الزوج يعلن الى الناشر أنه لايريد قرضا وانما يريد جزءا من ثمن قصة أتمها ويوشك أن يقدمها اليه . فلا يصدقه الناشر ولا يحفل به ، بل يعلن اليه أن كتبه أصبحت لاتعنيه . ثم ينهض لينصرف ، واذا الكاتب قد أسرع الى التليفون فدعا ناشرا آخر وأنبأه بأن لديه كتابا يريد أن ينشره وأنه يحب أن ينشره عنده وأن يلتقيا ليمضيا العقد . هنا تثور حفيظة الناشر فيذكر ما اتفق وما دبر وماكاد ، ويكره أن تكون نتيجة هذا كله لخصمه . واذا هو قد أسرع الى التليفون فينتزعه من الكاتب انتزاعا ويأخذ فى المفاوضة فيعرض خمسة آلاف وتطلب جاكلين عشرة ويأبى الكاتب الا عشرين ألفا والا أن يرفض الناشر قصة ماريشال ، فيذعن الناشر . واذا الحياة قد عادت الى جاكلين ، واذا الأمل قد ابتسم لها ، واذا الناشر قد استأنف الثقة بالكاتب وهو يطلب اليه أن

يستقيل فيأبى فى شـــدة لأن الوزارة أحسن مكان يصـــلح للتأليف ·

وقد تم الاتفاق بين الرجلين وانصرف الناشر وخلا الزوجان ، فبينهما حديث فيه غبطة ومرارة وفيه اذعان المرأة وطمعها وفيه ألم الأديب وغروره · ولكنهما قد وعدا الناشر أن يقدما اليـــه الأصل بعد خمسة عشر يوما فلا بد من البدء فى تهيئة هـــذا الأصل · وهذه جاكلين قد جلست الى المائدة وهيـــأت الآلة الكاتبة ، وهذا زوجها قد أخذ يملى عليها كتابه فى بطء ، بينما يسدل على ذلك الستار ·



قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي بول هرفيو

أما هذه المرة فسأدع مايكتبه أصحاب التمثيل ، وما تشغل به الملاعب في هذه الأيام الى كاتب مات منذ سنين وانصرفت الملاعب انصرافا مؤقتا عن قصصه التمثيلي ، وان كانت عقول الناس وأذهانهم لم تنصرف عنه بعد ولا ينتظر أن تنصرف عنه قبل زمن طويل . وهو بول هرفيو .

ولست أدرى لم تركت ماكان بين يدى من القصص التمثيلية الكثيرة التي ظهرت في هذا العام أو في العام الماضي وعدت الى بول هرفيو استعرض قصصه وأتخير من بينها قصة أجعلها موضوع الحديث في هذا الشهر . أو قل انني اعرف السبب الذي صرفني عن الكتاب الاحياء المنتمين الى هذا الكاتب وهوأني أحبه وأعجب به ولا أعرف حدا لحبي اياه واعجابي به . أحبه فاقرأ قصصه ثم أعيد قراءتها المرة بعد المرة ، فلا أسأم ولا أمل بل أجد فيها كلما أعدت قراءتها لونا من اللذة جديدا وفنا من الاعجاب طريفا . واذا كان هناك شيء يصح أن أتساءل عنه فهو هذا الحب الذي لا حد له ، والذي يزداد قوة كلما أمعنت في قراءة هذا الكاتب . لقد حللت طائفة من قصصه وكتبت عنه غير مرة ، ومع ذلك فأنا راغب في أن أعود اليه ، وأن استأنف الحديث عنه . لا أجد في ذلك مشقة ، ولا أخشى أن يجد القارىء في العودة اليه مشقة أيضا . أذلك لأن فلسفة بول هرفيو في قصصه التمثيلية هي أشد أنواع الفلسفة الخلقية اتصالا بمزاجي الشرقي وملاءمته لحياتي الشرقية؟ فالشرقي ـ سواء رضي أم كره ـ قدري مطمئن الى أن هناك سلطانا قويا قاهرا يصرفه ويسيطر عليه كما يصرف الأشياء من حوله ويسيطر عليها . هو مقتنع بهذا القدر مطمئن اليه مستسلم له وحياته العملية كلها متأثرة بهذا الاطمئنان والاستسلام ، كما أن حياته العقلية والشعورية متأثرة بهما تأثرا شديدا تختصره هذه الجملة التي يرددها المسلمون عن اقتناع وايمان واطمئنان ، والتي كنت أستعيرها عنوانا لهذه القصة : « لاحول ولا قوة الا بالله » .

نعم ان فلسفة بول هرفيو في الاخلاق وفهمه للحياة يمثلان هذا النوع من القدرية التي يؤمن بها الشرقيون ويذعنون لها

اذعانا كون أمزجتهم تكوينا . فأنت حين تقرأ قصه من قصص بول هرفيو لاتكاد تمضى في القراءة حتى تحس أن الكاتب جاد في أن يزيل عن نفسك طائفة من الغشاوات التى تختلف كثافة ورقة ، والتي تخيل اليك أن لك من الأمر شيئا ، وانك تستطيع أن تصرف حياتك وحياة الناس ، وان تؤثر في الأشياء من حولك بهذه الارادة التى تمتلكها . وما يزال الكاتب يزيل هذه الغشاوات غشاوة غشاوة ، وماتزال أنت تمضى معه متخففا من أثقالها شيئا فشيئا ، واجدا لذة غريبة في التخلص من هذه الغشاوات ومواجهة الحياة كما هي حتى ينتهي بك الكاتب الى آخر القصة واذا أنت مقتنع معه بأن ارادتك ليست شيئا ، وان ماكنت تحسبه لنفسك من قوة وبأس وسلطان لايزن شيئا أمام هذه القوى العظيمة الخارجية التي تصرفك وتسيطر عليك وتخضعك لسلطانها سواء أردت أم لم ترد .

لايبحث بول هرفيو عن طبيعة هـذه القوة ، ولا يعنيـه أن يحددها ولا أن يصفها ولا أن يتعمق فيما بعد الطبيعة ليتبـين كنهها ، وليتبين مابينها وبين القوى الأخرى من صلة ، كل ذلك لايعنيه ، وانما الذى يعنيه هو أن يلاحظ وجود هـذه القوى وتأثيرها فى حياة الناس واكراهها الناس على أن يسلكوا طرقا ماكانوا ليسلكوها لو أنهم أحرار ، ويصـــطنعوا أمورا ماكانوا ليصطنعوها لو أن لهم ارادة أو اختيارا . لتكن هذه القوة دينية، أو لتكن هذه القوة طبيعية ، أو لتكن هذه القوة اجتماعية أو لتكن هذه القوة مزاجا مؤتلفا من هذه الالوان كلها ، فطبيعتها لن تغير من الحقيقة الواقعة شيئا .

والحقيقة الواقعة هي أن هذه القوة تأخذ علينا الطرق وتطيف بنا من كل ناحية وتضطرنا الى مانأتى من الأمر في حياتنا الفرديه والاجتماعية فيما بيننا وبين أنفسنا ، وفيما بيننا وبين النـاس من صلة .

واذا كان هذا حقا فخليق بنا أن نخفف من هذا الغرور الذى يملؤها ويخيل الينا أنا شيء مذكور ، وأن نرى أنفسنا كما نحن ضعافا مسيرين لاحظ لنا من قوة ولا قدرة لنا على المقاومة . ثم اذا كان هذا حقا كنا خليقين ان نلائم بينه وبين حكمنا على الاشياء وحكمنا على الناس ، فنقصد في المدح والذم ، ونعتدل في اللوم

والاطراء ، ولا نسرف في تقدير التبعات ولا نسرف بعد ذلك في تقديرنا مايلائم هذه التبعات من مقاومة باللوم حيناوبالعقوبة حينا آخر . واذا كان هذا حقا فخليق بنا أيضا أن نستقبل الحياة راضين مطمئنين لا ساخطين ولا ثائرين ، وما قيمة السخط الذى لايجدى ؟ وما قيمة الثورة التى لاتغنى ؟ وفيم نضطرب وفيم نثور ونحن مضطرون آخر الأمر الى أن نذعن ونستسلم . أليس الرضا بما لابد منه خير من هذه المقاومه العنيفه التى ليست فى حقيقة الأمر الا جهدا ضائعا وضربا من ضروب اللغو ؟

فأنت ترى أن هذه الفلسفة التى تظهر فى أول الأمر سوداء مسرفة فى التشاؤم والاستسلام ليست أقل من غيرها دعوةالى الخير وترغيبا فيه واتصالا بما ألف الناس من قواعد الاخلاق . فهى تأمر كما تأمر غيرها بالاحسان والصفح والاعتدالفىاللوم والذم والاعتدال فى الحمد والثناء . ثم هى تأمر كما تأمر غيرها بالرضا واستقبال الحياة فى طمأنينةوابتسام عنعلم بهاوحسن رأى فيها .

ألهذه الفلسفة المتصلة بمزاجنا الشرقى أحب هذا الكاتب وأمعن فى حبه ؟ أم أنا أحبه لأنه متصل بهذه الطائفةمنالكتاب والشعراء القدماء الذين أثروا فى الأدب الانسانى كله آثارا خالدة لاسبيل الى أن تزول ؟ فقصص بول هرفيو ليس جميلا لما فيه من فلسفة فحسب ، بل هو جميل لأنه يتصل بالقصص اليونانى التمثيلى فى تصوره للحياة وفى تصويره لهذه الحياة ، كما يتصل بهذا القصص التمثيلى القديم فى ايثاره للجمال الفنى ، يلائم فيه بين الالفاظ والمعانى ملاءمة تبهرك بما فيها من جلال يظهر فى الالفاظ كما يظهر فى المعانى كما يظهر فى الأغراض التى يرمى اليها وكما يظهر فىالصور المختلفة التى يتخذها وسيلة الى هذه الأغراض . وانت حين تقرأه مضطر الى أن تفكر فى ايسكولوس . يضطرك الى ذلك هذا الجلال الذى يسبغه بول هوفيو على قصته كما كان يسبغه ايسكولوس ، كما يضطرك الى ذلك رأى بول هرفيو فى القضاء فهو بعينه رأى ايسكولوس فى القضاء لايفرق بينهما الا أن ايسكولوس كان وثنيا يؤمن بآلهته الوثنيين وبخضوعهم لهذا القضاء كما يخضع له الناس وكان يتصور هذا القضاء تصورا

وثنيا يونانيا لم يتأثر بفلسفة الفلاسفة ولا بعلم العلماء ولا بالحضارة الراقية المسرفة فى الرقى . أما بول هرفيو فابن القرن التاسع عشر ، لم يكن وثنيا وانما هو خلاصة كل هذه الحضارة الفرنسية وما انتهى اليها من آثار الأمم القديمة وما عمل فيها من فلسفة الفلاسفة وعلم العلماء ، ثم ماشهد من ازدحام الناس وتنافسهم فى جميع ألوان الحياة . فقضاؤه ليس أقل عنفا ولا سلطانا من قضاء ايسكولوس ، ولكنه قضاء متحضر مهـــذب يلائم القرن التاسع عشر .

فلسفة بول هرفيو وفنه واتصاله من هاتين الناحيتين بسلسلة الممثلين اليونانيين والممثلين الفرنسيين فى القرن السابع عشر ، ثم تعرضه للمسائل العويصة الدقيقة ومحاولته أن يجد لهـا حلا فى القضاء والقدر ، كل هذا حبب الى هذا الكاتب ورغبنى فى ترديد قراءته وترديد الحديث عنه .

وهذه القصة التى أريد أن أحدثك عنها الآن هى آخر ماقدم الى الملاعب قبيل الحرب . وقد أجمع النقاد على اختلاف أهوائهم وميولهم الفنية على الاعجاب بها والثناء عليها ، وذهب بعضهم فى ذلك الى أبعد حد ممكن فوصفها بأنها آية من آيات الفن . ولست أذهب هذا المذهب ولا أغلو هذا الغلو فقد قرأت من قصص بول هرفيو التمثيلى ما أعجبنى وراقنى وأثر فى نفسى تأثيرا أبلغ من تأثير هذه القصة ولكنى على ذلك أرى أن هذه القصة تلخص مذهبه الفلسفى تلخيصا وافيا أكثر مما تلخصه قصة أخرى من قصصه التمثيلية . وكأنه كان يحس أن هذه القصة ســـتكون آخر قصصه وكأنه كان يريد لهذا أن يعرض فيها مذهبه كاملا صريحا ، وقد دفعه الى ذلك ولا سيما فى المنظر الأخير من هـــذه القصة .

وقد وضعت هذه القصة لملعب أجنبى ، فقد يقال أن الـــكاتب لقى بعض الممثلين فى اسبانيا ورغب اليه هؤلاء الممثلون فى أن يأذن لهم بترجمة شىء من قصصه التمثيلى فرضى ، ثم وعــــدهم بأن يضع لهم قصة خاصة ثم عاد الى باريس فوضع هذه القصة القصيرة وأرسلها الى اسانيا فما أسرع مانقلت الى الاســـبانية ومثلت فى مدريد بينما كان الأصل الفرنسى يمثل فى باريس . ولهذه الخاصة أثر ظاهر فى القصة ، فقد يلاحظ القارىء فى بعض

الأشخاص حرارة وحدة وشعورا غاليا بالشرف تلائم المزاج الفرنسي . ومن غريب الأمر أن بعض النقاد الفرنسيين شهد تمثيلها في اسبانيا وشهد تمثيلها في فرنسا وأراد أن يقارن بين التمثيلين فاستخلص من هذه المقارنة ان القصة الفرنسية شيء والقصة الاسبانية شيء آخر . لا من حيث المعاني والاغراض فقد كانت الترجمة دقيقة صحيحة ولكن من حيث الأثر الذي يتركه تمثيلها في النفوس . فالتمثيل الاسباني عاطفة كله فتظهر فيه الحدة والحرارة ويظهر فيه الشعور قويا عنيفا بينما التمثيل الفرنسي مزاج معتدل من العقل والشعور ، فالحدة فيه لا تكاد تظهر وانما يظهر هذا التأثر الشديد الذي يلطفه التفكير كما يظهر فيه هذا الحزن العميق الذي لا تحظ فيه لاسراف الدموع ولا لاسراف الصوت أيضا .

وانت حين تقرأ هذه القصة تعجب بالالفاظ اعجابا شديدا . وذلك شأنك حين تقرأ آثار بول هرفيو كلها وتعجب أيضا بالمعاني التفصيلية ، ولكنك تحس في أول الأمر شيئا من البطء ومن الهدوء الذي لا يخلو من اسراف . ويخيل اليك أن الكاتب يطيل في غير جدوى ، وتسائل نفسك الى أين يريد أن ينتهي . ولكنك لا تكاد تفرغ من الفصل الأول حتى يكون الكاتب قد انتهى بك الى عقدة شديدة وشوقك الى أن تعرف كيف تحل هذه العقدة . فأنت في حاجة الى أن تمضي في القراءة . ولكن هذه العقدة ليست من الغرابة والطرافة بحيث تحول شوقك الى شيء من الكلف غريب تشعر به امام الحوادث الحادة ، انما انت مشوق الى أن تعرف كيف تنتهي هذه القصة . والكاتب في الفصل الثاني هادئ مطمئن يسير معك في رفق ولين حتى يسئمك في بعض الأحيان . ولكن هذا الفصل لا يكاد ينتصف حتى ينقطع كل هدوء وينتهي كل رفق ويستحيل الأمر استحالة تامة ، فاذا الحوادث يتبع بعضها في سرعة شديدة وعنف غريب ، واذا أنت قد فقدت هدوءك وثرت كما يثور الكاتب ، واذا شوقك الى الفراغ من القصة قد استحال الى شهوة عنيفة فانت تعيش مع الأشخاص عيشة حادة مضطربة وانت تحس في الوقت نفسه الغشاوات تسقط عن نفسك شيئا فشيئا ، وأنت ترى نفسك بعد هذا كله فجأة قد وقعت أمام اثم

عظيم فيه القتل وفيه السرقة وفيه الكذب وفيه شهادة الزور ولا أثر للارادة الانسانية الحرة في شيء من هذا بوجه من الوجوه، انما هي ظروف قاهرة : منها مايتصل بشهوات النفس ،ومنها مايتصل بالوراثة ، ومنها مايتصل بالنظام الاجتماعي • وكل هذه الظروف قد تظاهرت على أن تضطر جماعة من الناس الى أن يتورطوا جميعا في هذه الآثام • وهؤلاء الناس جميعا بطبيعتهم وبتربيتهم وباعتقادهم الديني بعيدون كل البعد عن هذه الآثام لو استطاعوا أن يتقوها ويجتنبوا التورط فيهـــا • هم جميعا مسيحيون مؤمنون شديدو الايمان بحكم أمزجتهم وبحكم تربيتهم وبحكم البيئة التي يعيشون فيها • وهم يتمثلون وصايا التوراة: لاتسرق ، لاتقتل ، لاتشهد الزور •• وهم مع ذلك مضطرون الى أن يسرقوا ، والى أن يقتلوا ، والى أن يشهدوا الزور ، ثم الى أن يلاحظوا هذا كله ويلاحظوا آخر الأمر أن السلطان كله للقدر •

وليس هذا كله كل مافي القصة ، بل انت تجد فيها نوعا من المقارنة غريبا دقيقا • عمد اليه الكاتب في رفق ولين بين خادم متواضع ضئيل اضطرته ظروف الحياة الى أن يسرق شيئا قليلا من سادته فاذا هم ساخطون عليه ناقمون منه يعنفونه ويطردونه في ازدراء واحتقار وهو مذعن مستسلم مستخز أمام ما اقترف من اثم • حتى اذا جل الخطب وكانت الكارثة ظهر من هذا الخادم مايجعله خليقا باعجاب سادته ، بل مايجعل سادته مدينين له بالشكر ويكرههم على أن يعترفوا له بالجميل • وهو على هذا كله حين سرق ماسرق لم يكن أشد منهم تورطا في الاثم ولا أبعـــد منهم عما تعودوا أن يسموه شرفا وفضيلة •

***

نحن في قصر فخم في الريف الفرنسي تقيم فيه أسرة غنيـــة تتألف من زوجين وابنين • فأما أحد الزوجين فرجل غني نشأ في الطبقة الوسطى وعمل أبوه في الشئون المالية فأثرى وطمع له في زوجة من الأسر النبيلة فوفق الى أن يزوجه من فتاة بعيدة الشرف عظيمة الثروة • فأما الزوج فاسمه جايتان بيري ، وأما الزوجة فاسمها جوليان دي شازيه •

وقد ورث الزوج عن أبيه مع ثروته مايمثل الطبقة التي نشأ فيه فهو رجل عمل لايعرف التردد ولا الاضطراب ، جريء حتى

على الأخلاق ، حتى على النظم الاجتماعيـــة ، ماهر فى النفاق يستطيع أن يخدع الناس عن نفسه كما يستطيع أن يخدعهم عن أنفسهم . قد أظهر لامرأته أنه يحبها فاقتنعت بذلك وأحبته فصدقت فى حبه . على أنه لم يكن فيما أظهر من الحب الا منافقا .

وأما امرأته فقد ورثت كذلك عن أسرتهـا شرفا فى النفس وكرامة وأخلاقا رضية وهدوءا وصراحة وسذاجة لاحد لهـا ، مخلصة لا حد لاخلاصها صادقة فى حب زوجها صادقة فى حب زوجها صادقة فى حب ابنيها معتدلة فى هذا كله محسنة كثيرة الاحسان .

ولهذين الزوجين ابنان : أحدهما غلام يتهيأ لدخول المدرسة الحربية ، والأخرى فتاة جميلة ظريفة قد بلغت سن الزواج وهى تدير فى نفسها فكرة لها صدى فى قلبها ، فهى تحب وتريد أن تقترن ممن تحب .

ولهذه المرأة أخ عمل فى الجيش وارتقى فيه الى مرتبة لابأس بها . يشبه أخته فى كرم النفس وحسن الشيم ، محب لأخته وابنيها لايعدل بهم أحدا . قد نزل لهم عن ثروته كلها أو كاد ووقف حياته على هذين الشابين لايبتغى الا أن يجعلهما أسعد الشبان ..

ونحن نرى أول الفصل هذا الغلام جواشان فى حالة سيئة والخادم يعنى به لأنه سقط عن فرسه وكاد يصيبه التلف لولا هذا الخادم . وهو يشكر للخادم أن أنقذه ، والخادم لايرى فى ذلك مايستحق الشكر ، وهو يطلب الى سيده ألا يتحدث بشىء من ذلك الى أمه حتى لاتشفق ولا تخاف حين يتصل بالمدرسة، وألا يتحدث بذلك الى خاله حتى لايتخذه موضـــوعا للعبث وللسخرية . والغلام يشعر بما فى ذلك من تضحية يقـدمها الخادم له فلن تعرف أمه أن الخادم قد أنقذه ولن تثنى عليـــه ولن تكافئه .

وتأتى أخته نويمى فترثى له وتثنى على الخادم .

ثم يأتى خالهما فيكون بينه وبينهما شىء من الدعابة ظريف .

ولكن هذا القسم كله من القصة بطىء ــ كمـــا قلت لك ــ لايظهرنا على شىء مما يريد الكاتب الا أنه يمثل لنا دعة الأسرة وما هى فيه من ثروة ونعمة بال كما أنه يمثل لنا هذا الخال

سفرين دى شـــازيه ضابطا قوى النفس شديد الخلق كريما رقيق القلب ..

وقد انصرف الفتيان وأقبلت أمهما فتتحدث الى أخيها لبعض الشيء ونفهم من حديثها انها تنتظر صديقالهاولاخيهاهو مسينيه كما نفهم من حديثها أن زوجها سيسافر لبعض شأن ويقضى الليل بعيدا عن القصر ..

ويتركها أخوها حينا ويقبل زوجها فيكون بينهما حديث نفهم منه أنه ضيق الصدر بأخيها ، وهي تلومه على ذلك وتذكر ماكان لأخيها عليهما من فضل ، وهوينكر جميل أخيهاويسرف في الانكار . ثم نفهم من الحديث أنه يسافر الى مكان لايعينه في دقة . كما أنه لايعين موعد عودته في دقة ، فهو مريب في كل مايقول كما أنه مريب في كل مايأتي . ولكن امرأته لاتحس شيئا من هذا .

وقد انصرف وأقبل الصديق الذى كانت تنتظره جوليان فاذا تحدث اليها وتحدثت اليه فهمنا أنه صديق قديم وأنه أحب هذه المرأة وخطبها فلم تجبه . فاحتفظ لها بود قوى طاهر .

ويأتى أخوها فيتحدثون قليلا . ثم تتركهما لبعض شأنها . فاذا خلا الرجلان أخبر مسينيه صاحبه بأن زوج أخته سيء الحال قد أتى من الأمر مايمس شرفه ويعرضه للقضاء . وفهمنا من حديثهما أن هذا الرجل يخون امرأته ويسرف في خيانتها ، فله خليلة ينفق عليها أموالا ضخمة . ثم نرى سفرين ثائرا يقسم ليكرهن زوج أخته على أن يغير من سيرته . وصاحبه يأخذ عليه العهد أن يكتم الأمر على جوليان ، ولكن هـــذا الكتمان لن يطول أمره . فهذه جوليان مقبلة وفي يدها كتاب تقول أنه أرسل الى زوجها مستعجلا وانها ترددت ثم فضته ونظرت فيه فاذا هو بشع منكر لأنه يخبر زوجها بأن أمره قد رفع الى القضاء وهو متهم بالنصب والاحتيال . فأما هي فمغضبة ساخطة لاتحفل بهذا الكتاب وانما تنكر أن يكون في الناس من ينحط الى كتابة مثله . وأما الرجلان فيضطربان لهذا الكتاب وتحس منهما هذا الاضطراب فتسأل وتلح فينبئانها آخر الأمر بأن هذا الكتاب قد ينم عن بعض الحق . ثم يعلنان

اليها أنهما سيسافران فورا الى باريس ليتبينا حقيقـــة الأمر وليتداركا الشر قبل وقوعه ..
فقد رأيت اضطراب هذه المرأة أمام هذا الخطر الذى يوشك أن ينزل بأسرتها . ولـكنها على ذلك مطمئنة لاتكاد تقـــدر ماتتعرض له .

***

فاذا كان الفصل الثانى فقد انقضى الليل وانقضى أكثر الغد وأقبلت جوليان الى حيث تركناها امس مضطربة بعض الشىء تتعجل عودة أخيها من باريس . وهذا الخادم قد أقبل يعرض عليها حسابه لأنه يريد أن يترك الدار بعد أن اتهم بأن سرق مائة فرنك فاعترف بهذه السرقه وبأنه اضطر الى ذلك لينقذ ابنته من الموت . وهى لاتكاد تلتفت اليه . بل ترد اليه معلنة أن زوجها سينظر فى هذا الحساب . والخادم يستعطفها ويدفع عن نفسه وهى ترده رفيقة مرة وعنيفة مرة أخرى .
وهذا أخوها يقبل فتتعجله الاخبارفيخبرها بأن مافي الكتاب صحيح وبأنه عرف تفصيل القضيه وبأن زوجها متهم بالسرقة، ثم بالنصب والاحتيال وبأن التهمة — ثابتة — تثبتها كتب خطتها يد زوجها ، وبأن الخصوم السياسيين لزوجها مسرفون فى نيل هذا الرجل بالشر يبتغون من ذلك شفاء شهوة سياسية .. وهى تسمع لهذا كله فيصعقها ولكنها قوية النفس تستطيع أن تحتمل فما أسرع ماتسترد صوابها . واذا هى تفوض الامر لأخيها مظهرة الاعتماد عليه والثقة به ولكنها مع ذلك تثق بالله وتعتمد عليه ، فتترك أخاها وتذهب الى حيث تصلى .
وهذان الغلامان قد أقبلا فى نشاط ومرح وابتسام للحياة وخالهما ينكر عليهما الاسراف فى اللذة والابتهاج ويود لونظروا الى الحياة فى شىء من الجد فلا يفهمانه ..لايفهمان منه هذا الرأى الجديد ، وهو لايستطيع أن يبين ولا أن يظهرهما على حقيقـة الأمر ولكنه يدور حول هذه الحقيقة فلا يعيان عنـــه شيئا . والفتى يداعب أخته ويغيظها ويعرض بما بينها وبين بعـض رفاقه من صلة ثم يمضى . فاذا ألح الخال على ابنة أخته أخبرت بانها تحب هذا الرفيق وأن هذا الرفيق يحبها وأن أمها تحس بشىء من ذلك وتشجعها عليه وأنها هى حريصة على أن تقترن

بهذا الفتى مشفقة من رفض أبيها معتمدة على خالها فى حمل أبيها على القبول • وينصرف الفتيان الى لعبهما •
وأنت تحس فى أثناء كل هذا الحديث شوقا الى أن تعرف كيف تنتهى القصة وضيقا بكل هذه الأشياء التى تعترض مجراها ، ولكن هذه الأشياء كلها لم تأت عبثا فهى تزيد فى حرج الموقف • فمرح هذين الغلامين وابتسامهما للحياة وأمل هذه الفتاة وحبها بينما تحدق الكارثة بهذه الأسرة ، كل هذا يضاعف الحرج الذى يحيط بهؤلاء الناس وله أثره فيما سيصدر عنهم من الأعمال •
وقد أقبل الزوج فيتلقاه أخ امرأته مغضبا ويسأله هل تلقى رسالة امرأته ، فاذا أجاب أنه لم يتلق شيئا قال له صاحبه فهذا دليل على أنك لم تكن حيث أنبأت امرأتك ، ثم يشتد الحوار بين الرجلين وتفهم منه أن الزوج يعلم بكل شيء ، أنه استيأس من موقفه وانه انما جاء ليمر بمكتبه فيأخذ منه بعض الشيء ثم يمضى الى حيث يلتمس النجاة • اذن فهو يريد الهرب من فرنسا ! لايحفل بامرأته ولا يحفل بابنيه ولايحفل بما سيقال عنه وما سيقال عنهم جميعا •• ولكن سفرين يقدر موقفه ويقدر موقف أخته وابنيها وشرف الأسرة ومستقبل هذين الغلامين بنوع خاص • وهو يعلم أن هرب هذا الرجل أوسجنه قضاء على ما للاسرة من شرف ، وهو يتمثل ابنة أخته وقد انقطع أملها وانصرف عنها رفيقا ويتمثل ابن أخته وقد حيل بينه وبين مستقبله فى الجيش ، ويتمثل أخته ذليلة مهينة محتقرة ، يتمثل هذا كله ولا يرى مخرجا منه الا أن يقتل هذا الرجل نفسه قبل أن يساق الى القضاء • فهو يعرض لزوج أخته بالانتحار ، فلا يلقاه الآخر الا ساخرا مزدريا ، فيخرج من التعريض الى التصريح فيأبى عليه الآخر فيلح فيشتد الآخر فى الاباء • وكلما مضى الحوار بين الرجلين اشتد فى نفس الأب حرص على الحياة والهرب ، واشتد فى نفس الخال حرصه على شرف أسرته ومستقبل هذين الغلامين • وكان الأب قد ترك مسدسه على المائدة ، فانظر الى الخال يخرج المسدس من علبته ويشير به الى الأب • والأب يعرض عنه والخال يلح حتى اذا أسرف فى الالحاح ومضى فى طريقه الى مكتبه تبعه الخال

ومعه المسدس ، هائجا ثائرا منذرا • والأب لايزداد الاامتناعا والخال لايزداد الا نذيرا • وهذا الخادم قد أقبل يخبر بأن بعض الشرطة بالباب ، ثم ينصرف • فيشتد الخال في الالحاح ويشتد الأب في الانكار ويمضى الى مكتبه ويتبعه أخ امرأته • وبينما هما يستبقان في شيء يشبه الصراع يعود الخادم ويقبـــل الصديق مسينيه وقد أغلق باب المكتب دون الرجلين ويسمع بينهما حوار عنيف ، ثم يسمع انطلاق المسدس ، ثم يعود الخال في ذهول تستطيع أن تقدره • وقد فهم الخادم وفهم الصديق أنه قد قتل زوج أخته ، ولكن الشرطة بالباب ، فما أسرع مايمضى الخادم والصديق الى حيث القتيل •

وهذه جوليان مقبلة فيتلقاها أخوها فتسأله عن زوجها هل أقبل • فيجيبها جوابا غامضا ، ويتحدثان فما أسرع مايصلان الى الفاجعة ، ألم تنظر فترى قفازى زوجها؟ ثم ألم تنظر فتفتقد المسدس ؟ انها لتسرع تريد أن ترى زوجها فيمسكها أخوها ويخبرها بأنه قد مات •• فهى ذاهلة واجمة ساخطة على أخيها لأنه لم يحل بين زوجها وبين الموت معلنة أنها تحب زوجهـا وستحبه أبدا ولكن أخاها يكشف لها عن جلية الأمر وينبئها بمكان هذا الرجل من خيانتها ومايزال بها حتى تقتنع واذا حبها لزوجها قد تغير واذا هى مثقلة قد انهلت قواها أمام هذه الكوارث المتصلة : هذا زوجها قد سرق وكانت على ذلك تحبه ، وهـذا زوجها قد قتل نفسه وأسلمها وأسلم ابنيهـا للذل والفقر ، وكانت على ذلك تحبه ، ولكن زوجها قد خانها فأين ذهب هذا الحب ؟ لقد كانت تكره أخاها منذ لحظات ، ولكنها الآن تثوب اليه وتريد أن تعانقه وهو يأبى عليها •• فاذا أنكرت عليه هذا الاباء أخبرها بأنه قتل زوجها •• فهى مضطربة الى اضطرابها واجمة الى وجومها ، وهى تذكر وصايا التوراة : لاتسرق ، وقد سرق زوجها • لاتقتل ، وقد قتل أخوها • لاتشهد الزور ، وهى مضطرة الى أن تشهد الزور • وهى مشفقة على أخيهـــا من الخادم ، ألم يكن أمس موضوع سخطها ؟ ألم يعنفاه ؟ ألم يطرداه ؟ فما يمنعه أن يثأر لنفسه ؟ لقد سرق ولكن زوجهـا قد سرق ، وقد سرق وهو مضطر لينقذ ابنته من الموت ، أما زوجها فسرق ليرضى خليلة وليمعن فى خيانة امرأته • وهـذا

الخادم قد أقبل ينبىء سفرين بأن بعض رجال الشرطة عندما نظر الى القتيل لاحظ أن المسدس قد أصاب رأسه من بعيد فأخبره الخادم بأنه أدرك سيده وهو يحاول الانتحار فأراد أن ينتزع منه المسدس فلم يوفق الا الى ابعاد ذراعه عن رأسه ، واقتنع الشرطى . والخادم يخبر سيده بذلك ليعلمه وليحرص على ألا يناقضه أن سئل ، اذن فهذا الخادم الذى سرق أمس واحتقر وازدرى وطرد قادر على الوفاء ! ولكن ماطبيعة هـــذا الوفاء ؟ أليست هى الكذب، وشهادة الزور ؟ واذن فمتى كان يحسن الخادم أحين يشهدالزور لينقذ حيا أم حين يصدق فى الشهادة ليعاقب مجرما ؟

***

أما سفرين فهو يودع أخته يريد أن يترك جوارها وجوار ابنيها ، فهو لايستطيع أن يرى هذين الغلامين وقد قتل أباهما، وسيكون حظه من الدنيا أن يرعاهم جميعا عن بعد ويضمن لهم الحياة .

وهذا الصديق قد أقبل فاذا سفرين يستودعه أختهويوصيه بأن يرعاها فى احترام واخلاص فيعده بذلك .

ولكن أخته تتعلق به ملحة عليه أن يعدها بأنه سيعود أوبأنه سيحاول العودة . فاذا أسرفت فى الالحاح أجابها : فيم الوعد ؟ وهل أدرى ماذا أصنع ؟ وهل أستطيع أن أعلم شيئا ؟ أليس الأمر للقدر ؟ ..



قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي ليوبولد مارشان

مثلت هذه القصة فى باريس منذ ثلاثة أشهر ، فاجمع النقاد على الاعجاب بها ولكنهم على ذلك وقفوا منها مواقف مختلفة : فمنهم من أعجب اعجابا مطلقا ، ومنهم من احتاج الى شيء من التحفظ يختلف قلة وكثرة باختلاف حظه من المحافظة والميل الى التجديد فى مناهج الفن التمثيلى .

والحق أن القصة تدعو الى شيء من التردد في وضعها وتصورها وانسياق فصولها ومناظرها ، فموضوعها فى ظاهر الأمر عادى تافه لايكاد الناس يلتفتون اليه الا أن يضطروا الى ذلك ، فان فعلوا فما أسرع ماينصرفون عنه ، لأنه من هذه الموضوعات التى تطرق آذانهم فى كل يوم وتغدو بها الصحف وتروح ، والتى أثارت أول الأمر شيئا من السخط ثم لم تلبث أن آلفها الناس واطمأنوا اليها . فالعناية بموضوع كهذا وعرضه فى ملاعب التمثيل خليقة أن تضطر الناقد الى شيء من التردد . ثم وضع القصة نفسه لايخلو من بعض الغرابة ، فقد تعود الكتاب الممثلون أن يسيروا بالنظارة والقراء سيرا هادئا منطقيا حتى ينتهوا بهم ابان القصة أو آخرها الى مايثير فى نفوسهم العواطف الحادة ان كانوا يريدون الى اثارة هذه العواطف . أما كاتبنا فقد خالف هذا المنهج مخالفة تامة فبدا بما يثير العواطف ويهز النفس هزا عنيفا فى الفصل الأول ثم مضى بقصته فى تؤدة وهدوء ولين حتى انتهى بها الى آخرها . ثم ان القصة فى حقيقة الأمر توشك أن تكون قصتين ، أو هى بالفعل قصتان . تبدأ أولاهما فى الفصل الأول وتنتهى ابان الفصل الثانى . ثم تبدأ الأخرى وتنتهى آخر الفصل الثالث . ومن الممكن جدا فصل هاتين القصتين ، ولكن هذا الفصل يفسد احدى القصتين وهى الأولى لأنه يردها الى شيء تافه لاقيمة له ولا خطر ، ويسيء الى القصة الثانية لأنه يردها الى حوار مجرد والى ضرب من الفلسفة لا عمل فيه ولا حركة . ومهما يكن من شيء فاقتران هاتين القصتين وان كان فى حقيقة الأمر مصدر جمال كما سترى خليق بأن يفاجأ النقاد والنظارة ويضطرهم الى شيء من التردد قبل الحكم للكاتب أو عليه .

تجد هذه الملاحظات كلها وملاحظات أخرى فيما كتب النقاد عن هذه القصة أثر تمثيلها لأول مرة ، ولكنك تجد فى الوقت

نفسه الى هذه الملاحظات كما قلت لك اعجابا شديدا لم يتردد النقاد جميعا في اعلانه ، بل لم يتردد بعضهم فى أن يغرق فيه. ذلك أن القصة خليقة بالاعجاب ، وليس يغض منها انموضوعها مألوف ، بل ليس يغض منها أن يكون هذا الموضوع تافهـا مبتذلا اذ استطاع الكاتب أن يستغل هذا الموضوع التافه المبتذل فيرفعه رغم تفاهته وابتذاله الى حيث يجعله مصـدرا للعظة والعبرة والتأثر والتفكير .

وقد استطاع الكاتب - كما سترى - أن يصل بموضوعه التافه المبتذل الى هذه المنزلة . وليس يكفى أن يكون الموضوع تافها مبتذلا ليزدريه الفن ويعرض عنه ، وانما يخيل الينا أن من مزايا الفن الصحيح أن يمس بعصاه السحرية هذه الشئون التافهة المبتذلة ، فيرفعها ويجعلها مصدرا للفائدة العقلية أو الشعورية أو للفائدتين معا . ذلك أن هذه الشئون التافهة انما هى مظاهر لحياة الناس وليس فى حياة الناس شىء وان صغر يحسن أن يطرح ويزدرى لأنه صغير .

ثم ليس يغض من هذه القصة أن يكون الكاتب قد بدأ من حيث ينتهى الكتاب الممثلون ، فأثار العواصف فى أول قصته. وقد تعود الكتاب أن يهيئوا فى أول القصة لهذه العواصـف وألا يثيروها الا ابان القصة ، فما الذى يمنع هذا الكاتب أن يجدد ويخالف هذا المألوف الذى لم يحتمه على الناس الا العادة، والذى ليس من التقديس بحيث لا ينبغى الانصراف عنـه . وأمر العواصف النفسية كأمر العواصف الطبيعية الخارجيه ، لها الأسباب المهيئة التى تستتبعها وتثيرها ثم لها النتائج التى تنشأ عنها بعد حدوثها . وكما ان العالم الطبيعى من الحق عليه أن يدرس العواصف قبل أن تثور ليعرف كيف تثور وأن يدرسها بعد أن تثور ليتبين ما ينشأ عنها من النتائج والآثار فمن الحق على من يريد أن يتعرف النفس الانسانية أن يدرس عواصفها وعواطفها قبل أن تثور كما تعود الكتاب الممثلون أن يفعلوا ، وبعد أن تثور كما فعل كاتبنا هذا فى هذه القصة .

ثم ليس يغض من القصة أيضا أن تتألف من قصتين ما دامت هناك سبيل الى تحقيق الوحدة بين هاتين القصـتين بل الى

استخلاص احداهما من الأخرى بحيث تستطيعان أن تكونا قصة واحدة .

وسبيل هذه الوحدة من قصتنا هذه واضحة بينه ، فهذه المرأة التى تقترف الاثم ، ثم تتأثر بنتائجه بعد اقترافه شخص واحد لاشخصان . ولو أنك درست حياة أى شخص من الأشخاص لاستطعت أن تجمعها فتؤلف منها قصة واحدة لأن حياة الأفراد والجماعات متصل بعضها ببعض ، ناشىء بعضها عن بعض . فالوحدة هنا هى الأصل والتفريق يصطنع اصطناعا ويتكلف تكلفا على أنه وسيلة من الوسائل لتسهيل الدرس وجعله سائغا ميسورا .

اذن فيخيل الى أن هذه الملاحظات التى أخذ بها الكاتب لاتثبت أمام التفكير والتحقيق ، وانما ينبغى أن ينظر الى القصة من حيث هى لنعرف هل وفق الكاتب فى تصورها وفى عرضها وفى استخلاص ما استخلص منها من النتائج والآثار ؟ .

ويخيل الى أنه قد وفق الى ذلك توفيقا حسنا لابأس به .

ولعل تلخيص القصة أوضح سبيل الى اثبات ما لكاتبنا من الحظ فى هذا التوفيق :

موضوع القصة يسير سهل . ولكن يسره وسهولته لايمنعانه أن يكون مثارا لكثير من الشكوك والخواطر يحسن أن يقف عندها المفكر الباحث : امرأة خانها خليلها وأسرف فى خيانتها فتجد ما استطاعت فى أن تترضاه ، وتستأنف الحظوة عنده ، ولكنها لاتفلح فتفسد عليها الغيرة أمرها وتملك عليها عقلها وشعورها فتقترف اثم القتل . ويعرف لها المحلفون هذا الضعف الذى اضطرها اليه الغيرة الحادة فيعفونها من التبعة ويبرئونها . وهى سعيدة بهذه التبرئة أول الأمر لأنها أفلتت من الموت وأفلتت من السجن واستأنفت حظها من الاستمتاع بالحياة وما فيها من هواء وضوء وحرية وحركة وعمل . ولكنها ان أفلتت من المحلفين ومن القانون الاجتماعى فلن تفلت من قانون آخر داخلى نفسى هو قانون الذكرى وما يسمونه تأنيب الضمير . فهى معذبة ترى نفسها آثمة ولا تستطيع أن تطمئن الى هذا الاثم . وهى تحاول أن تحيا وأن تلذ ولكن هذا الاثم ينغص عليها الحياة ويكدر عليها صفو اللذة . فأنت ترى

ان هذه المرأة كما تصورها الكاتب وكما عرضها خليقة بالبحث والدرس ، وأن هذه الاطوار المختلفة التى تتعاقب على نفسها قبل العاصفة وبعدها خليقة أن يقف عندها علماء النفس ٠ ومن حول هذه المرأة أشخاص آخرون يختلفون فيما بينهم ولكن كثرتهم تثير العناية ، وهى خليقة بهذه العناية ٠ من هؤلاء الاشخاص هذا الخليل الخائن الذى ذهب ضحية الخيانة والغيرة ، وهذا الزوج الطائش الذى يعترف أنه مصدر ما تورطت فيه امرأته من اثم ، وهذا المحامى الذى يحب متهمته ويجتهد فى أن يظفر بالمكانة ، فى قلبها ولكنه لايستطيع الا أن يلاحظ بأن بين مايطلب وبين ماتستطيع هذه المرأة أن تعطيه أمرا بعيدا ٠ ذلك الى أشخاص آخرين ليس لهم من الشأن ما لهؤلاء الاشخاص الذى ذكرت لك ٠

الحق أن القصة قيمة ممتعة للقارىء ٠ ولكنى أشك فى أنها تستطيع أن تعجب الجمهور وتستهويه فى غير تحفظ ولاتردد ٠ فجمهور النظارة كثير الطمع قليل الرضا ، وهو شديد الميل الى كثرة الحركة والعمل ، سريع السأم والملل أمام هذا النحو من الحوار الفلسفى الدقيق الطويل ٠ وأكبر ظنى أن الفصل الأول من هذه القصة وهو الفصل الذى لا أحبه كثيرا قد أعجب الجمهور وراقه لأنه سريع حاد كثير الحركة ، كثير الاشخاص فيه ذهاب واياب ، وفيه بنوع خاص اطلاق الرصاص وسفك الدم وحضور الشرطة والقبض على الجانية ، وكل هذه أشياء تحب الجماهير أن تراها فى الملاعب ٠ فأما الفصلان الآخران فما أحسب أن الجمهور احتملهما الا على على مشقة وجهد ٠

***

نحن فى فندق من فنادق نيس الكبرى ، فى غرفة المترفين ٠ وهذه الغرفة تظل خالية حينا ثم يقبل اليها اثنان : أحدهما رجل فرنسى أقرب الى الشباب منه الى الكهولة شريف غنى هو فرنسوا دى لارسان ، والأخرى امرأة أميركية نجمة من نجوم السينما ــ كما يقولون ــ جميلة بارعة الجمال فتانة الشكل واللفظ غريبة الاطوار ٠ ولا يكاد هذان الشخصان يتحدثان حتى نحس أن بينهما حبا ناشئا ، ولكنه حاد عنيف قد صرف كلا منهما عن كل شىء الا عن صاحبه ٠ وهما يتراضيان ويتغاضبان ،

بينهما جد ومزاح ، وقد اتفقا أو كادا على أن يسافرا معا من فرنسا الى حيث تلعب هذه المرأة فى بلد أجنبى ، وهما فى جدهما وهزلهما واذا التليفون يدق ، فتنصرف اليه المرأة ثم تنبىء صاحبها بأن زائرا قد أقبل يلتمسه . وهى كارهة لهذا الزائر وهو له أشد كرها .

وقد خلا الرجل حينا وطرق عليه الباب فاذن فتدخل عليه امرأة هى ايليز كولريه . وهى صديقة قديمة له ولأسرته . أنكر مكانها ، ثم تحدثا فنفهم أنها قد أقبلت تشفع عنده فى خليلته بول فالير ، ونفهم أن المودة اتصلت بين هذا الرجل وبين خليلته هذه منذ سنتين واتصلت بفضل هذه الزائرة ولأن هذه المرأة لم تكن سعيدة مع زوجها اللعوب . واذ كان للحب كغيره مما يتصل بالناس آجال كآجال الناس فقد انقضى أجل هذا الحب سريعا فى نفس هذا الرجل فأخـــذ يخون خليلته ويسرف فى خيانتها ، وأخذت هى تصبر على ذلك وتحتمله ، وربما أنكرته على صاحبها فى شدة وعنف أحيانا حتى ضاق بها فترك لها باريس ولقى هذه الاميركية فشغف بها . وهو يريد أن يترك فرنسا كلها ، وزائرته تستعطفه وتترضاه ولكنه لايريد عطفا ولا رضاء . والحوار بينهما طويل فيه لين وفيـــه عنف ولكنه غير مجد .

وهما كذلك واذا الباب يطرق واذا خليلته بول تدخل فى هيئة المضطرب الموله الذى انفق أياما وليالى لم ينم الا غرارا وقضى فى القطار يوما وبعض يوم فهو متعب مكدور وهو أشعث اغبر سيء الحال ، وهو الى هذا كله ضائع الرشد أو كضائع الرشد . فاذا أقبلت خلت الى صاحبها فيكون بينهما حوار قصير ولكن فيه استعطافا واباء وترضيا وزجرا ، ثم فيه بعد ذلك غيظ وحنق ثم تذير ثم اباء ثم اطلاق الرصاص ثم مايتبعه من اسراع الخـــدم ودعوة الشرطة والقبض عـــلى هـــذه المرأة مولهة ذاهلة ، فقد فقدت الصواب أو كادت تفقده .

وأنا أعفيك من وصف هؤلاء الاشخاص الكثيرين الذين نراهم يضطربون طوال هذا الفصل على أن فى هذا الوصف شيئا غير قليل من النفع ، فهو يصور اخلاق الخدم وأخـلاق

أصحاب الفنادق وأخلاق الشرطة تصويرا لايخلو من فكاهة وعبرة ٠

***

فاذا كان الفصل الثاني فنحن في باريس في دار بول ٠ وقد مضى على ماقدمت لك تسعة أشهر وكانت مرافعات حادة وعناية من الصحف شديدة بهذه القصة ، ثم براءة المتهمة ٠ ونحن نرى خادمها العجوز وصديقتهـا التي مر ذكرها تنتظرانها وقد هيأتا دارها لاستقبالها ٠ وهي واصلة بعـد دقائق من نيس ، وهما تتحدثان عن حالها قبل الاثم وعماعسى أن تكون قد احتملت في السجن في أثناء المحاكمة ، وعمـا ينتظرها من الألم بعد ذلك ٠ ويخيل الينا ونحن نقرأ هـذا الحوار أن هاتين المرأتين لاتجدان ماتتحدثان فيه أو أن الكاتب نفسه لايجد مايطلق به لسانهما ٠

وهذا شخص ثالث قد أقبل هو زوج بول ٠ فلعله يبعث في هذا الحوار شيئا من الحركة والحياة ولكنه دون ذلك ٠ فلايكاد يدخل حتى تدهش الصديقة لمكانه ، وحتى نعلم أنه كان شهما أمام القضاء حين أدى شهادته فقد اعترف بأنه المسئول عمـا اقترفت زوجه من اثم لأنه أهملها وخانها وأسرف في الانصراف عنها ٠ ولكننا نراه بعد ذلك سخيفا فارغ القلب معقود اللسان لايدري كيف يقول ٠ وقد أقبل يريد أن يلقى زوجه بعد هذه المحنة لا لأنه يحبها أو يعطف عليها عطفا صادقا ، بل هو نوع من المجاملة ونوع من الغرور أيضا ٠ وهو يتحدث الى صديقة امرأته بأنه لم يخلق لزوجه ولم تخلق زوجه له ، وانما هـو رجل صاحب دعابة ولهو ينفق ليله في الحانات ونهـاره في العمل ٠ وهو ضيق الصدر لأن امرأته لاتصل ٠ وقد واعـد صاحبة له فهو يشفق أن يفوته الموعد ٠

ولكن امرأته قد أقبلت فيلقاها زوجها وتلقاها صديقتها في شيء من الاضطراب والتردد ونحس نحن التناقض بين هؤلاء الناس جميعا ، فأما الآثمة ففرحـة مبتهجة ٠٠ أليست قد برئت فأمنت الموت وأفلتت من السجن واستردت الحرية ! وأما زوجها وصديقتها فينكران فيما بينهما وبين أنفسـهما هذا الابتهاج ، لايفهمانه وهما يحسان شيئا من خيبة الأمل،

فقد كانا ينتظران أن يرياها مضطربة محزونة ليعزياها ويثبتا من جأشها ، فلما أقبلت عليهما فرحة مسرورة أفلساولم يعرفا كيف يقولان • وتنصرف صديقتها على أن تلقاها من الغد بعد أن تفهمنا أن لن تكون الصلة بينها وبين صاحبتها كما كانت من قبل لأن الأوضاع الاجتماعية لاتسمح بذلك • وتخلو المرأة الى زوجها حينا فاذا كل سبب للحديث بينهما منقطع ، ولكن الزوج قد استطاع على كل حال أن يفهم امرأته أنه ينكر بعض الشيء ماهي فيه من فرح وابتهاج بالحرية ، فتحس هي أن الفرق عظيم بين مايقتضيه الشعور الطبيعي وما تقتضيه الأوضاع الاجتماعية • فهي فيما بينها وبين نفسها سعيدة مغتبطة بحريتها ولكن الأوضاع الاجتماعية تريدها على أن تقتصد في اظهار هذا الفرح ، وعلى أن تصطنع لنفسها وجها يظهر عليه الحزن والضعف والكآبة •

وقد انصرف زوجها وخلت الى نفسها والى خادمها • وهنا تبدأ القصة الثانية ••

خلت في حقيقة الأمر الى نفسها والى خادمها ؟ انها تنظر من حولها فترى البيت كما تركته منذ أشهر لتلحق بصاحبها في نيس ، لم يتغير فيه شيء • وتسمع من حولها فلايصل الى أذنها شيء ، وانما هو هذا الصدى الذى يضطرب في الأذن اذا سكن من حولك كل شيء • وتعكف على نفسها فترى انها مملوءة بهذه الذكرى التى لم تفارقها بعد ، وهى خائفة وجلة تدعو خادمها ثم لاتستطيع أن تتحدث اليها بما تجد ، فتتحدث اليها بأى شيء • وكلما همت الخادم أن تنصرف أمسكتها لأنها تفزع من الخلوة الى نفسها • ثم تتشجع شيئا فشيئا فتطلب الى الخادم أن تقضى الليل قريبا منها لأنها خائفة •

وقد أخذت الكلفة تزول بينها وبين خادمها وأخذت هـــذه العجوز تغريها وتهدىء من روعها وتنصح لها بترك باريس • والاضطراب يشتد من حين الى حين ، والهلع يغمر نفســـها كل شيء ويخيل اليها أنها تنتظره كما كانت تفعل من قبل ، شيئا فشيئا ، واذا هى تتمثل خليلها ، ثم لاتلبث أن تنسى وهى تمد أذنها لتسمع دق الجرس الذى كانت تسمعه في مثل هذه الساعة ، وهى تسمع دق الجرس بالفعل •• وهى تنكر

ذلك ! ولكن الجرس يدق ويدق . وقد سمعته الخادم كما سمعته سيدتها فتمر بالمرأة لحظة ذهول لاتلبث أن تزول لأن الخادم قد فتحت الباب وادخلت عليها سرج ايتيه محاميها .

تستقبله مطمئنة اليه مبتهجة بمقدمه . فقد كان رفيقا بها في أثناء المحنة ناصحا لها محسنا اليها . وزيارته هذه تنقذها مما كانت فيه من الهلع . وقد أخذا يتحدثان فنحس أن بينهما صلة لاتخلو من غرابة . أما هي فواثقة به مطمئنة اليه تريد أن تتخذه مشيرا ومرشدا . وأما هو فمشفق عليها رفيق بهـــا يحسن التعزية والتسلية ، ولكن صوته ينم عن شيء آخر غير هذا . وماهي الا أن يتصل الحديث قليلا فنتبين أنه يحبهـــا ، وهي فزعة من هذا الحب آسفة له ، فقد كان يخيل اليها انها وجدت في هذا الرجل صديقا مخلصا فاذا هي تجد فيه عاشقا ملحا . وهي تطلب اليه أن ينصرف وهو يأبى ويستعطف . وهي تتحدث اليه في صراحة بأنها لم تبق صالحة للحب وبأن قلبها مملوءة بأشياء أخرى ، ولكنه واثق بأن الزمن سيحدث آثاره وسيلقي بينها وبين هذه الذكرى من النسيان ستارا كثيفا . وهي تأبى وتلح في الاباء وتعلن ان حب الرجال غرور ينتهي آخر الأمر الى الفاظ جوفاء لاتدل على شيء . وهو يسرف في هذه الالفاظ التي يملأها الحنان والحب فتجيبه على كل جملة من هذه الجمل بقولها : هذا كلام .. كلام .. ولكنه يمضي في هذا الكلام أو قل يستحيل شخصه الى كلام قد أخذ على هذه المرأة السبيل من كل وجه فهي ماتكاد تنطق بكلمة حتى يغمرها هو بموج متراكب من القول تضطرم فيـــه نار الحب اضطراما . ويسدل دونهما الستار وقد احسسنا أن الفوز سيكون له .

***

ويدركنا الفصل الثالث في قرية من قرى الســـاحل في بريطانيا الفرنسية آخر الصيف في فندق هناك قد انصرف عنه أكثر المصطافين ولم يبق فيه الا القليل من المتخلفـين . ومن بينهم صاحبتنا هذه ومحاميها . وقد مضى على ماقدمنا في الفصل الثاني عام وبعض عام . وقد قبلت حبه ومنحته ماكانت تستطيع أن تمنحه من ودوايثار . ولكننا نحس منذ أول الفصل بأن الأمر لايطرد بينهما على وتيرة واحدة . تراها أول الفصل

في غرفة الاستقبال تكتب . وقد أقبلت عليها امرأة تقيم معها في الفندق هي مدام ترانسون ، فتتحدث اليها في شئون كثيرة ولكننا نفهم من حديثهما أن في الفندق امرأة شابة جميـــلة خلابة قد فارقت زوجها وهي تعبث مع كل من تلقـــاه ومع المحامي هذا بنوع خاص . ولكن بول تلقى هذا كله بشيء من الاغضاء والاذعان والفلسفة . ونفهم أيضا أن هذا المحامي الذى يعرف الناس أنه زوجها قد ذهب مع هذه المرأة اللعوب الى مدينة قريبة لأن هذه المرأة تريد أن تشترى ماتحتاج اليه فآثر أن يحملها في سيارته .

وماهي الا لحظات حتى تأتي هذه المرأة اللعوب أنيت هوسلين فنفهم من حديثها أنها قد ذهبت الى المدينة واشترت ماكانت تحتاج اليه وانها تشكو سرعة سرج في سوق سيارته . ثم يأتى سرج . وماهي الا أن يخلو الى زوجه أو الى صاحبتـــه فيتحدثا ، فنحس أنه ضيق بالحياة وبالاقامة في هذه القرية وأنه يود لو استطاع أن يعود الى باريس وأن يغير برنامج الرحلة الذى كان يقتضى اطالة الغيبة عن العاصمة . وهو يظهر لامرأته حبا شديدا . وهي تظهر له حبا فيه مودة وبر ، ولكنه خال من العواطف الحادة . والأمر بينهما واضح السوء . فهو يطلب اليها حبا حادا عنيفا فيه نسيان لكل شيء وانكار لكل شيء وهي لاتستطيع أن تعطيه الا مودة واخلاصا . وهو يحس أنها لم تنس صاحبها الأول ويجد في ذلك ألما ومضضا ، ولـــكنهما لايتحدثان في هذا كله الا على شيء من الرفق والتعمية . وقد استقر رأيهما أو كاد على العودة الى باريس ، ولكنه يعرض عليها أن يصطحبا في السيارة هذه المرأة اللعوب ، فتظهر شيئا من التردد الرقيق . وهذه مدام ترانسون قد عادت مع زوجها وهما يطلبان الى الزوجين الآخرين أن يجلسا الى مائدة اللعب ، وبينما بول تهيىء الورق للعب ينظر ترانسون في صحيفة من الصحف فيقرأ أن امرأة أحست الخيانة من خليلها فقتلتـــه ، فيعلن ذلك ساخطا على هذه المرأة لأنها استباحت لنفسها قتل خليلها ، لا لشيء الا لأنه خانها . وامرأته تترافع عن هـــذه المرأة ويشتد الحوار بين الزوجين في هذه المسألة : هل يبيح

الحب لأحد العاشقين أن يقتل صاحبه اذا تورط في الخيانة ؟ يشتد الحوار واذا هما يحتكمان الى الزوجين الآخرين . فأما الزوج فيتنحى ، وأما امرأته فتحاول أن تتنحى ولكنها لاتملك نفسها واذا هي تجهش بالبكاء وتعلن أن ليس لامرأة أن تقتل صاحبها لأنه خانها . ويضطرب زوجها أمام هذا البكاء ويعلن الى صاحبيه معتذرا عنه ان قد كان شيء من ذلك في أسرة امرأته فهي متأثرة بالذكرى . وينصرف الزوجان هذان ويخلو سرج الى امرأته ، وقد صرح بينهما الشر أو كاد ، فهي تبكي وتعلن بهذا البكاء انها مازالت نادمة على مااقترفت من اثم ، ومعنى ذلك أنها مازالت تذكر صاحبها ، ومعنى ذلك أنها مازالت تحبه ، ومعنى ذلك أيضا أنها لاتمنح صاحبها الجديد الا شيئا لايرضيه ..

وهي تستعطفه وتترضاه ولكنه يجيبها في شيء من الحب والغضب معا ، فهو رفيق بها محنق عليها ، ويتصل بينهما هذا الحوار المؤلم في غير فائدة ولا جدوى . فهو محب غير موفق وهي صديقة غير موفقة ، ولكنها تتركه لبعض شأنها فيطلب اليها أن تحمل اليه منديلا اذا عادت لأنه ذهب مع صاحبته تلك أنيت الى بعض القهوات فاستعارت منه منديله تمسح به فمها فملأته بما على شفتيها من صبغة فلم يستطع أن يحتفظ به وتركه لها . وتقبل امرأته هذا العذر على علاته وتنصرف .

ولا يكاد يخلو الرجل الى نفسه حتى تقبل أنيت وترفع اليه بطاقة فيها عنوانها في باريس ، فيتقبلها في اهمال ويلقيها في جيبه القاء ، وتنكر المرأة منه هذا الاهمال وتعاتبه : ألم يكن منذ حين مفتونا بها يقبلها ويسرف في تقبيلها ويلح عليها في أن تعطيه عنوانها ! فما باله الآن يتقبل هذا العنوان في اهمال وازدراء ! ..

وهذه المرأة لاتملك نفسها أن تبكي غيظا وحنقا وكأنها تحب هذا الرجل وكأنها محزونة لأنها تحس منه العبث بها والرغبة في اللهو ليس غير ..

ولكن الرجل مضطرب متردد بين عاطفتين عنيفتين فهو يحب بول ويحس أنها لاتجزيه من هذا الحب الا مودة هادئة فيها ثقة

كثيرة أكثر مما ينبغي وليست فيهاحدة ولا غيرة . وهويشتهي هذه المرأة الشابة ويحب منها بنوع خاص أنها جديدة لاتملأ قلبها الذكرى لأنها لم تحب أحداولانهاشابةفيهامرح الشباب. ولم لايضطرب ؟ ولم لايميل الى هذه المرأة ؟ أليس يراهاالآن تبكي أمامه حبا ووجدا بعد أن رأى تلك هادئة مطمئنة. لاتتهمه ولا تسيء الظن به ، مع أنه لم يقصر في اتيان مامن شأنه أن يثير الريبة وسوء الظن . وانظر اليه قد نهض متثاقلا الى هذه المرأة الشابة فأخذ يهدىء من روعها وأخذ يدها ورفعها الى شفتيه فهو يقبلها . ولكن امرأته تقبل فيترك صاحبتـــه وتنصرف صاحبته أيضا ، ولكن في شيء من الاضطراب والحدة لايخفى على بول ..

واذا هي محزونة تعلن الى صاحبها أنها تشفق عليه من هذا الاضطراب بين امرأتين وتؤثر أن تنقطع الصلة بينه وبين هذه المرأة ، فيجيبها في شيء من الاحتيــاط أول الأمر ، ثم تثور ثائرته . فيسألها : ماذا تفعل لو عرفت أنه يعبث مع هـــذه المرأة ويلهو بها ؟ وأنه لم يذهب معها الى المدينة منذ حين وانما ذهب بها الى حيث يلهوان ؟ وأنه لم يعرها منديله منـــذ حين وانما أسرف في تقبيلها ومسح بهذا المنديل شفتيه هو لاشفتيها هي ؟ وأنه طلب اليها عنوانها في باريس ليســـتأنف لقاءها هناك ؟

وانت تقدر موقع هذه الجمل على نفس هذه المرأة البائسة التعسة . فأما صاحبها فقد كان يقرر أو يود أنها ستأخذها غيرة حادة كتلك التي دفعتها الى القتل فيستوثق من حبها . ولكن هذه الجمل تقع من نفس المرأة موقعا مؤلما ، لا لأنها تثير فيها الغيرة ولا لأنها تدفعها الى القتل بل لأنها تقيم البرهان الذي لايقبل الشك على أنها لم تعد صالحة للحب لان ذكرى صاحبها الأول قد ملأت نفسها وملكت عليها أمرها ، فهي لاتستطيع أن تحب ولا تتبع الغيرة ولا أن تطمئن الى الحياة . لقد برأها القضاء منذ حين ولكنها لم تبرىء نفسها فهي قاتلة .. نعم هي قاتلة ويجب أن تحتمل عقوبة هذا الاثم . ولئن أفلتت من هذه العقوبة المادية التي تفرضها الجماعة ونظمها فلم تفلت ولن تستطيع أن تفلت من هذه العقوبة المعنوية التي يفرضها على

النفس قانون الندم والذكرى . ألم تحاول أن تلتمس رجلا تطمئن اليه وتعتمد عليه وتثق به وتنسى معه كل هذه الآلام والشدائد فحال بينها وبين هذا الرجل مايملأ قلبهامن ذكرى ذلك القتيل ومن الندم الذي يغمر نفسها للاعتداء عليه .

هى اذن قاتلة .. وهى اذن مجرمة .. ولا بدلها من أن تلقى عقوبة هذا الاثم ، ولن تكون حياتها الا وقفا على هذه العقوبة فستخلو الى نفسها وستألم فيما بينها وبين نفسها ألما لاذعا ممضا لاحد له ولا عزاء عنه . ألم يهجرها أصحابها وأصدقاؤها ؟ ألم يقم البرهان على أنها عاجزة عن الحب ؟ واذن فلتطمئن الى ماقدر الله لها من هذا الشقاء المتصل والندم الذي سيلازمها طول الحياة ، واذن فلترد الى هذا الرجل حريته ليمضى مع هذه المرأة البريئة حقا ، لأنها لم تقتل ولم تسفك دما ولأنها لم تحب ولم تنغص عاشقا ..

وهى شجاعة تستقبل حياتها الاليمة فى شىء من الرضا مؤثر وتعفو لصاحبها عن هذا العبث فى شىء من الطمأنينة والصفح غريب من هذه المرأة التى غارت فسفكت الدم منذ حين ..

ويسدل الستار وهما فى هذا الحديث دون أن نعرف علام يستقر أمرهما . ولكننا نقدر فى وضوح أن سيمضى الرجل لاستئناف حياته ، وان ستنصرف هى لاستيعاب ماقدر لها من هذه الكأس المرة كأس اللوعة والندم .

●●●



قصة تمثيلية بقلم الكاتب الفرنسى جاك ديفال

أقديمة هذه القصة التي أريد أن أتحدث اليك عنها أم طريفة ؟ الحق أنهـا قديمة وطريفة معـا : قديمة في الموضـوع ، وطريفـة في الشـكل كما يقول المحـامون ، بل ربما لم تكن طريفه في الشكل من جميع أنحائها ، فقد لوحظ تأثر الكاتب في موضوعها بمذهب كورني ، ولعـلي لا أخطيء أن لاحظت أن أسلوبها وألفاظها قد لاتخلو من التأثر بهذا المذهب أيضا الى حد ما ·

وقد اختلف النقاد في أمرها ، فقليل منهم أثنى عليها في غير تحفظ ، وأكثرهم لم يرض عنها ، أو رضى عنها رضا هو الى السخط أقرب منه الى أى شيء آخر · ومع ذلك فقداخترتها موضوعا لحديثنا هذه المرة · ذلك لاني لم آخذ نفسي بالاأتحدث اليك الا فيما يعجب النقاد ، وانما أتحدث اليك فيما يصلح موضوعا للحديث سواء أرضى عنه النقاد أم سخطوا عليه · وأتحدث اليك في القصة التي تعجبني ، وربما أعجبتني قصة لم تعجب غيري من النقاد · ولست أشك في أن هذه القصة تصلح موضوعا لحديث قيم ، كما انى لا أتردد في الاعتراف بأنها أعجبتني ··

وكيف لاتصلح موضوعا لحديث قيم وهي صراع بين الحب والصداقة فيه قوة وفيه عنف لا حد له ، وفيه استثارة لطائفة من العواطف الانسانية يوشك أن يبلغ حد العبث بهذه العواطف؟ ولكن من الخير قبل أن أعرض عليـك القصة أن أقدم رأى النقاد فيها ··

قلت أن أكثرهم ساخط عليها أو متحفظ في الرضا عنها · ومصدر ذلك أن الكاتب قد حاول شيئا يوشـك أن يكون مستحيلا في حياة الناس اليومية ، حاول أن يحقق التضحية بالنفس والحب وما يستتبع من عاطفة ولذة في سبيل الصديق · وربما كان هذا ممكنا في العصور القديمة ، وربما كان هـذا ممكنا أيضا في خيال الكتاب والشعراء ، ولكن يظهر أن حياتنا الحاضرة لم تعد تسمح بمثل هذه التضحية ولا تبيحها ، فقـد قويت شخصيات الأفراد وقويت معها حظوظ الناس من الاثرة ،

وقوى مع الشخصية والاثرة عقل الفرد وقدرته على التصرف والتخلص من المآزق المحرجة في غير حاجة الى تضـحية أو فى غير حاجة الى التضحية بالنفس على أقل تقدير • والناس ينظرون مع شيء من الابتسام والسخرية الى مثل هذه التضـحيات المجاوزة لطاقتهم ، والتى كان يفتتن بها كورنى ومحبوه بل هم لايكتفون بالابتسام والسخرية ولكنهم ينصرفون عن القصص التى تمثل هذه التضحية انصرافا •

ثم لم يقف الكاتب عند هذه التضحية ولكنه حققها فى شكل تعود الناس أن يروه فى طائفة من القصص التمثيلية يراد به التأثير فى نفوس الجماهير أكثر مما يقصد به الى النفع والمتعة • فختم القصة باطلاق المسدس ، وذلك شيء قلما يحفل به أو يلتفت اليه •

ثم أسرف الكاتب فى التفصيل والتدقيق فى شيء ربما كان من الخير ألا يكثر فيه التفصيل والتدقيق ، وربما كان من الخير أن يؤخذ من طريق الاجمال والابهام • ومن هنا لاحظ النقاد اختلافا بين فصول هذه القصة فى قيمتها الفنية ، فبعض هذه الفصول ممتع لذيذ فيه حركة ونشاط وقوة ، وبعضها هادىء مطمئن بعض الشيء ولكنه لايخلو من قوة تعبث بالنفس وتثير العواطف المختلفة فيها • حتى اذا كان الفصل الأخير فلاحركة ولا قوة وانما هو اضطراب وحيرة وطول وشيء يخيل اليك أن الكاتب يلتمس مخرجا لنفسه ولاشخاصه من مأزق وضعهم ووضع نفسه فيه • ثم لايكاد ينتهى الفصل الثالث حتى تحس عجز الكاتب عن اخراج نفسه وعن اخراج الاشخاص من هذا المأزق الا باطلاق المسدس •

وينكر النقاد على الكاتب أيضا ان قصته مضطربة بين الجد المؤلم المخيف والهزل المضحك الملهى دون أن تكون صريحة فى أحدهما ••

ثم هم بعد هذا كله يعرفون للكاتب حقه ويثنون على اجادته اللفظية وعلى مهارته فى تدبير الحوار وعلى دقته فى تصوير العواطف المختلفة • ولكن من ذا الذى يستطيع أن يحظر على الكتاب الممثلين ألا يصوروا فى قصصهم التمثيلية الا ماهو ممكن أو واقع بالفعل ؟ وأين يكون الفرق بين الحياة الواقعة

التي نشهدها في كل يوم وبين الحياة الأخرى التي يتصرف فيها الكتاب والشعراء وأصحاب الفن يلائمون فيها أحيانا بين ما نحس ونجد بالفعل وبين مايجب أن نحس وان نجد ؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يكره شاعرا أو كاتبا أو فنانا على ألا يخترع لنا شيئا ان نعجز عنه الآن فقد لانعجز عنه غدا ولعل آباءنا لم يكونوا يعجزون عنه أمس ؟ واذا كان من حق الكاتب والشاعر أن يصورا لنا ماكان وماهو كائن فما الذى يمنعهما أن يصورا ماسيكون وما قد يكون أو مايحسن أن يكون ؟ وبعبارة واضحة ما الذى يمنع الكاتب والشاعر أن يقصدا نحو المثل الأعلى فيصوراه صورا مختلفة منها القريب ومنها البعيد ، منها اليسير ومنها العسير ؟

ولم يفعل كاتبنا غير هذا ، فهو قد تصور الصراع بين الحب والصداقة وتصور هذا الصراع فى عالم المثل الأعلى وحاول أن يدنى منا هذا المثل الأعلى بعض الشىء فحقق هذا الصراع فى الملعب ، فمن الناس من أحب هذا المثل الأعلى ومنهم من لم يحببه . فأما جمهور النظارة فانما يعرف رأيه بعد أن تمضى على هذه القصة أشهر ، وبعد أن نبحث لنعلم هل مثلت كثيرا واختلفت اليها النظارة كثيرا أم هل كان عمرها فى الملعب قصيرا .

لست أجد اذن ما أنكره على الكاتب فيما يتصل بموضوع القصة ، ولكنى قد اتفق مع النقاد فى بعض مايتصل بشكلها . ويخيل الى انى لو كنت الكاتب الذى يعالج الموضوع لاجتزأت من هذه الفصول الثلاثة بفصل واحد هو الفصل الأول ، ولا عرضت عن الفصلين الآخرين ، لا لأنهما رديئين من حيث هما ، فأنا أحبهما حبا شديدا وأعجب بطائفة من الحوار فيهما وأرى أنهما من خير مايقرأ ، ولكن لأنى أحس أنهما من أعسر الفصول حين يتجاوزان القراءة الى الملعب . ذلك لما فيهما من التفصيل والدقة اللذين يحسن أن نلحظهما حين نقرأ ، لا أن نشهدهما فى الملعب ، واللذين قد يكون من العسير على كثير من الممثلين المجيدين أن يؤدوهما تأدية حسنة .

وخاتمة القصة نفسها مؤلمة شديدة الايلام . ذلك لأن الكاتب استطاع أن يحبب الينا أشخاص القصة حبا مستويا بحيث

لانستطيع أن نؤثر أحدهما على صاحبه ، فمن المؤلم بل من العسير أن نتصور لم ضحي الكاتب بأحدهما دون أن يضحي بالآخر ؟ ولو قد ضحي بالآخر لسألنا : لم ضحي به دون أن يضحي بصاحبه ؟ ونحن لانكاد نعلم مصير هذا الذي لم يمت ، بل لانكاد نقدر هذا المصير : فهل قتل نفسه ليدرك صاحبه أم هل تعزى عزاء عسيرا أو يســـيرا ؟ وماذا كان أمره مع صاحبته ؟

ومهما يكن من حظ هذه القصه في الملعب فأنها قيمة لمن يريد أن يقرأ ، بل ان الفصل الثالث الذي نكرهه في الملعب لذيذ جدا في القراءة ، فيه حوار قيم دقيق وفيه شيء جديد ليس في الفصلين الآخرين ، فقد أظهر الفصلان الآخران نفسية الصديقين وعواطفهما حين كانا موضوعا لهذا الصراع بين الصداقة والحب ، ولكنها لم يظهرا نفسية المرأة واضحة ، وهذه النفسية تظهر جلية في الفصل الثالث ، وليست أقل لذة ولا امتاعا من نفسية صاحبيها ٠

***

نحن في باريس ٠ في ادارة ضخمة من ادارات الســـينما توغراف يملكها ويديرها صديقان فيليب دلماسو وفرنسوا بريور صناعتهما الحقيقية الحرب فهما من ضباط البحرية الفرنسية ، قد أبليا في أثناء الحرب الكبرى بلاء حسنا ، كانا يعملان معا على سفينة حربية واحدة مست لغما فنسفت وذهب كل من كان فيها الا هذين الرجلين ، فقد تعاونا حتى أنقذ كل منهما صاحبه مرات : يهوى أحدهما الى قعر البحر فما يزال به صاحبه حتى ينقذه ، ثم يهوى هو فما يزال به صاحبه حتى يستنقذه ٠ وظلا كذلك يوما كاملا أو أكثر اليوم حتى أدركتهما ســفينة فأنقذتهما ٠ وكانت المودة بينهما قوية فجاء هذا الخطر فأكدها وزادها قوة وتثبيتا ٠ ثم وضعت الحرب أوزارها وسرح هذان الضابطان فأرادا أن يشتركا في حياة السلم كما اشتركا في حياة الحرب ٠ فأنشأ دارا للسينما توغراف ما أسرع ما نمت واتسعت وكثرت فروعها وتشعبت ٠ ونحن نشهدهما أول الفصل منصرفين الى تدبير شئون هذه الدار في جد وانهماك واتقان غريب ٠ وهذا الفصل كلــه الى قيمته الخاصـــه التي

سنبينها لك له قيمة أخرى من حيث أنه يصور دخائل الذين يعملون فى السينما توغراف حتى أن هذا الفصل قد حمل بعض النقاد على أن يفكر فى القصة التى حدثتك عنها منذ حين بعنوان « ظهر حديثا » ، فتلك القصة تصور دخائل الادباء في جراءة وقوة ، وهذه القصة لاتقل عنها جراءة فى تصوير دخائل الذين يديرون السينما توغراف والذين يلعبون فيه. لو أن لى من الالمام بهذا الفن حظا قليلا للخصت لك بعض الشيء هذه المناظر التى تمثل حياة هؤلاء الناس . ولكنى أترك ذلك الى ما أستطيع أن أتناول فألخص لك من هذا الفصل المناظر التى تعنى قصتنا . .

وأول هذه المناظر منظر يدخل فيه على هذين الصديقين صديق ثالث يقال له كرسبى ضابط بحرى مثلهما ولكنه فى الجند العامل لم يسرح بعد . يقبل ومعه امرأته . جميلة رائعة . فيعرض على صديقيه بعد أن يقدم اليهما امرأته أمرين:أحدهما أن يقبلا زوجه لاعبة عندهما ، والآخر أن يقبلا منه قصة وضعها لملعبهما . فيقبلان قصته وينقدانه ثمنها ويرفضان امرأته وينصحان له أن يصحبها لأنهما يكرهان لصديقهما أن تتعرض امرأته لما تتعرض له اللاعبات فى السينما توغراف من عبث ولهو ومجون . وليس هو معها حتى يستطيع أن يحميها ويذود عنها . ويقبل الصديق نصيحة صديقيه . ولا يكاد ينصرف مع امرأته حتى يمزق الصديقان قصته دون أن ينظرا فيها .

ثم يدخل الخادم مستأذنا لامرأة قد كتبت على بطاقتها هذه الجملة الغريبة : « قدرت ولكنك لم تر » . وفيها من الاغراء ماتحس وتقدر . فيضحك الصديقان ويأبيان استقبال هذه المرأة . ولكن الخادم يعود ومعه بطاقة لمونسنيور بودريار الأسقف المعروف بمكانته الدينية والأدبية . وكأنه قدأرسل هذه البطاقة يقدم بها هذه المرأة الى الصديقين . فيأذنان لها كارهين ، وقد اتفقا على أن يستقبلاها واقفين قد وضعا قلنسوتيهما على رأسيهما استعدادا للخروج حتى لاتثقل ولا تطيل وهما فى حاجة الى الخروج لشئونهما الفنيه . ولكن هذه المرأة قد أذن لها فتدخل متقدمة قصيرة الخطى شديدة الحياء . لا هى بالباسمة ولا هى بالعابسة ، محتشمة الزى ،

ولكن لها جمالا رائعا ، لايكاد يقع في عين هذين الرجلين حتى يعبث بهما عبثا لا حد له · وكانا يزدريانها قبل دخولها أشد الازدراء · وكان كل منهما يعرضها على صاحبه حتى اتفقا أن أيهما وضع قلنسوته عن رأسه بقي معها وانصرف عنه صاحبه ليترك له حريته التامة · ولكنهما لم يكادا ينظران اليها حتى وضعا قلنسوتيهما ، وحتى أخذ كل منهما مكانه فجلس ونسى الخروج وماكان له من موعد · وهذه المرأة في الخامسة والعشرين من عمرها تسمى مارى ايف أرسجيس · تبدأ فتعتذر من التوسل ببطاقة الاسقف لأن الأسقف لم يعطها هذه البطاقه وانما ظفرت بها ، بينما كانت ترتب بعض أوراق الأسرة فاتخذتها وسيلة الى هذين الصديقين · وهي تعتذر أيضا من بطاقتها والجملة التي كتبت عليها قائلة أنها جملة بشبه وانها اذاخلت الى نفسها اجترأت على كل شيء فاذا اتصلت بالناس فقدت كل حظ من الجرأة · وهي تعرض نفسها عليهما لاعبة بين اللاعبات · وهي مشفقة أن ترد · ولكنهما يسرعان الى وعدها بأنهاستقبل وهما يستبقان الى ارضائها وتملقها · وقد أتفقا على أن تبدأ التجربة فورا · فيميل أحدهما الى التليفون ليأمر بالبدء في هذه التجربة فاذا الآخر ليس أقل منه اسراعا الى هذا الأمر · واذا ذكر أحدهما مصورا سيبدأ التجربة رفض الآخر هذا المصور واقترح غيره لأنه صاحب عبث ولهو · وما أسرع ماتذهب هذه المرأة الى حيث التجربه ويخلو الصديقان · فلايكاد أحدهما يتحدث الى صاحبه في أمرها بشيء ، كأن كلا منهما يخفي ماوقع في نفسه منها على صاحبه · وقد أحس كل منهما في الوقت نفسه مايملأ قلب صاحبه من الحب لهذه المرأة · وأخذت الاثرة تعمل عملها ، وأخذت الغيرة تعمل عملها أيضا · وقد أخذ الصديقان يترددان في الذهاب لما كانا يريدان أن يذهبا اليه من شأن ، كل يغرى صاحبه بالخروج ويعتذر عن البقاء ثم يتفقان فيبقيان وتنتهي التجربة وتعود المرأة فما أحسن مايستقبلانها وما أشد ماينهران الخادم لأنه لم يحسن معاملتها في بعض لفظه ، ولأنه احتفظ بقلنسوته على رأسه · وقد أجلست المرأة وقبلت · والصديقان يستبقان ويتنافسان أيهما يكون أشد ارضاء وأكثر تملقا ، وهي سعيدة مغتبطة لاتحس

ما بينهما من غيرة ولا تفكر الا في أنها ستقبل وستعمل وستكسب حياتها ، بل هي تفكر وتتحدث بشيء آخر : هي سعيدة لأن هذين الرجلين يتحدثان اليها في شيء من الاحترام والحشمة لا يبسط أحدهما اليها يدا ولا يلقي أحدهما عليها نظرة مريبة . وهي تريد أن تعيش وفية دائما لصديق لها فقدته . وكلا الصديقين يعدها المعونه والتأييد ويقربها الى نفسه حتى يقول لها أحدهما : ان ساءك شيء من العمال فستجديني عونا لك ، فينكر الآخر عليه ذلك ويظهر بينهما شيء من الخلاف تلحظه المرأة ، ويشتد هذا الخلاف حتى يضطر أحدهما الى أن يطلب اليها أن تعتزل حينا حتى يتم عقدها الذي يهيأ .

فاذا خلا الصديقان بدآ بالعتاب ثم لم يلبث هذا العتاب أن يستحيل الى خصومة منكرة يظهر فيها الحقد في أقوى مظاهره وأقبحها بين رجلين كل منهما يحب هذه المرأة حبا لاحد له ويريد أن يؤثر بها نفسه وأن يضحي في سبيل ذلك بكل شيء وبكل انسان . ويصل الأمر بالصديقين الى أن يعلن كل منهما الى صاحبه الحرب التي لا سلم فيها والى أن يتمنى كل منهما لصاحبه لو قد ظل في قعر البحر فلم ينج منه يوم نسفت السفينة .

وهذا أحد المصورين قد أقبل فيتحدث اليهما في شئونه ثم يعرض عليهما رسما يقول أنه اختلسه اختلاسا حين رأى امرأة جديدة تبدأ تجربتها . ويترك لهما هذا الرسم فاذا هو رسم هذه المرأة . والصديقان يختصمان حوله : كل يريد أن يجذبه الى نفسه ، ويصل الأمر بهما الى أن يشتبكا وقد أنذر كل منهما صاحبه أقبح النذير حتى اذا انتهى بهما البغض الى أقصاه ولم يبق بينهما الا الموت ذكرا صداقتهما وذكرا السفينة والخطر وما بذل كل منهما من الجهد لانقاذ صاحبه واذا أحدهما يعتذر الى صاحبه ، واذا الآخر يعتذر اليه أيضا ، واذا هما قد تابا من هذا الشوط البعيد الذي جرياه الى البغض والموت ، واذا الصديقان قد ظهر كل منهما لصاحبه ، ولكن المرأة مازالت قائمة بينهما .. وكلاهما يريدها لنفسه ، وكلاهما يأباها على صديقه ، وكلاهما يعلن الى صاحبه أنه لو استطاع أن ينزل عنها له لفعل ، ولكنه لايستطيع . وهما في مأزق الحيرة بين الصداقة والحب وبين الايثار والاثرة ، واذا فرنسوا قد وفق الى

حل يصلح مابينهما بعض الشيء ولكن يفسد حياتهما جميعا ، فهو يعرض على صاحبه أن يتقاسما بشرفهماالعسكرى ليمتنعن كل منهما حيا وميتا وفى جميع أطوار الحياة ومهماتكن الظروف عن أن يتحدث بحبه الى هذه المرأة ٠ واذا فقد اتفقا ٠ همـا يحبانها ، وهى عليهما حرام ٠ هما يحبانهما ، والتحـــدث بالحب عليهما حرام ٠ وهذان الصديقان يتصافحان مذعنين مستسلمين مستقبلين حياة كلها شر ومشقةوألم ٠ وهذهاحدى العاملات تدخل وقد أعدت العقد فينظران فيه ويتمه أحدهما، وهما يزيدان فى أجر صاحبتهما ويتنافسان فى الحرص عـلى منفعتها حتى اذا تم لهما من ذلك ما أرادا دعوا هـــذه المرأة فأقبلت مضطربة يائسة أو كاليائسة وقد طال عليها الانتظار ، ورأتهما فأحست تغيرهما فاستيقنتأنها غير مقبولة ٠ ثمأنبئت أنها مقبولة ثم يعرض عليها العقد فتنظر فيه فلا تملكنفسها حين ترى مايعرض عليها من أجر لم تكن تنتظر بعضه ، وهى سعيدة مغتبطة وهى تطلب اليهما أن تقبلهمـــا ، فما أسرع مايقبلان ، وهى تقبلهما ، وتنصرف على أن تعود من الغد ، وقد خلا الصديقان فهما فى حيرة ماذا يصنعان وكيف يحوطانهامن العبث واللهو ويحميانها من أطماع الطامعين وتتبع المتتبعين ٠

وهذا أحد المصورين قد دخل يستأذنهما فى السفر لاجازته ولكنه ينبئهما بأن قريبة له أرسلت اليه قصة سخيفة على أن تلعب فى السينما توغراف ٠ وهو يعلم أن هذه القصة لايمكن أن تقبل بل يجب أن تمزق ولكنه يريد منهما كلمة الى صاحبة هذه القصة فيها شيء من الأمل ضئيل لأنه سينفق عنـدها أجازته ، فاذا سئل عن هذه القصة أنبأ بأنها قصة احـــدى القديسات التى أنقذت طائفة من الناس فى القرون الوسطى بألوان من الجهاد والتضحية سخيفة ، فما أسرعمايقبلانالقصة وينفقان فى شرائها ثمنا ضخما ، ويلغيان أجازة المصور ليبدأ فى التجربة ، والمصور دهش لايفهم هذا ، ولكن فهمه يســير فستلعب مارى ايف فى هذه القصة وستكون فيها قديســـة لاتتعرض لقبل المقبلين ولا للعبث ولا للمزاح ولا لشيء ممايكره العاشق أن يرى صاحبته تتعرض له ٠ ويأتى المصور يحمل نتيجة التجربة ٠ ولكن ماقيمةهذه النتيجة ؟ وماقيمةالتجربة؟

أليس قد تم الاتفاق بينهما وبين المرأة ؟ أليست ستبدأ عملها من الغد ؟

فاذا كان الفصل الثاني فقد مضى شهر على ماحدثتك به . ونحن حيث كنا في الفصل الأول ، في مكتب المديرين . والمكتب كما كان لم يتغير الا أن فيه أزهارا كثيرة لم تكن فيه من قبل ، والا أن فيه لوحة بشعة تمثل جسم امرأة قد عبث به الجراحون فاظهروا كل مافيه ، أو بعبارة أدق أقبح مافيه ، أظهروا تكوينه الداخلي ، أظهروا الامعاء والمعدة والقلب والكبد وما الى ذلك ، ونحن نرى الخادم يهيىء الازهار ويصلحها وينظر تحت المقاعد والمكاتب كأنه يلتمس شيئا . ثم تأتي السكرتيرة ، فنفهم من حديثها مع الخادم أن أحد المديرين وهو فيليب قد فقد محفظته منذ أمس . فالخادم يبحث عن هذه المحفظة . ونفهم أن ماري ايف هي التي تحمل هذه الآثار في كل أسبوع ونفهم أن شيئا من شئون المديرين قد تغير .

وهذه امرأة مقبلة يظهر عليها في وضوح أنها احدى الومسات واحدى الومسات المنحطات ، قد دخلت ، لم تستأذن . وهي تسأل عن فيليب ويحاول الخادم أن يخرجها فلا يوفق . وبينما هو يلح عليها في الخروج وهي تأبى يقبل فرنسوا ومعه رجل بلجيكي من رجال السينما توغراف يقال له ورتز . فاذا رأى هذه المرأة أنكرها واذا عرف أنها تطلب صاحبه صرف من حوله وخلا اليها لحظة ، فنفهم من حديثهما أن صاحبه قضى عندها الليل ونسي عندها محفظته فهي ترد هذه المحفظة وهي تترك عنوانها كاملا ، وقد فهمنا من حديثها ان فيليب يلتمس اللهو بل يلتمس أقبح ألوان اللهو يتعزى به عن حبه المضيع . وتنصرف المرأة ويأتي البلجيكي فيتحدث في بعض الشئون الى فرنسوا ونفهم نحن من هذا الحديث أن فرنسوا مدله قد ذهب لبه أو كاد فهو يعاني من حبه آلاما ثقالا قد غيرت جسمه وأخذت تغير عقله أيضا .

وبينما يتعزى صاحبه باللهو القبيح يتعزى هو بشيء آخر ، بهذه اللوحة التي تظهر له أقبح مافي جسم المرأة ، وبينما ينفق صاحبه ليله في المواخير ينفق هو أوقات فراغه في المستشفيات وفي قاعات التشريح يريد أن يبغض المرأة الى نفسه .

وهو لايكاد يفقه مايتحدث البلجيكي به اليه ، أليس قد أمضى ليالي لم يذق فيها النوم ؟ أليس قد أمضى أياما لم يذق فيهـا الطعام ؟ وصاحبه البلجيكي يسأله عن امرأة رآها تلعب ، فاذا هي ماري ايف ، يراها البلجيكي جميلة ويطمع فيها فيثبطه فرنسوا لأن لها عاشقين خطرين .

وينصرف البلجيكي ويأتي فيليب متعبا مكدودا فيتحدث الصديقان في عملهما ولكنا نحس انهما يكتمان كتمانا شيئا ما يأكل قلبيهما من لوعه وعناء . وهذه ماري ايف قد أقبلت، واذا هما يستقبلانها استقبالا حسنا ولكنه مؤلم . وهي تتحدث اليهما في صراحة ان قد كانت تريد الوفاء لصـــديقها الذي فقدته ولكن الحياة لذيذة وللشباب حكمه وقد وفت لصاحبها ما استطاعت ، وما الوفاء الا ظل ، فيجيب أحدهما في سخرية: ظل الوفاء .. وتفهم من حديثها ان أحد اللاعبين قد عرض لها بالحب ودعاها الى العشاء وانها تريد أن تذهب وتتعشى معه . واذا هما مغضبان يصرفانها عن ذلك ما استطاعا ويدعوانها الى العشاء معهما ضنا بها على هذا اللاعب ، فتقبل وهي ســعيدة وهما سعيدان . وهم ينظمون عشاءهم واذا أمر يدعوهما فينصرفان عنها حينا . وما هي الا أن يقبل البلجيكي فيراها فيفتتن عاشقا . وتحب أن تتبين الأمر وقد خلت الى نفســها حينا ثم أقبل فيليب فتتلطف له وتدنو منه وتأخذ في مداعبته كأنها تعرض نفسها عليه ولكنه يردها ردا عنيفا بشعا مهينا ويعلن اليها في قوة أنه يزدري المرأة وما يزال بها حتى يحنقها يريد أن يخيل أنه لايحبها ولا يمكن أن يحبها . وهو في ذلك اذ يحس صاحبه مقبلا فينصرف ويلح عليهـــا في أن تبقى وليست هي في حاجة الى الالحاح فهي تريد أن تعلم علم صاحبها الآخر .

وقد دخل صاحبها فتصنع معه مثل ماصنعت مع الآخر فلا تلقى منه الا ردا عنيفا ولكنه ليس كرد صاحبها الأول ، فهو لايهين ولا يزدري ولا يكاد يخفي عواطف نفسه ولكنه يأبى ويمتنع ويتخذ العلل والمعاذير ويلح في ذلك حتى يؤيسها . وقد انصرفت وكأنها تحس منه الحب ولكننا لانفهم في حقيقة الأمر نفسيتها الخاصة . ويقبل صاحبه فيتحدثان ، ونفهم أنه

قد خلا الى ماري ايف لحظة فانصرف ليخلو اليها صديقه لحظة مثله وهما سيئا الحال قد فشلا في الوفاء بما كانا قد أقسما على الوفاء به . وكل منهما يعلن فشله ولكن الذي يؤذيهما حقيقة الأمر هو مايراه كل منهما من ألم صاحبه وعنائه وفساد أمره . وقد انتصرت الصداقة أو كادت فكلا الرجلين يلح على صاحبه في أن يحل نفسه من قسمه ويعلن أنه نازل عن حبه وعن حبيبته . وكلاهما يرفض من صاحبه هذا الوفاء .

***

فاذا كان الفصل الثالث فنحن في آخر الليل أمام البيت الذي تأوي اليه ماري ايف . وقد فتحت نوافذه وارتابت الشرطة بذلك فوقف بعض الحراس ينظر ويريد أن ينبه البواب ليغلق النوافذ ، ولكن هذه سيارة تقف وتخرج منها ماري ايف وفرانسوا . فيكون بينها وبين الشرطي حديث تفزع منه بعض الشيء . وقد انصرف الشرطي ودخلت هي الى دارها . ولكنها خائفة . فهي تأبى على صاحبها أن ينصرف حتى تستوثق من البيت . فاذا استيقنت من خلوه أذنت له في الانصراف لكنها لاتلبث أن تدعوه لأنها أحست حركة . فيتسور النافذة ويستوثق من أنه ليس في البيت أحد ، ويهم أن ينصرف . ولكنها تأبى عليه لأنها أرقه ولا بأس من أن يتحدث اليها بعض الشيء .

وقد فهمنا من حديثهما أن فيليب تركهما معتذرا ، وفهمنا أيضا أنه تعمد ذلك تضحية بنفسه لصديقه لعله اذا خلا الى هذه المرأة آخر الليل لم يستطع أن يبر بقسمه ، ولكن صديقه أشد وفاء من أن يتورط في الحنث . فهو يريد أن ينصرف وقد أخذ التأثر منه أشد مأخذ . والمرأة تريد أن تعلم علمه وعلم صاحبه . وماتزال به سائلة وملحة في السؤال حتى يخبرها بأن فيليب يحبها حبا مضنيا ، واذا هو قد مضى في التضحية الى أبعد حد فهو يغريها بفيليب ويستعطفها عليه ويلح في الاغراء والاستعطاف . وقد تركته لحظة وأقبلت خائفة ولكنها على ذلك متكتمة .. فيفهم ! فيفهم أن صاحبه قد سبقه الى البيت وأنه مختف في بعض أرجائه وأنها قد رأته ، فما أسرع ماينهض لينصرف . وهي لاتمسكه هذه المرة ، وهو يحس ذلك ويحس أنها تكتم في نفسها شيئا وانها تتمنى لو انصرف ..

وما يزال بهما حوار دقيق ولكنه بديع مؤثر حتى تكاد تعترف بأنه هنا ٠

وهذا فرانسوا يودعها ولكنه وداع مؤلم لاننا نحس كما تحس هي أن فيه شيئا من الغرابة ٠٠ أليس يدعوها باسمها الخاص ! وقد تسور النافذة وأخذ يتحدث اليها حديثا كله يأس وكله أماني ، وهي مشفقة عليه مما قد يلقاه في طريقه والليل مظلم والطريق خالية ، فتسأله : أمعه سلاح فاذاعرفت أنه غير مسلح دفعت اليه مسدسها وهو مسدس جميل رشيق، فيأخذه ضاحكا ويقول : لقد فكرت فى كل شيء ٠٠ وقدودعها وانصرف ٠ واستوثقت هى من ذلك وأغلقت النافذة ودعت صاحبها الآخر فيقبل ٠ وتفهم من حديثهما أنه كان صادق العزم على التضحية وأنه انما سبقها الى البيت لتودعه لآخر مرة ، وبينما يريد أن ينصرف أقبل الشرطي فاستخفى ٠ ثم أقبلت هي ومعها صاحبها فلم يستطع أن يظهر أمامهما ، فهو اذا لم يأت ولم يتعمد الاستخفاء ، وهي تعرض نفسها عليه فى لطف ، وهو يردها فى عنف ، فلا يزيدها الرد الا الحاحا ٠ وهى تلقى بنفسها بين ذراعيه ، وهي تدنى وجهها من وجهه٠ وفمها من فمه ، وهى تتحدث اليه بأعذب اللفظ وأشهاه ، وهو يضطرب بين الوفاء والحب ٠ والوفاء أشد فى نفسه تأثيرا فهو يدافع نفسه ويدافع صاحبته ٠ ولكنه على ذلك يداعب شعر هذه المرأة ويداعب جيدها ، وهى تسترسل فى الاستسلام له وما تزال به ، وما يزال هو بنفسه حتى يوشك أن يتغلب ، واذا هو يدنى فمه من فمها ٠ ولكنها لاتلبث أن ترتد فجأةوقد صاحت صيحة قوية نبهت صاحبنا من حبه ٠٠ فاذا سألها ذكرت ان فرنسوا لم يكن يتحدث الا عنه وقد كان مضحيا بنفسه فى سبيل صاحبه وانها تعلم الآن انه كان يحبها أيضا وأنها مشفقة عليه لاتدرى الى أى حال صار ٠٠ ثم ذكرت قصة المسدس وفهمنا أنها لم تعطه المسدس ليتقى به ولعلها انما أعطته المسدس لشيء آخر بعد ان فهمت كل شيء ٠٠وهذا فيليب ذاهلا واجما قد أسرع الى النافذة ففتحها والى النور فأطفأه ، ثم ينظر فيصيح داعيا باسم صاحبه ! أليس قد رآه صريعا ٠٠ وهى تسرع فيردها قائلا : ان كان فى قلبى الا حب واحد ولم يكن هذا الحب لك ٠



قصة تمثيلية للكاتب الفرنسى بول تيفوا

أما أحدهما فالحب بالحاء الكبيرة لو أن فى كتابتنا العربية حاء كبيرة . الحب الذى يكون من نفسين نفسا واحدة ومن قلبين قلبا واحدا وينتهى فى كثير من الاحيان الى الزواج . وأما الآخر فهذا الحب الفطرى الذى يملأ قلب الأم لابنها ويشغل من قلب الابن فى بعض الاحيان حيزا ليس بالضيق ولا بالضئيل .

والقصة صراع بين هذين الحبيبين أو قل ان شئت بين مصدر هذين الحبين : هى صراع بين الأم والزوج أو بين الأمومة والزوجية والرجل موضوع هذا الصراع . فأنت ترى أن ليس فى القصة شىء جديد ، فموضوعها مألوف منذ استقر فى الحياة الاجتماعية على اختلاف البيئات والاجناس نظام الأسرة . وأى الناس لم يحس أنه موضوع النزاع بين أمه وامرأته نزاع يقوى ويضعف باختلاف الظروف التى تحيط بالاسرة والصلات التى تصل بين أعضائها . فليس من الغريب فى شىء أن تستقبل هذه القصة استقبالا فاترا لانها لم تأت بشىء جديد ولأن الآداب على اختلاف أنواعها وألوانها وعصورها قد قالت فى هذا الموضوع كل مايمكن أن يقال . ثم هو قد اتصل بحياة الناس حتى أصبح شيئا مبتذلا تجرى به الألسنة وتسير به الأمثال ويألم الناس له فى حياتهم الخاصة ويضحكون منه اذا اجتمع بعضهم الى بعض .

ليس غريبا أن تستقبل القصه فى فتور ولكن الغريب أن يقدم الكاتب على مثل هذا الموضوع برغم شيوعه وابتذاله فيجد من نفسه الشجاعة على اختياره والتقدم به الى ملعب من ملاعب التمثيل ، وأشد من هذا غرابة أن يوفق الى الاتقان وارضاء النظارة وحمل النقاد على أن يعترفوا له بالاجادة فى شىء من التحفظ قليل ..

والواقع أن هذه القصة حين مثلت لأول مرة أمام هذه الطائفة الضيقة المختارة التى تحضر التجارب فى الملعب لم تثر اعجابا ولعلها أثارت شيئا آخر يناقض الاعجاب ولكنها لم تكد تعرض على جمهور النظارة الذين يختلفون الى الملاعب للهو لا للنقد حتى أعجبتهم واستأثرت بقلوبهم . والغريب انها

عجبت النقاد أنفسهم فى هذه المرة ، كأنهم تأثروا بجماعه النظارة حين رأوها راضية تضطرب بين ضروب الانفعالات المختلفة ، فاضطربوا هم أيضا وخرجوا يثنون بعــــد أن كانوا ساخطين ..

ذلك لأن الجدة والابتكار على خطرهما وأثرهما العظيم فى الآيات الفنيه ليسا شرطين أساسيين للاجادة دائما . وربما كان فى بعض الأوقات عقبة تحول دون الاعجاب والرضا .

ونحن نعرف كتابا وشعراء وممثلين وفنانين مختلفين لم يوفقوا الى ارضاء الناس لأن آياتهم الفنية كانت من الطرافة والجدة بمنزلة لم تكن قد سمت اليها بعد عقول معاصريهم ولم يكن بد من أن تمضى عشرات السنين ويتغير الجيل لتظهرالقيمة الفنية لهذه الآثار . والنــــاس مستعدون للاعجاب بما آلفوا والرضا عنه أكثر من استعدادهم للافتتان بما لم يألفواولاسيما اذا رأوا أنفسهم فيما يعرض عليهــــم من مظاهر الفن . ومن ذا الذى لايرثى لنفسه حين يرى آلامه تمثل بين يديه . وكذلك كانت الحال فى هذه القصة .

رأى كثير من الرجال والنساء فيها أنفسهم فسخطتالامهات على الزوجات وحنقت الزوجات على الامهات ورثى الرجـال لأنفسهم واتعظوا جميعا ووعدوا جميعا أنفسهم أن يلائموا بين حياتهم وبين ماخيل اليهم الكاتب أنه الحق أو العدل أو الخير .

والحق أن الكاتب قد استطاع أن يعرض لهذا الموضوع فى شىء غيرقليل من اللباقة والدقه وحسن الذوق فيزيل منــــه طائفة من الظروف كان من شأنها أن تصرف الناس عنــــه وتزهدهم فيه ويكفى أن تلاحظ مثلا أنه تخير أشخاص قصته جميعا من الاغنياء المترفين فألغى العقبة الاقتصادية ولم يدع لضرورات الحياة المادية أثرا فى هذه الحرب العنيفة التى أثارها بين الأم والزوج ، ثم الغى طائفة أخرى منالظروفتشبه هذا الظرف الاقتصادى ، فلم يجعل الأم متقدمة فى السن حتى لايكون اختلاف السن مصدرا من مصادر الشقاق بين المرأتين، ولم يجعل بين هاتين المرأتين اختلافا ظاهرا فى الطبقه حتى لايكون تفاوت المنزلة الاجتماعية مؤثرا فيما سيكون بينهمـا من صراع وانما اجتهد فى أن يكون الصراع معنــــويا صرفا

يتصل بالقلوب والنفوس والعواطف أكثر مما يتصل بأى شيء آخر ، ثم وفق من ناحية أخرى فكان مصـــورا دقيقا بارعا مسيطرا على خياله لم يتكلف الاختراع وانما تخير حوادثه بين هذه الأشياء اليسيرة السهلة التي تجرى بها حياة المترفين في كل يوم فلم يستطع أحد من النظارة أن ينكر حادثةأويرى وقوعها بعيدا وغير مألوف ·

وخصلة أخرى أظهرت حظ الكاتب من الكفاية الفنية وهى أنه حصر أشخاصه فى أقل عدد ممكن ، فهم أربعه لايزيدون الا اذا نظرنا الى الخادم الذى تكلف الكاتب ايجاده ليكونصلة بين هؤلاء الاشخاص ليس غير ·

وكان يخشى على الكاتب أن تضطره قلة الاشخاص الى أن يكون كثير القول قليل الحركة فيفسد بذلك حواره ويثقـل وتتأثر القصة كلها من هذا الفساد ، ولكنه استطاع على قلة الاشخاص أن يجعل حواره قصيرا خفيفا سريعا مابقى عنـده الاشخاص الاربعة ·

فلما كان الفصل الثالث وذهب أحد هؤلاء الاشخاص ظهر أثر ذلك فطال الحوار وثقل بعض الشيء وأصـــبح أقرب الى المناقشة الفلسفية منه الى التمثيل الحى · ومهما يكن منشيء فان فى قراءة هذه القصة لذة عقلية وفنية لابأس بها ·

***

نحن فى باريس فى قصر تظهر عليه آثار النعمة والترف فخم تحيط به حديقة واسعة كثيرة الاشجار أقرب الى الغابة منها الى الحديقة نادرة فى مدينة عظيمة كباريس · ونحن اذا رفع الستار نرى خادما يحاول أن ينظم طائفة من الآنيـــة الدقيقة الغالية فى حجرة الاستقبال فتدركه سيدته هيلان ، وهى امرأة جميلة رائعة كنساء التمثيل جميعا فى مقتبلعمرها على وجهها نضرة الشباب والغبطة والسعادة لأنها حديثة عهد بالزواج قد عادت منذ أيام من سياحة طويلة مع زوجها فى ايطاليا ومصر ، وهى تريد أن تنظم دارها الجديدة بحيثتلائم ميولها وذوقها الفنى الرقيق ، وهى تأمر الخادم بأن يصطنع الرفق فى مس هذه الآنية وتطلب اليه أن ينقلها فى رفق الى الطابق العلوى وتعلن اليه أن هذه الحجرة سيغير نظامها فيهدم

الحائط الذى يفصل بينها وبين حجرة أخرى لتصبح الحجرتان حجرة واحدة حديثة التنسيق والنظام على أن ينقل هذاالاثاث القديم الى غرفة أخرى فى الطابق العلوى ، فيسمع الخادم هذا كله فى شيء من الدهش والانكار لأنه يخدم فى هذا البيت منذ ثلاثين سنه وقد عهده كذلك وهو يعلم حق العلم أن أم سيده حريصة كل الحرص على أن تحتفظ به كما هو .

وتفهم من هذا الحوار بين الخادم وسيدته أن أم الزوج غائبة عن باريس منذ تزوج ابنها وان أبا الزوج قد مات منذ ثمان سنين وكان رحيما رفيقا بابنه وامرأته فلما مات فرغت المرأة لابنها ووقفت عليه حياتها كلها وعرف لها ابنها ذلك فأحبهـا حبا لايعدله حب ، واتصلت بينهما صلة قوية زادها قوة وغرابة شباب الأم ونضرتها فكانا يخرجان للتروض والنزهة فلايشك من يراهما فى أنهما زوجان أو خليلان . ونفهـــم من الحوار أيضا أن هذه الأم متسلطة قوية السلطة والارادة ، ونحس ضيق المرأة الشابة بكل ماتسمع ولكنها على كل حال تأمر الخادم أن يمضى فى تنفيذ ما أمرت به فيظهر الطاعة ، ولكن فى تثاقل وابطاء . ويأتى الزوج وهو جورج شاتل ، فتتلقاه امرأته لقاء حسنا لقاء العاشقة المفتونة التى لايقل عشقها لزوجها عن هيام زوجها بها فيكون بينهما حوار نفهم منه أنه موافق لامرأته كل الموافقة على تغيير النظام فى هذا البيت ثم نفهم أنه مشوق الى أمه ثم نفهم أن الزوجين سيخرجان اذا كان المساء لتناول العشاء فى مطعم من المطاعم الباريسية المشهورة .

والزوج يعلن الى امرأته أن سيكون معهما ثالث فتضيق بهذا حتى اذا ذكر لها اسمه رضيت واطمأنت ، وهذا الثالث هـو هنرى فالان صديقها منذ الطفولة وصديق زوجها منذ حين لم تره منذ تزوجت وهى شديدة الشوق الى أن تراه لأن له ولأبيه عندها يدا ولأنها تضمر لهذا الشـــاب مودة طاهرة بريئة .

والزوجان فى هذا الحديث واذا رسالة برقية ينظر فيهـــا الزوج فيبتهج فهى تعلن اليه قدوم أمه اليوم وقد كانا ينتظرانها آخر الشهر ، واذا فقد تغير برنامجهما فلن يخرجا ولن يرتاضا ، وسيتناولان العشاء فى البيت حتى لايشقا على أمهما .

وهيلان تقبل هذا فى شيء من الاذعان والتبرم والرجل يغريها أو يكاد وهو يثنى على أمه ويذكر ظرفها ورقتها وحنوها .

وينصرف الزجان كل لشأنه وقد أقبل الخادم فهو ينفذ كارها متباطئا أمر سيدته . وهو كذلك واذا الأم قد أقبلت فيبتهج الخادم بلقائها وتنكر هى ماترى من تغيير نظام البيت ويشتد انكارها حين ينبئها الخادم بتفصيل هذا التغيير ، ولكن ابنها يقبل فتلقاه راضية مبتهجة بلقائه وتكاد تنسى تغيير النظام ولكنها لاتلبث أن تذكره فتتحدث فيه الى ابنها فى شيء من الانكار تخفيه ولكنه يظهر ، وإبنها مضطرب بينها وبين امرأته كأنه يوافق امرأته على التغيير وهو الآن يكاد يستعطف أمه ويعرض عليها ألا يتغير شيء .

ولكن أمه تظهر الرضا على أنه رضا يشبه السخط ، والرجل يحدث أمه عن امرأته فيثنى عليها ويذكر ظرفها ورقتها وحبها كما كان يثنى على أمه أمام امرأته .

ثم يذهب ليدعو امرأته فتقبل وتلتقى المرأتان فى فتور ظاهر يضيق به الرجل ويبذل جهدا غير قليل فى ازالته فيوفق وما يكاد .

ثم يتركهما معلنا أنه سيتحدث مع صاحب سيارات فى سيارة يريد أن يشتريها لامرأته ، فنفهم بعد ذلك من الحديث بين المرأتين أن هيلان تحسن سوق السيارات وتريد أن تكون لها سيارتها الخاصة لتخرج بها فى باريس ، والأم تنكر هذا وتدهش له ويشتد دهشها وانكارها حين تقص عليها هيلان أنها قضت ليلة أمس مع زوجها بعيدين عن باريس لأنهما خرجا للنزهة فضلا واضطرا الى أن يقضيا الليل فى فندق حقير قذر وكانا سعيدين كل السعادة حتى أنهما ليريدان أن يستأنفا هذا الضلال ، فتلاحظ الأم أن ابنها قد تغير وتغير فى سرعة شديدة فهو يطمئن الآن الى مثل هذا الفندق القذر وقد كان من قبل مترفا مسرفا فى الترف ..

ونلاحظ نحن أن هذا التغيير لايعجبها وان الحرب قد بدأت فى حقيقة الأمر بين هاتين المرأتين : كلتاهما تحب هذا الرجل

وتريد أن تستأثر به ، وكلتاهما تريد له السعادة ولكن كما تتصورها هي ، ثم كلتاهما قوية الارادة ظاهرة الشخصية حريصة على أن تستأثر بالسلطان ٠

وقد أقبل الخادم يستأذن للصديق هنرى فالان فاذا دخل وخلا الى صديقته كان بينهما حوار بديع مضطرب مختلف تظهر فيه سعادة هيلان وحبها لزوجها وابتسامها للحياةويظهر فيه شقاء هنرى واضطراب نفسه وانصرافهعن اللذة والأمل ٠

ونحس نحن أن هذا الشاب قد استكشف بعد زواج هيلان أنه يحبها ورأى ان ليس اليهاسبيل فهويشقى بهذا الاستكشاف وهو على ذلك يحاول أن يخفى حبهوأن يحتفظ للزوجين بصداقة طاهرة ترعى فيها كل الحرمات ، ولكنهعاجز عن أن يضبط نفسه ويملك عاطفته ٠ وآية ذلك أنه يعتذر عن العشاء ويعجز عنأن يضرب موعدا آخر للقاء الزوجين ٠

***

فاذا كان الفصل الثانى فقد مضى نحو العام على ماحدثتك به آنفا وأخذت هذه الحوادث الضئيلة اليسيرة المحرجة على يسرها وضآلتها تكثر ويجتمع بعضها الى بعض فتفسد جو البيت وتباعد بين المرأتين وتزيد حياة الرجل عسرا وحرجا ٠

ونحن نرى أول الفصل هيلان فى مكتب زوجها تنسق الزهر فى آنية بديعة صغيرة تضعها على المكتبة وتنظر اليها من قريب ومن بعيد كأنها تريد أن ترى ماتحدثه منجمال فىالغرفة كلها ، وهى مغتبطة لاتملك أن تتحدث بغبطتها الى الخادم فتثنى على هذه الآنية وعلى ذوقها الذى مكنها من اختيارها ، ولكن حماتها تقبل مسرعة متعبة فتأمر الخادم بأن يحمل اليها بعض المتاع وما هى الا أن يأتى الخادم بما أمرت به فتزيل الورق عن انائين ضخمين من النحاس ، فاذا سألتهاهيلان أنبأتها بأنها سمعت ابنها أمس يود لو وضع على مكتبتيه شيء يزينهما فأسرعت فاشترت هاتين الآنيتين ، فتغتاظ هيلان لذلكوتقول انها هى أيضا سمعت زوجها فاشترت هذه الآنية الصينية البديعة ٠

وماهى الا أن ينشأ التنافس الثقيل المؤلم بين هاتين المرأتين كلتاهما تريد أن تكون هديتها أجمل من الأخرى ، ويقبل

الزوج فيحكم على غرة فيحكم لأمه وهو لايدرى ، واذا امرأته تسرع الى آنيتها فتحطمها فى ثورة وغضب ثم تندفع فى بكاء لا حد له وتنصرف الأم سعيدة دهشة . ويخلو الرجل الى امرأته فيريد أن يترضاها ويحاول أن يتعرف الخبر فاذا عرفه ضحك من طفولة امرأته وأخذ يلاطفها ويداعبها ولكنها تلقاه لقاء عنيفا ، وما تزال به وبأمه ثائرة ملحة فى أن تترك هذا البيت حتى يغضب زوجها ويفسد الأمر بينهما ، واذا هما يتراشقان بألوان من العتب المر ، واذا هى تنذره واذا هى توعده ، ثم ينصرف عنها بعد حوار طويل يحسن أن يقرأ لما فيه من دقة فى تصوير هذه العواطف التى تصل بين الرجل وامرأته والتى ماتزال بها صغائر الأشياء حتى تغيرها وتكدرها . ويعود اليها هادئا ولكن أمه تقبل فتحمل اليه كتابا ينظر فيه ثم يدفعه الى امرأته فتبتهج له وهو كتاب من أسرة صديقة لهذه الاسرة تدعوها الى حفلة ستقيمها فى احدى الضواحى ، فما أسرع ماتقبل هيلان الدعوة وتكتب بهذا القبول ، ولكن الأم تعتذر وتلح فى مكر على ابنها أن يذهب مع امرأته لانها متعبة والطبيب يأمر بالراحة ويحظر عليها تكلف المشقة فاذا سألها ابنهـــا عما تشكو ذكرت علة القلب فى الفاظ لاتلبث أن تخيف الرجل على أمه ، واذا هو يلح عليها فى أن تستريح ويريد أن يدعو الطبيب فتأبى عليه وتنصرف لتستريح فى غرفتها . ويقبل الرجل على امرأته يطلب اليها فى رفق أن تعدل عن قبول هذه الدعوة لأن أمه لاتستطيع أن ترافقهما وهو لايريد أن يتركها وحدها فيثور غضب هيلان وتمزق كتابها ويستأنف الحوار العنيف بين الزوجـــين وقد فســـد أو كاد يفسد بينهمـــا كل شىء .

ويترك الزوج امرأته مغيظة محنقة محزونة وتأتى الأم فاذا علمت أن الزوجين لن يقبلا الدعوة ابتهجت بذلك واغتبطت له . أليست قد انتصرت ؟

وهذا هنرى يقبل فتلقاه الأم فى ظرف وتلطف لم يتعودهما فاذا انصرفت وخلا الى صاحبته أخذ يظهر دهشه لهذا الظرف غير المألوف ومايزال بهيلان حتى تظهر له ماتجد من حزن وتشكو له سوء حالها ، واذا هذه الشكوى تشجعه على أن يظهر ما كان

قد أضمر واذا هو يعلن الى هذه المرأة حبه ويلح في اعلانهوهي تدفعه وتتهمه بالاثرة والجبن لأنه ينتهز فرصة هــذا الحزن ليخون صديقه ويستغل موقفا ماكان يحسن أن يســتغله . وما تزال به حتى يفيق واذا هو يشكو ويعتذر ويستعطفوهي تدفعه راثية له عاطفة عليه طالبة اليه أن ينصرف فيفعلمودعا بألفاظ فيها حب وأنه ليقول هذه الالفاظ منصرفا واذا الأم تدخل من باب آخر فتسمع مايقول وتراها هيلان وتعرف انها قد سمعت فتضطرب وتستحي وتحاول أن تحملها على الكلام فلا تظفر بشيء وهي الآن تتملقهاوتترضاهاحتى اذا استيأست منها انصرفت محزونة مروعة .

ويقبل الزوج فيتحدث الى أمه عاتبا لانه يراها سالمة بارئة لا علة بها فينكر تمارضها منذ حين ويرثي لامرأته ويعلن الىأمه أنه قد يقبل رأى امرأته ويتخذ معها بيتا خاصا ، فتثور الأم ولكنها ثورة لاتخلو من دهاء ومكر فهي تعلن الى ابنها انامرأته ان كانت ترغب في هذا الاستقلال فهي انما تريد أن تتخلصمن رقيب خطر ، ولا يكاد الرجل يسمع هذه الكلمة حتى يأخذه الشك فيستوضح فتأبى عليه فيلح فتأبى عليه ولكنإباءالمعرض المغري واذا الغيرة قد أخذت تعمل عملها في نفسه وما يزال يستدرج أمه حتى تذكر اسم هنري وزياراته المتصلة فتشتد الغيرة وتتضح التهمة في نفسه ، وترى أمه هذا كله فتجزعله بعض الشيء لانها قد وصلت الى أكثر مما كانت تريد والرجل ثائر يطلب امرأته فاذا أقبلت لم يلبث أن يسألها عن هنري وان يتهمها بالريبة .

فقدر أنت ثورة هذه المرأة البريئة ولكن قدر فيالوقتنفسه ثورة زوجها حين تأبى أن تدفع عن نفسها . وما يزال الأمر يشتد بينهما حتى يبلغ أقصاه واذا هو يهجم على امرأته كأنه يريد أن يضربها واذا هي تعلن اليه في عنف أن هنري خليلها وانها لاحقة به وتنصرف مسرعة فيتبعها ثم لايدركها فيعــود وتقبل أمه كأنها تريد أن تعزيه فيوليها ظهره صامتا وتفهم ان قد كان بينها وبين ابنها من الشر مالا سبيل الىاستدراكه .

***

فاذا كان الفصل الثالث فقد مضى أسبوعان على ماحدثتكبه ونحن نرى الأم في حجرة الاستقبال تلك مستلقية كالمتعبة

والخادم يتحدث اليها ، فنفهم انها مريضة وانها تخفي مرضها على ابنها ، ونفهم أن ابنها محزون حزنا لا حد له ملازم لمكتبه لايكاد يريمه مؤثر للوحدة والصمت بعيد كل البعد عن أمه يعيش معها وكأنه لايراها ، وقد أخذ الخادم يشفق عليه وآية ذلك أنه جمع أجزاء الآنية التى حطمتها امرأته فضم بعضها الى بعض وأعاد الآنية كما كانت ووضع فيها زهرا يحسب أنه يحسن بذلك الى سيده ·

وهذا الابن قد أقبل فيتحدث الى أمه حديثا سقيما متقطعا ملؤه الحزن والغيظ والحقد أيضا وما تزال به أمه حتى تصل به الى موضوع حزنه واذا هو يشكو أنه شديد الندم على ما فرط منه لايستطيع أن يتعزى ، لاينام ولا يخرج ولا يستطيع أن يفكر ولا أن يحتمل البيت منذ خلا من امرأته ، ولقد تبعها يوم انصرفت فلم يدركها وأسرع الى بيت صديقه فقيل له أنه خرج ومعه امرأة فانتظرهما الليل كله فلم يعودا ورجع الى البيت مرات حتى عرف أن صديقه سافر الى الهند فهو محنق محزون يأسف لأن امرأته قد تركته ولأنه لم يستطع أن يقتلها ويقتل معها صاحبها ، ثم نفهم أيضا حقده على أمه لانها أفسدت بينه وبين امرأته وكانت أثرة مسرفة في الاثرة لاتفكر الا في نفسها ولا تحسب لسعادة ابنها حسابا ، والام تدفع عن نفسها وتألم لشقاء ابنها وقد انصرف عنها لانه رأى سيارة مقبلة فيخاف أن يلقي الزائرين ولكن هؤلاء الزائرين ليسوا في حقيقة الامر الا امرأة تدخل فتنكر الام مكانها وهذه المرأة هي هيلان ·

تلقاها الأم لقاء فيه بغض وحقد وفيه اتهام بالريبة والاثم . ولكن هيلان لاتلبث أن تثبت براءتها وانها انما اتهمت نفسها حنقا وغيظا ثم تهم أن تنصرف فتمسكها الأم ويكون بينهما حوار لا أحبه لأن فيه فلسفة ربما ثقلت على الملعب · فيه تحليل للحب الزوجي وتحليل لحب الامهات ومحاوله لتحديد الموقف الذى يجب أن يكون بين الحبين · ومهما يكن أمر هذا الحوار فقد اقتنعت الأم بأن سعادة ابنها عند امرأته لاعندها وكأنها قد أخذت تحب هذه المرأة ·

وهذا ابنها يقبل فاذا رأى امرأته أنكر مكانها وهمت أمه أن تنصرف فيمسكها ولكنها تنتهز فرصة وتتركهما وجها لوجه

فيكون بينهما جدال يتهمها وتدفع عن نفسها ويأبى أن يصدقها فتلح فى الدفاع وتقص ما كان بينها وبين صاحبها فاذا هو قد عرض عليها الحب فأبته عليه فافتقدته بعد ذلك فلم تعرف أين هو وهى تجهل سفره بل تجهل مكانه ، ولكن زوجها لايصدقها ولا يريد أن يسمع لها فتنهض مستيئسة تريد أن تنصرف حتى اذا بلغت باب الحجرة سمعت زوجها يدعوها فتعود اليه مبتهجة ولكن الأم تقبل فى هيئة السفر تودع ابنها فاذا سألها أنبأته بأن أمور ثروتها مضطربة وانها تريد أن تشرف عليها من قريب وأن الطبيب يشير عليها بترك باريس. وماتزال بابنها حتى يطمئن الى هذا السفر كارها وتأبى عليه أن يشيعها وتقبله وتوصى امرأته به خيرا ، وتنصرف مسرعة ويقف ابنها أمام النافذة وكأنه يريد أن يودعها وتسمع حركة السيارة فتقول هيلان لزوجها : « تركتها تسافر ؟ » فيجيبها : « وماذا يعنيك مادمت أنت ستبقين ؟ »

●●●



قصة تمثيلية بقلم الكاتب الفرنسى (بول هرفيو)

قد لايكون هذا العنوان ظريفا ، وقد لايجرى به اللسان فى سهولة ، وقد لايسيغه السمع ، ولكنه مع ذلك صحيح ، وهو مع ذلك ترجمة دقيقة لعنوان هذه القصة بالفرنسية ، وهو يختصر القصة كلها • فهى تيه بالمعنى الصحيح ، مهما تفكر ومهما تمعن فى التفكير فلن تجد منه مخرجا ، ولن تجد فيه هدى •

هذه القصه جهاد لانتيجة له بين العواطف والشعور من جهة ، وبين العقل من جهة أخرى • بين العواطف والشعور الفردية من ناحية ، وبين القانون والأوضاع الاجتماعية من ناحية أخرى ، بين العواطف وبين الواجب ، وبين العقل وبين الدين ، ثم بين القانون وبين الدين أيضا • هى جهاد عنيف لانتيجة له ولا مخلص منه ، بين مايكون الفرد ومايكون الجماعة من ضروب العواطف والشعور ومن ألوان الأوضاع والقوانين •

وهى ليست جهادا متكلفا ولا منتحلا ، ليست شيئا اخترعه الكاتب اختراعا وعقده عمدا وافتنانا فى التعقيد ، وانما هى شىء طبعى يقع كثيرا ومن الممكن أن يقع فى كل يوم • قد يلتفت الناس اليه وقد لايلتفتون ، ولكنه فى نفسه حق ان لم يقع بالفعل فى كل زمان وفى كل مكان فمن الممكن جدا أن يقع فى كل زمان وفى كل مكان •

فى كل زمان وفى كل مكان ! قد لايكون هذا حقا وقد لايخلو من المبالغة ، لأن هناك أمكنة أو قل ان هناك جماعات فيها من قواعد الدين ونظم التشريع مايحول بين الناس وبين التورط فى هذا الجهاد الأليم العقيم ، فالمسلمون مثلا لايتورطون فيه لأن الله أباح لهم الطلاق وأباح للمرأة المطلقة أن تعود الى زوجها الأول بعد استيفاء شروط وقيود معروفة • وأظنك الآن تحس ان هذه القصة تدور حول الزواج وحول الطلاق • فلست أريد أن أطيل عليك ولا أن أسرف فى تشويقك الى حوادث هذه القصة ، وانما أنا مبتدىء فيها راج أن تكون هذه القصة موضع بحثك وتفكيرك . فأنا أعترف بأنى لا أتخير هذه القصص عفوا

وانما أتخير منها بنوع خاص ما من شأنه أن يهز العاطفة ويلذ العقل أو يدعو الى العناية والتفكير . وفى هذه القصة كل هذه الخلال .

« فيلاردوفال » رجل أقرب الى الشيخوخة منه الى الشباب، حسن الحال ، موسر مرتفع المنزلة ، كان قاضيا وقاضيا ممتازا، خدم القانون وحماه من عبث العابثين ، فأصبح شديد الايمان بالقانون يكاد يتخذه دينا أو قل انه يتخذه دينا ، ويتخذ اكباره وتقديسه مقياسا لكرامة الرجل بل لرجولته ، وله زوج شديدة الايمان بدينها المسيحي الكاثوليكي ، شديدة الايمان أو مسرفة في شدة الايمان ، لاتفكر الا فى الدين ولا تصدر الا عن الدين ولا تقيس شيئا من الاشياء فى الحياة الا بمقياس الدين تحب زوجها حبا شديدا ، ويحبها زوجها حبا شديدا ولهما ابنة هى «مريان» بارعة الجمال فتانة شديدة الذكاء ساحرة اللفظ معتدلة المزاج ، قد ورثت عن أبيها حب القانون واكباره ، وورثت عن أمها حب الدين واحترامه ، ولكنها لاتسرف فى شيء من ذلك ، فهى معتدلة فى كل شيء . تزوجت فتى غنيا جميلا هو (مكس دى بوجيس) وتزوجته بعد أن أحبته وكلفت به وبعد أن أحبها وكلف بها . فعاشا فى الحب والصفاء حينا وكان لهما غلام . ولكن الزوج الشاب خان امرأته فى ساعة طيش ونزق . فكانت الصدمة على هذه المرأة شديدة وساء الظن بين الزوجين، أسرفت فى الغضب وأسرف هو فى عدم الاكتراث حتى ساءت الصلة ثم انقطعت ثم كان الطلاق رغم الأم المؤمنة التى تكره الطلاق بحكم ايمانها . ثم تزوج الشاب من صاحبته التى كانت مصدر شقائه ، وظلت « مريان » بين أبويها مقسمة الوقت والحياة بين حب ابنها واللوعة بما أصابها فى حب زوجها . ولكن لهذه الأسرة صديقا كان بعيدا عن فرنسا يعيش فى الاقطار النائية لأمر من الأمور نتوهمه ولا نتبينه فى وضوح . عاد هذا الصديق الى فرنسا واسمه « جيليوم لابروم » ورأى مريان فأحبها وفتن بها وقدسها تقديسا ، وطلب اليها أن تكون زوجه، فقبلت لا لأنها تحبه ولكن لانها تحترمه وتثق بصدقه واخلاصه وبأنها ستكون سعيدة فى بيته ، فقبلت أن تكون زوجه وقبل أبوها هذا الزواج مغتبطا به مطمئنا على مستقبل ابنته ، ولكن

الأم رفضت هذا الزواج رفضا قاطعا . رفضته لأنها تجحد الطلاق ولا تعترف به . فهى اذن مقتنعة فيما بينها وبين نفسها بان الزواج الأول لم تنفصم عروته وأن ابنتها مازالت مدينة بحياتها لزوجها الاول وأن الزوج الأول مازال مدينا بحياته لزوجه الاولى . واذا كان هذا قد خالف الدين وتزوج مرةثانية فتورط فى الخطيئة فليس ينبغى لابنتها أن تخرج على قانون الكنيسةوأن تقطع صلةأنشأتها كلمةالدين . واذن فالجهاد قائم منذ الآن بين الدين والقانون ثم بين الدين وشعور الانسان بحقه فى أن يكون سعيدا . القانون يبيح لهذه المرأة أن تتزوج ، وسعادتها تقتضى أن تتزوج ، بل حاجاتها الطبيعية تقتضى أن تتزوج ، وهناك رجل يحبها حقا ويريدها على أن تكون زوجه ، وهناك أبوها الذى أنفق حياته فى خدمة القانون يرغب فى هذاالزواج ويحرص عليه ، ولكن هذه المرأة تحب أمها وتجلها ولاتريد أن تخرج عليها ولا أن تخالف أمرها ، فهى تستعطفها وتتوسل اليها بكل وسيلة ، تذكر شبابها وحاجاتها الى الحيـــاة والى السعادة فى الحياة ، وان الله لايمكن أن يقضى على هذه الزهرة النضرة بهذا الذبول ولا أن يقضى على هذه المرأة بالشقاء فى العزلة حينمـــا هو يبيح لغيرها من الرجال والنساء الحيـــاة الاجتماعية السعيدة المعقولة . تتوسل بكل هذا ولكن أمها لاتسمع لها ولا تأذن بهذا الزواج . وبينما هذا الجهاد فى أشد أطواره من العنف يقع شىء يزيده عنفا ويحمل هذه المرأة الشابة على أن تثور فتخرج على أمها وتخرج على الدين وتتزوج . ذلك أن امرأة أخرى تقبل لزيارة « ماريان » وبينهما صلة قرابة ، فتطلب الى « ماريان » أن تعينهـــا على أمر منكر فهى قد غابت أمس عن زوجها ولا تستطيع أن تنبئه أين كانت فكذبت عليه وزعمت أنهـــا كانت عنـــــد « ماريان » والزوج مقبـــــل الآن ، وقد يسأل « ماريان » عن أمس فان لم تـكذب عليـــه كما كذبت زوجه فيسوء الأمر بين الزوجين ، وقد يكون ذلك مصدر الطلاق . تتمنع « ماريان » وتأبى الكذب ، ويدور بينها وبين صاحبتها « بوليت » حوار لابأس به : أى المرأتين أشـد اثما : التى تخون زوجها وتخفى عليه الخيانة ، أم التى لاتخون أحـدا ولـكنها قد طلقت وتريد أن تتزوج زوجا آخر ؟ فأما

« بوليت » فترى أن الخيانة أيسر من الزواج بعد الطلاق ٠ذلك لأن الخيانة مجهوله أو يجب أن تكون مجهولة ، وقد تعمدالناس أن يجهلوها ويتكلفوا جهلها ومضـوا على ذلك فى آدابهـم وأوضاعهم ، حتى أصبحت المرأة فى بعض الطبقات تستطيع أن تعيش بين زوجها وخليلها دون حرج ولا جناح بينما المرأة التى تطلق ثم تتزوج من جديد تثبت بصفةرسمية أمام القانون وفى دفاتر الحكومة أنها قد قسمت نفسهابين رجلين ، فلايكاد يراها أحد الا ويشعر بهذه الشركة أو بهذه القسمة أو بهـذا التبادل ، وفى هذا مافيه من الخزى ، وفى هذا مافيه منانتهاك حرمة الحياء ٠٠

فأنت ترى الى هذا النفاق الاجتماعى الذى يبيح الخيـانة ويقرها وان أنكرها القانون والدين وحظراها ، والذى يحظر الزواج بعد الطلاق وان أباحه القانون وأقرتهالمنفعةواستلزمته العواطف والسعادة فى كثير من الاحيان ٠٠

تثور « ماريان » على هذا النفاق الاجتماعى ولكن شيئا آخر يزيد ثورتها عنفا وهو أن أمها المؤمنة التقية قد اشتركت فى هذا الكذب فأخفت الأمر على الزوج مخافة أن تنهدم حيـاته الزوجية ٠ واذن فقد أقرت شيئا يحظره الدين فما لها لاتقر ابنتها على الزواج اذ كانت المصلحة تبيح مخالفـة الدين ؟ فتجيبها الأم بأن خطيئة صاحبتهـا قد وقعت بالفعل فهى لاتستطيع لها استدراكا ، وقد أصبح أمرها الى الله وحده ، فالرحمة بالانسان تقتضى أن تظل هذهالخطيئةمكتومة ، أماأنت فلم تخطئى بعد وأنت تريدين أن تخطئى ، وحرام علىّ أنأعينك على الخطيئة ٠ ثم تنصرف الأم بعد أن تعلن الى ابنتها أنهـا لاتسمح بهذا الزواج ولكنها لن تستطيع أن تجحد ابنتها مهما تفعل ٠ هنا يستقر رأى « ماريان » على أن تخالف أمهـا فتتزوج ٠

***

فاذا كان الفصل الثانى رأيت « ماريان » وزوجها الجـديد ، وقد مضى على زواجهما عامان وهما فى زيارة يتغديان عنـد « بوليت » التى مر بك ذكرها ، فيتحدثون فى كثير منالشئون

ثم ينفصلون قليلا . فأما ماريان فتتحدث الى زوج صاحبتها واسمه « هوبير » ، أما « بوليت » فتتحدث « جيليوم » زوج ماريان .

ولست تسمع الا حديث ماريان وصاحبها ، فاذا صاحبها يشكو اليها ويستعينها . ذلك أن زوجه أحست منه بعض النزق فهجرته فهو يستعطف ويتوب ويتوسل بماريان . ثم تخلو المرأتان وتتحدثان فتلح ماريان على صاحبتها أن تعفو عن زوجها وأن تذكر خطيئتها ، فتأبى بوليت ويتبين من حديثها أنها مازالت فى خطيئتها وأنها مغتبطه بهذه الخطيئة وأنها تؤثر الحب على الزواج ، تكره من الزواج هذه الاباحة التى ترفع الكلفة بين الزوجين وتجعل الصله بينهما شيئا مألوفا وتجعل للرجل على المرأة حقا يشبه حق المالك المتسلط ، وهى تحب فى الحب أنه غير مباح وأن فيه هذه المشاق والاخطار التى تجدها فى كل محظور والتى تضطرك الى أن تتكلف الاهوال وتتجشم الخطوب فتختلس الوقت وتسترق اللذة . تخفى ذلك كله وتكذب فيه ولا تصل الى شىء منه الا بعد حيلة وجهاد . فهو اذن شىء لايكفى أن تمد اليه يدك لتناله . وهما فى هذا الحديث وفى هذا الحوار تبيح احداهما محظورا وتدافع احداهما عن مباح وبوليت تتعجل صاحبتها لأنها تريد أن تذهب الى ميعاد . وبينما هما فى هذا كله اذ يدخل الخادم ومعه بطاقة وهذه البطاقة هى التى تعقد القصة وتجعلها أدنى الى الشر والنتائج السيئة حقا مما كانت أول الأمر .

هذه البطاقة من مدام « بوجيس » أم الزوج الأول لماريان فيها أنها أقبلت تتوسل الى « بوليت » أن تتوسط عند ماريان فى أن تبيح لزوجها القديم الاشراف على تربية ابنه أكثر مما كان ذلك له مباحا من قبل . تطلب ذلك لمنفعة ماريان نفسها ولمنفعة ابنها ولمنفعة حفيدها ، فقد أصبح ابنها أرمل لأنه فقد زوجه الثانية حينما أصبحت ماريان متزوجة ، واذن فالأب أحق بابنه من الأم لأن الأب وحيد والأم تعيش مع رجل غريب يمكن أن يكون له تأثير سىء فى نفس الغلام . تقرأ بوليت هذه البطاقة وتتحدث بها الى ماريان ولكنها متعجلة تريد أن تذهب لموعدها ، واذن فلا بد لماريان من أن تلقى هى مدام بوجيس وتتحدث اليها فى هذا الأمر الجديد .

فاذا جاءت مدام بوجيس وتحدثت الى ماريان فهمت من حديثها أنها تحب ماريان وتحب ابنها وتحب حفيدها وتحب الخير لهؤلاء جميعا وأنها كأم ماريان تجحد الطلاق ولا تعترف بالزواج الجديد ، لكنها لاتقنع ماريان رغم ماتذكره لها من آراء المحامين ورغم ماتخوفها من وصول الأمر الى القضاء وانتصار زوجها الأول وتحدث الناس بذلك فى الصحف والانديه ، لاتقنعها فترغب اليها فى أن تسمع لابنها وهو قريب يمكن أن تشير اليه من النافذة فيجيب ، وهو قادر على اقناعها لأنه يعلم من الأمر مالا تعلم ، وهو لم يكره زوجه الأولى قط ولم يخنها الا فى ساعة خفة وطيش ، والأمر بعد هذا كله فوق الأم وفوق الأب لأنه يتعلق بحياة الابن وهما جميعا يقدسان هذه الحياة . تتمنع ماريان أول الأمر ولكنها تسمع أخيرا . وتشعر أنت من هذا التمنع وهذا القبول أن هناك جهادا بين قلب هذه المرأة وواجبها ، فهى مازالت تحب زوجها القديم ولكنها تريد أن تؤدى واجبها لزوجها الجديد . هذا الجهاد موجود عنيف ولكنها تخفيه على نفسها لأنها تجل نفسها عن أن تحب من خانها من جهة وعن أن تخون ولو بالضمير من أحبها من جهة أخرى . يقدم الزوج الأول .. ويتحدثان فاذا الزوج الأول محق واذا هو يخشى على ابنه الخطر كل الخطر من عشرة الزوج الثانى ، لأن هذا الزوج الثانى يلقى فى روع ابنه من الخواطر والآراء مالا يلائم مزاج الغلام ولا صحته ولا مستقبله ولا آمال أمه وأبيه فيه . تقتنع ماريان ويتفقان على أن يذهب الغلام مع أبيه الى الريف يقضى فيه أسابيع . ولكن أحست ماريان عجزها عن مقاومة هذا الحب القديم ، وأحست من جهة أخرى أن زوجها الأول مازال يحبها رغم خيانته ورغم زواجه الثانى .

***

فاذا كان الفصل الثالث علمت أن الغلام لم يكد يذهب الى الريف حتى أصابته علة الديفتريا فأشرف على الموت ودعيت أمه بالبرق فأقبلت وأقامت فى قصر زوجها الأول خمسة عشر يوما تشارك هذا الزوج فى العنايه بهذا الغلام وفى دفاع الموت عنه .

وقد أحسا غير مرة ألما واحدا وخوفا واحدا ، وأحسا غير

مرة لذة واحدة وأملا واحدا ، أحسا الالم والخوف حين كانت حياة الغلام في خطر ، وأحسا اللذة والأمل حين كان الطبيب ينبئهما بحسن حال المريض ، أحسا أن بينهما صـــلة مادية ومعنوية ، صلة حية ليس لاحدهما أن يقطعها ، أحسا أنهماقد يفترقان وقد يقع بينهما الطلاق ، وقديتزوج كل منهما ولكنهما رغم هذا كله متحدان معنى ومادة ، متحدان في هذا الغلام الذى يوحد بين جسميهما وبين خلقيهما بل وبين ماورثا في حياتهما المادية والمعنوية · ثم أحسا أنه يوحد آمالهما وآلامهما ، أحسا هذا كله وكلاهما يحب صاحبه حبا لايكاد يخفيه ، فما عسى أن تكون نتيجة هذا الاحساس ؟! ··

أما في نفس الزوج فشيء واحد هو استئناف حياته الزوجية مع زوجه الأولى ، وأما في نفس ماريان فشيئان متناقضان : اجابة الحب الى دعوته ، واجابة الواجب الى دعـــوته · والحب صادق لأنها تحب زوجها حقا ولم تنس حبه في يوم من الأيام ولأنها تحب ابنها فتحب زوجها في ابنها · والواجب صادق أيضا فهى تحترم القانون وتحترم زوجها الثاني وتحترم نفسها ، وترى أن الواجب هو أن تظل محترمة للقانون ولنفسها وفية لزوجها الجديد · واذن فيجب أن تشعر بحب زوجها الأول ، ويجب أن تقاوم هذا الحب وفاء لزوجهـــا الثاني وللقـــانون ولكرامتها · وهى عن ذلك كله في شغل مادام ابنها في خطر ، ولكن الطبيب قد أعلن أن الغلام أخذ يبل من مرضه وأن أمه تستطيع أن تفارقه دون أن تخشى شيئا ، فلا بد اذن من الفصل في هذا الجهـــاد · وماريان قوية معتزمة أن تفى للواجب وان ضعفت صحتها واختل مزاجها العصبي أو كاد ، فهى تعلن اذن أنها معتزمة على السفر غدا ، فاذا طلب اليها البقاء لتستريح أعلنت أن الواجب يكلفها ألا تظل في هذا البيت حين لاتدعوها الضرورة الى الاقامة فيه · وهى فى هذا الجهاد العنيف اذ تعلم شيئا يزيد هذا الجهاد عنفا ، تعلم أن صديقتها بوليت التى كانت تخون زوجها وتؤثر الحب المحظور على الزواج المباح قد فقدت ابنها ، ولاتكاد تتحدث الى هذه الصديقه البائسة حتى ترى أن مرض هـــذا الغلام الذى مات قد أصلح نفس أمه ، فاستيقنت أن الزواج حق ، وأن الذى يجعله حقا ونفعا وخيرا

بل الذى يجعله الحق الذى ليس دونه حق والنفع الذى ليس دونه نفع والخير الذى ليس دونه خير انما هو وجود الابناء • ذلك لما قدمنا من أن الابن يجمع الابوين حقا ويوحد بينهما توحيدا لا سبيل الى تفريقه ، فقد أحست بوليت هذا حين كان ابنها مريضا ، وازداد احساسها اياه حين مات ابنها ، فكرهت الحب المحظور وأخذت لاتتمنى على الله ولا على الحياة الا شيئا واحدا وهو أن يولد لها من هذا الزوج الذى كانت تخونه أمس ابن يزيد الصلة بينهما توثيقا وقوة ، وتتحدث بهذا الى ماريان فاذا لهذا الحديث صداه الصادق فى نفس ماريان ،واذا هى تشعر أنها غريبة من زوجها الثانى لأن الابن لايصل بينهما ، وأنها متصلة بزوجها الأول لوجود هذا الابن ، واذن فكلتا المرأتين تعسة : احداهما فقدت ابنها والأخرى فقدت زوجها حقا • ولكن ماريان مصرة على الوفاء للواجب ، وقدتفى لهذا الواجب لولا أن زوجها الأول أقوى منها ، فهو يدخل عليها فى هذه الغرفة التى هى فيها الآن والتى رآها فيها لأول مرة يوم تزوجا والتى تركها فيها يوم الخيانة • يدخل عليها وهى تستعد للراحة ، قد نزعت ثيابها أو كادت وأرسلت شعرها فيراها الآن كما رآها يوم تزوجا ، يدخل عليها وقد علم أنها تريد أن تسافر وهو يأبى أن تسافر حتى تسمع له وتعفوعنه• فيأخذ فى التحدث اليها واستعطافها وتذكيرها أيام الحب • ثم يذكر خيانته وأنها لم تصدر الا عن ضعف وطيش وأنه كان الى ضعفه وطيشه أحمق مغرورا ، ساءه أن امرأته علمت بخيانته فاغتاظ لذلك ولج فى الخيانة طيشا وحمقا ، ثم تتحدث اليه ماريان فاذا هى حين أغضبتها الخيانة وملأتها حقدا وغيظا لم تكن تتمنى الا شيئا واحدا وهو أن يعود زوجها تائبا مستغفرا فيترضاها ويستأنف معها الحياة ، اذن فقد كان غضبها كاذبا، واذن فقد كانت خيانته كاذبة أيضا ، واذن فقد كان كلاهما يحب صاحبه حقا •

وقد أظهر مرض الغلام أن هذا الحب لم يزدد الا قوة وعنفا• ألما معا وجزعا معا وقد برىء ابنهما فيجب أن يسعدا معا ،وهما الآن فى الغرفة التى شهدتهما زوجين لأول مرة ، هنا تضعف

الارادة ويضعف أثر الواجب وينتصر سلطان الحب والأمومة على سلطان الزواج والقانون ·

فاذا كان الفصل الرابع رأيت أبا ماريان وأمها بمنزلهما فى باريس يتحدثان بأن الغلام قد برىء وبأن ماريان عائدة الى باريس بعد قليل من اللحظات وبأن زوجها قد ذهب يستقبلها ثم يطلب الشيخ الى امرأته أن تذهب معه الى بيت ابنتها فتأبى لأنها لاتريد أن تدخل هذا البيت الذى يقوم على الخطيئة ويتركها زوجها حينا · ثم تقبل ماريان والهة ذاهلة فى شكل مخيف ، فلا تكاد تستقر بها الدار حتى تكون قد قصت على أمها كل شيء فأنبأتها بأنها خانت زوجها الثانى مع زوجها الأول ، وأنها تستبشع هذا استبشاعا فظيعا وترى أنه جرم لايعد له جرم ، أما أمها فلا ترى فى هذا اثما ولا خطيئة وانما ترى أن ماريان قد ردت الامانة الى صاحبها ، وأنه ان تكن هناك خطيئة حقا فهى حياتها مع زوجها الجديد · ويقبل الشيخ وقد سمع هذا الحديث فتناله هزة نفسية عنيفة يرثى لابنته لأنها لم تفعل ذلك وهى قادرة على ألا تفعله ، ويرثى لزوجها الثانى لأنه مظلوم ويريد أن يلتمس حلا لهذه العقدة ، فأما الأم فتقترح الحل وهو أن هذا الزواج الثانى قد قام على الطلاق فيجب أن يهدمه الطلاق وأن تعود ماريان الى زوجها الأول· ولكن الشيخ رجل قانونى وهو يعلم أن القانون الفرنسى لايبيح للمطلقة أن تعود الى زوجها الاول الا اذا مات زوجها الثانى ، فليس للمسألة الا حل واحد وهو الكذب ، هو أن تخفى الحقيقة على الزوج الثانى ، ولكن ماريان عاجزة عن اخفاء هذه الحقيقة· لاتريد أن تكذب ولا تريد أن تخدع زوجها الثانى والحق أنها لاتحب زوجها الثانى ولا تستطيع أن تعيش معه وان كانت تكبره وتجله ، فهى اذن قد عزمت على أن تصارح زوجها بكل شيء ، يلح عليها أبوها وأمها ألا تفعل فتأبى ، ثم يصلان الى اقناعها بأن تستخفى حتى يقبل « جيليوم » مضطربا لأنه ذهب لاستقبال زوجه فلم يجدها ، فاذا علم أنها قد عادت الى باريس وأنها ذهبت الى بيت أبيها لا الى بيت زوجها ازداد

اضطرابا ، واذا طلب أن يرى زوجه فأجيب بأن الخير فى أن ينتظر الآن خرج عن طوره وألح وأنذر حتى تخرج له ماريان. ويخلو الزوجان فيسألها فلا تجيبه الا بضروب من الايماء ، والرجل واثق بزوجه فهو يعتقد أنها ضعيفة متأثرة الاعصاب فيريد أن يأخذها باللطف والحنان فيدنو منها ويريد أن يضمها اليه ، ولكنه لايكاد يطلب شفتيها حتى تصيح فى وجهه بأنها خائنة ! ..

هنا يثور ثائر الرجل ولكنه لايريد الا أن ينتقم من هذا الزوج الأول الذى أهانه وانتهز اقامة امرأته عنده وضعفها ففعل مافعل ، يخرج وهو عازم على قتله فتستغيث ماريان بأبيها وأمها وتتوسل اليهما فى أن يدفعا هذا الشر الذى يريد أن ينزل بهذين الرجلين • فقد رأيت أن المؤلف قد أحكم العقدة فبلغ بالجهاد أقصى أطوار العنف بين هذه العواطف المختلفة وبين هذه الاهواء المتباينة وبين الدين والقانون • بلغ بالجهاد أقصى أطوار العنف حتى أصبح جهادا خارجيا بين رجلين مسلحين ، كلاهما يريد الشر بصاحبه ، وأحدهما يمثل القانون والحب ، والآخر يمثل الدين والأبوة والحب •

***

فاذا كان الفصل الخامس رأيت أسرة ماريان قد انتقلت من باريس الى قصر لها فى الاقاليم ، وظهر لك المسرح فى موضع من حديقة هذا القصر تشرف على مكان خطر من النهر ، ورأيت ماريان وأمها تتحدثان ، فتفهم من الحديث أن أم ماريان قد أسرعت الى الزوج الأول فانبأته بمكان الخطر على حياته ، وما زالت به حتى حملته على أن يستخفى • ثم تفهم شيئا آخر وهو أن الزوج الأول لم يستخف حقا ، وانما انتقل من قصره الى حيث تقيم ماريان ، فليس بينها وبينه الا النهر فهو يبعث اليها فى كل يوم بكتاب يريد أن يستأنف الصلة بينها وبينه ، وماريان تقرأ كتبه ولا تجيب • وهما فى هذا الحديث اذ يقبل أبوها فينبئهما بأنه لقى فى طريقه « جيليوم » وهو الزوج الثانى ، وعلم منه أنه أقبل يريد أن يتحدث الى ماريان • فتقبل ماريان أن تتحدث اليه ، ويذهب

الرجل ليأتى به ، وتذهب ماريان مع أمها لتتخذ لها معطفاتتقى البرد لأن المساء قد أمسى . يقبل « جيليوم » ويخلو حينا فى المسرح ، وهو ينتظر اذ يدخل غلام من القرية معه كتاب من « مكس » الزوج الأول ، فيأخذ « جيليوم » الكتاب ، وقدعلم من الغلام مكان « مكس » وعلم منه أيضا أن هذا الموضع من النهر شديد الخطر . ينصرف الغلام ، ويقرأ جيليوم الكتاب فيفهم كل شىء : يفهم أن مكس يريد استئناف الصلة معماريان وأن ماريان لاترد على كتبه . وهو كذلك اذ تقبلماريانفيعرض عليها جيليوم العودة الى الحياة القـــديمة وأنه يريد أن ينسى ماكان ولا يذكر من أمر الخيانة شيئا وأنه لن يستطيعأن يعيش بدون ماريان ولن يستطيع أن ينسى شرفها وأمانتها حينأنبأته بالحق ولم تخف عليه شيئا ، وكانت تستطيع أن تداهنوكانت تستطيع أن تصطنع الرياء .

ولكن ماريان تشكر له ذلك وتعلن اليه أنه قد يستطيع أن ينسى كل شىء ولكنها هى لاتستطيع أن تنسى ، وقد تزوجته على أن تكون له وفية فى السر والجهر وفى الدقيق والجليل من أمرها ، فأما وقد خانت هذه الامانه فهى لاتستطيع أن تعود اليه ، وهى لاتطلب الا شيئا واحدا ، لاتطلب الا أن تفرغلابنها تقف حياتها على تربيته والعناية به ، لايصـــدقها جيليوم ، وتملكه الغيرة فيظن أنها تريد أن تخلص منه لتستأنف الحياة مع الزوج القديم . ثم تهدأ غيرته حين يراها باكية ملتاعة ، ويعلن اليها أنها ستظفر بما تريد فسيستخفى هو أوسيموت وتستطيع أن تعود الى زوجها الأول . يعلن اليها ذلكفىصدق واخلاص ، فتجيبه هى فى صدق واخلاص أيضا أنه أخطأقصد السبيل وأنها تريد أن تعيش عيشة الراهبات لأنها فقدت بحكم الخيانة حقها فى السعادة الزوجية ، حقها فى أن تكون امرأة ، وهى تريد أن تكفر عن سيئاتها ، فتستأنف حيـــاة العذارى ، وهى تقسم أنها لن تعود الى الزوج القديم ، وهى أنها تحبه وأنها قد تعجز عن مقاومته ، ولكنها تعلمأنها ستقتل نفسها قبل أن يظفر منها هذا الزوج القديم بشىء . تقسم على ذلك فيصدقها « جيليوم » ويعدهابأنها ستحيا ، وستحيالابنها دون أن تجد فى ذلك مايعرضها للانتحار الذى هو عمل غليظ

جاف لايليق بالنساء الحسان ، ثم يودع بعضهما بعضا • تنصرف ويبقى وهو يسأل نفسه لم لايلقى بنفسه فى النهر ؟ وأنه لفي هذا التفكير اذ يقبل « مكس » فيتلقى العدوان • يهم مكس أن يتراجع فيقفه جيليوم معلنا اليه أنه قد فر أمامه مرتين • هنالك يدور حوار قصير ولكنه عنيف بين هذين الرجلين • يطلب مكس الى صاحبه أن يدعو شهوده وأن يقتتلا كما جرت بذلك العادة، فيأبى جيليوم قائلا : ان بينك وبيني حسابا يجب أن لايطلع أحد عليه • ثم يعرض عليه مايأتي : وهو أنه قد رد الى ماريان حريتها فلن تراه ولن يراها • ولكن ماريان تريد أن تعيش حرة تريد ألا ترى زوجها القديم كما أنها لن ترى زوجها الجديد • واذن فمكس بين اثنتين : اما أن يعطي على نفسه العهد أنه لن يرى هذه المرأة ولن يتتبعها بالحاحه وأثقاله واما أن يموت • أما مكس فيرفض مايعرض عليه ويعلن أنه يحب ماريان وأن ماريان تحبه ، وأنه لايستطيع أن يعرض عنها ولن يعرض عنها، وأنه لن يقضى بينه وبين صاحبه في هذه الخصومة الا الموت • فهو يدعو شهوده ولا بد أن يقتتلا ، ثم يريد أن يخرج فيمنعه جيليوم ، ويكون بينهما صراع عنيف ينتهى بهما الى النهر • فما أسرع ماتضمهما أمواجه وما أسرع ماتلتئم هذه الأمواج كأنها لم تضم شيئا •

ولا تكاد تمضى لحظات على هذا الموت حتى تسمع صـــوت ماريان تدعو ابنها وحتى تراها تدخل المسرح من ناحية ويدخل ابنها المسرح من ناحية وفي يده طاقات من الزهر ، فتضمه اليها وتمر به حيث مات زوجاها ، وتقوده الى القصر حيث تعده ليحتمل نصيبه مما تضمر الحياة من خير أو شر للاحياء •



قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي (بول هرفيو)

قد يكون هذا العنوان غريبا ، وقد لايخلو من بعض النفرة، بل قد يكون غامضا بعض الشيء • ولكن توضيحه يسير وترجمته صحيحة ، ومتى فهمت معناه وقرأت القصة أو ألممت بها فقد أحسب أنك تقره ولا تنكره •

كان للأثينيين عيد ديني يحتفلون فيه حفلة اختلف في تأويلها الفلاسفة والشعراء • كان أعضاء المدينة يصطفون على مسافة بعيدة ويبدأ أحدهم فيقتبس من النار المقدسة جذوة ينقلها مسرعاً الى من يليه ، ثم ينقلها هذا الى من بعده ،وماتزال الجذوة تنتقل فى سرعة من يد الى يد حتى تبلغ آخر الصف — وقد فسر أفلاطون و « لوكريس » هذه الحفلة الدينيه بأنها كانت رمزا لحياة الاجيال المختلفة من أبناء الانسان • وعلى هذا التفسير اتخذ صاحب القصة عنوان قصته ، فسماها شأو القبس أو تستطيع أن تقول : تنقل هذا القبس فى سرعة من يد الى يد وهو لايريد بعنوانه ولا بقصته الا أن يشرح هذه

الفكرة التى خطرت لأفلاطون ولو كريس ويثبتها فى وضوح وجلاء . فقصته فى الحقيقة فصل من فصول الفلسفة أو درس من الدروس يريد بها أن يخلبك أو يستهويك أو يؤثر فيك هذا التأثير المختلف الذى يخرجك من لذة الى ألم ومن ألم الى لذة ، ليس يريد أن يذيقك لذة الانفعال حسنا كان أم سيئا ، وانما يريد شيئا آخر ، يريد أن يقنعك بقضية من القضايا ورأى من الآراء . هو اذن لايتحدث الى قلبك ولا الى عاطفتك ، وانما يتحدث الى عقلك . ولكنه فى هذا الحديث الى عقلك لايصطنع منطق ارسطاليس ، ولا يتكلف ضروب القياس والاستقراء ، وانما يسلك سبيل العاطفه ليصل الى اقناع العقل ، أو هو يعدل عن المنطق النظرى الى منطق الحياة الواقعة ، أو هو يكشف أمامك هذه الحياة الواقعة حتى تلمس منطقها بيدك ، وحتى تقتنع حين تلمس هذا المنطق بأن قضيته صادقة وأن رأيه صحيح . وهذه القضية فى نفسها قيمة نافعة ، لواقتنع الناس بها وأحسنوا التفكير فيها لأعفوا أنفسهم من ضروب من الآلام وفنون من الغرور ، ولكانوا بمأمن من اليأس وخيبة الأمل فى كثير من الاحيان . نعم لو آمن الناس بهذه القضية لقبلوا الحياة كما هى ، لايكبرونها أكثر مما ينبغى ، ومن استطاع أن يفهم الحياة كما هى ويقبلها كما هى فهو الفيلسوف الذى يستطيع أن يريح ويستريح حقا ، ولكن الناس لن يفهموا الحياة كما هى ولن يقبلوها كما هى ، وسيظلون أبدا يفهمون الحياة كما يحبون أن تكون ، وسيظلون لهذا فى شقاء ينتقلون من رجاء الى يأس ومن فشل الى خيبة أمل .

***

بدأ الكاتب قصته كما يبدأ الخطيب خطبته أو كما يبدأ العالم فصلا من فصول العلم ، فيضع نظريته موضع البحث ثم ينفق خطبته أو فصله العلمى فى اثبات هذه النظرية ، فلنسلك سبيله ولنشرح نظريته ، وهى سهلة سائغة ليس فهمها بالعسير . نظريته هى أن حياة الاجيال الانسانية ليست الا سلسلة من التضحية المتصلة غير المنقطعة ، يضحى كل جيل من أجيال الناس بنفسه وحياته وقوته وآماله فى سبيل الجيل الذى يليه دون أن يجد من هذا الجيل شكرا أو ينال منه جزاء ، كما أنه

لم يقدم الى الجيل الذى سبقه شكرا ولم يعوض عليه جزاءحياة الأجيال الانسانية اذن هى كأمر هؤلاء اللاتينيين يوم كانوا يحتفلون بعيدهم المقدس فلا يزيد أحدهم على أن ينقل الجذوة من يده الى يد من يليه مكتفيا بعد ذلك بأن ينظر الى هـــذه الجذوة تسرع فى انتقالها من يد الى يد دون أن يستطيع شيئا أكثر من أن يصل بها عينه مشفقا عليها أن تخمد أو تسقط بين الذين يتناقلونها • نحن اذن حملة هذه الجذوة التى هى الحياة ورثناها عن الجيل الذى سبقنا ونورثها الجيل الذى يلينــا ، لا عمل لنا فى الحياة الا هذا ، ولا أمل لنا فى الحياة الا هــذا • نحن ننظر أمامنا أبدا دون أن ننظر وراءنا فى يوم من الأيام • نحن آباء بررة ، ولكننا فى الوقت نفسه أبناء عاقون ، نقف برنا على أبنائنا ولا يظفر آباؤنا منا الا بالعقوق والتقصير •

تجد هذه النظرية منك معارضة قوية ، لانها تخالفـماألفت من جهة وتخالف ماتريد من جهة أخرى ، ولانها فوق كل شىء تصدمك باظهار مافيك من نقص ، فأنت تكره أن تكون عاقا وتريد أن تكون وفيا برا ، وانت أثر تحب نفسك وتريد أن يشعر ابنك بأنه مدين لك بالحياة ، تخدع نفسك فتعتقد أنك بر بأبيك وأمك ، وتضلل نفسك فتريد أن يكون ابنك برا بك ووفيا لك • تجد هذه النظريه منك معارضة قوية ، ولكنهافى الحق صحيحة صادقة • فمهما تعارض ومهما تنكر فلن تستطيع أن تجحد شيئا واقعا وهو أنك تحب ابنك أكثر مما تحب أباك وأنك تستطيع بل تلزم نفسك ــ حين تشعر بالحاجة ــ الفناء لا فى سبيل حياة ابنك بل فى سبيل لذته وراحته ليس غير •

والكاتب يأخذك بحجة أخرى لاتخلو من دعابة ولــكنها صحيحة قوية : مابال الديانات لم تأمرك بأن تحب ابنك وأن تعطف عليه ؟ لأنها ليست فى حاجة الى هذا الأمر ، فأنت تحب ابنك وتعطف عليه بحكم الطبيعة ، وما بال الديانات تأمرك أن تكون برا بأبويك وتلح عليك فى هذا الأمر وتبسط أمامك من الرجاء مايرغبك فى البر بأبويك ، وتضع أمامك من النـــذر مايخيفك من العقوق ؟ لأنك لست برا بأبويك بحكم الطبيعــة وانما البر بالابوين خلق ينبغى أن تتكلفه وتجد فى تحصيله ، ومهما تفعل فلن توفق منه الى ماتريد •

الانسانية اذن ، بطبعها كما يقول الكاتب ، أم برة وبنت عاقة وهي تتكلف الخطوب وتتجشم الاهوال لتصف نفسها بما ليس فيها من فضيلة البر ٠

ولكنى لا أريد أن أغلو فى بسط هذه النظرية فلأنتقل بك الى مذهب الكاتب فى اثباتها . وسترى أن هذا الاثبات على صدقه وصحته لايخلو من لذة وألم يهزان العواطف هزا عنيفا ويؤثران فى النفس تأثيرا شديدا ٠

***

مدام « فونتيه » عجوز أرملة ، فقدت زوجها منذ عهد طويل وكانت تحبه حبا شديدا ، فهي وفية له مقيمة على عهده حتى أنها لتقرأ الصحف التى كان يقرأها لها ، لا لأنها تحب هذه الصحف أو تعنى بما فيها ، بل لأنها تريد أن تتلمس بعينيها فى هذه الاحرف المكتوبة أمامها صوت زوجها العزيز عليها ٠ هى تحب زوجها ، وهى غنية قد ترك لها هذا الزوج ثروة لابأس بها ، وترك لها ابنة هى « سابين ريفيل » وهى امرأة نصف ، فيها جمال وسحر ، وهى أرملة كأمها ، تزوجت من شاب غني ، ولكن حظ هذا الشاب كان سيئا فنزلت به المحنة بعد المحنة ، ثم مات وترك امرأته فقيرةمعدمة لولا ثروة أبويها ٠ ولم يتركها وحدها بل ترك لها ابنة هى« مارى جان » وهى فتاة جميلة خلابة حسنة الخلق قوية النفس في السابعة عشرة من عمرها ، ولكن فيها خلالا تفوق سنها رغبة فى الجد وقدرة على الاحتمال ٠

أمامك الآن ثلاث نساء يمثلن ثلاثة أجيال ! أمامك العجوز تحب ابنتها ولا تحيا الا لها ٠ وأمامك المرأة الشابة يخيل اليها أنها لاتفرق بين أمها وبنتها فى الحب ٠ ثم أمامك هذه الفتاة لاتفكر في شيء من هذا وانما هي أمل ورجاء ، هى زهرةتبسم للحياة وقد بدأت شمس الحياة تشرق عليها ، فهى تستجمع كل مافيها من قوة وشباب لتستمتع بضوء هذه الشمس المشرقة ٠ وهى تحب شابا اسمه « ديديه مارافون » حسن الصورة قوى الارادة مؤمن بقدرته على العمل وحسن حظه فى الحياة ٠أحبته الفتاة وأحبها وتعاهدا على الزواج ، واختارت الفتاة عيدميلادها لتظهر أمها على هذا الحب وعلى ماتعقد به من أمل ٠

فاذا كان الفصل الأول فنحن في بيت هؤلاء النسوة وهن يحتفلن بعيد هذه الفتاة ، وقد دعون الى هذا الحفل طائفة من أصدقائهن فيهم رجال وفيهم نساء ، فيهم بنوع خاص امرأة جميلة مفتونة بجمالها حريصة على أن تستمتع بحياتها ،لاتبخل من لذات الحياة على نفسها بشيء ، ولها ابنةشابة تهملها اهمالا، أو قل انها تضحي بشبابها في سبيل لذاتها الخاصة ، أو قل انها تنساها نسيانا تاما حتى أنها لتداعب فتى تحبه ابنتهـــا ويحب هو هذه الفتاة . وحتى أنها لتكلف ابنتها الشابة أن تصلح من شأنها ، وترتب زينتها ! وفيهم امرأة أخرى جميلة ولكنها تضحي بجمالها وحياتها ولدتها وبزوجها وقوته ولذته في سبيل ابنتها الفتاة الجميلة التي استشعرت حب أبويهـا فأسرفت في الذل والتحـــكم حتى انهـــا لتكلفهما مايطيقان ومالا يطيقان كأنهما لايعيشان الا لها ، فاذا دخلت « سابين » رأت هذا المنظر العجيب ، رأت فتاة قد جثت على الأرض تصلح ثوب أمها ، ورأت أما قد جثت على الأرض تصلح زينة ابنتها ، فاذا خرج هؤلاء الناس وخلت « سابين » الى صديق لها هو « مارافون » تحدثت اليه في أمر هؤلاء واسرافهن ، هذه تضحي بابنتها ، وهذه تضحي بأبويها ، فيشرح لها صاحبها هـــذه النظرية التي بسطتها لك في أول هذا الفصل يزعم أن الأم التي تضحي بابنتها انما هي استثناء يثبت القاعدة ، وأن الفتاة التي تضحي بأبويها انما هي المثال الصادق للانسانية العامة ــ تنكر سابين هذه النظرية انكارا شديدا ولكن حياتها كلهـــا ستقنعها بأنها كانت مخطئة في هذا الانكار ، ذلك أن « سابين» تحب رجلا أمريكيا غنيا عرفها منذ الصبا ، تحبه حبـــا جما ولا تطمع الا في أن تكون له زوجا ، وهذا الرجل يحبها ، وقد ألح عليها في الزواج ولكنها رفضت دون أن تبين لهذا الرفض سببا ، فاذا كانت هذه الليلة أقبل هذا الرجل الامريكي واسمه « ستاتجي » وأعلن اليها أنه مسافر الى حيث لايعود مسافر الى أمريكا ، معتزم أن يجد فيها من العمل مايجعل العودة عليــه أمرا مستحيلا ، تنكر ذلك وتحاول أن تحمله على العدول عنه وتنبئه بأنها تحبه وتطمع في أن تكون زوجه ، ولـكن شيئا واحدا يمنعها من ذلك وهو ابنتها ، تريد ألا تتزوج ولا تغير

من حياتها شيئا قبل أن تجد لابنتها زوجا ، فان ثروتهامحدودة والناس يعلمون من أمرها مايعلمون ، فاذا تزوجت فقد تصبح أما وقد توجد لابنتها شريكا فى هذه الثروة فينصرف الناس عن هذه الفتاة لقلة ثروتها ، وهى تريد أن تكون ابنتها سعيدة وأن تجد زوجا كفؤا ، وهى تأبى أن تكون سعادتها الخاصـــة عقبة فى سبيل هذه الفتاة . يفهم الرجل هذا كله ويبـــذل مايستطيع من قوة ليملأها أمنا وطمأنينه على مستقبل الفتاة وثروتها ، فهو غنى ومهما يرزق من ولد فلن تخشى هذهالفتاة على ثروتها الحاضرة . ولكن « سابين » تأبى وتلح فى الاباءحتى ينصرف عنها الرجل ويمضى الى حيث لايعود . فقد بدأت اذن بتضحية سعادتها فى سبيل ابنتها . ولا يكاد هـــذا الرجل ينصرف حتى تقبل الفتاة فتنبىء أمها بحبها وتطلب منها أن تقر هذا الزواج . تتمنع الأم لأنها لم تستمتع بعد بابنتهـا ولانها تخشى المستقبل ولكن حب الفتاة أقوى من تمنع الأم . فما أسرع ماتنتصر عليه .

***

فاذا كان الفصل الثانى رأيت الفتاة قد تزوجت من صاحبها وهما يعيشان وحدهما والفتاة سعيدة كل السعادة ، وتفهم من حديثها مع صاحبة لها أن أمها ليست سعيدة وأنها قد شقيت كل الشقاء حين اعتزم الزوجان أن يسكنا وحدهما . ثم يقبل زوجها كئيبا كاسف البال ، فما تزال به تسليه وتعزيه وهى تجهل مابه ولا تظن الا أنه متعب لـكثرة العمل . ثم تتركه ويأتى أبوه فيظهر لك أن الفتى سىء الحظ فى عمله وأنه مشرف على الافلاس وأنه قد أخفى هذا كله على زوجه ضنا براحتهـا وأملها فى الحياة ، ولكنه قد بعث أباه يتوســـل الى أم زوجه وجدتها فى أن تقرضاه مقدارا ضخما من المال يصلح به من أمره ، فذهب الرجـــل وقص الأمر على هاتين المرأتين وهما مقبلتان . فينصرف الشيخ ليظهر زوج ابنه على جلية الأمر ، وتقبل « سابين » . فاذا قص عليها صهرها جلية أمره وأنبأها بأنه لايستطيع أن يحتمل الافلاس ولا أن يعرض زوجه لآلام هذا الافلاس وما يتبعه من الأعمال القضائية ولا أن يعرضها للفقر والفاقة ، وأنه يؤثر الموت على بعض هذا جزعت الأم

وأعلنت الى صهرها أنها ستعينه · ولكنها عاجزة عن معونته فهي لاتملك شيئا وانما الثروة كلها ملك العجوز · فستتوسل الى العجوز اذن في أن تقرضه هذا المال · ينصرف الفتى وتقبل العجوز ، وهنا موقف من أشد المواقف تأثيرا في النفس !تعرض « سابين » الأمر على أمها وتطلب اليها المعونة ، ولكن العجوز تأبى كل الاباء · تأبى لأنها قد عرفت عبث الاصهار بأموال الاحماء وتذكر ابنتها بما كان من أمر زوجها ، وأنه أضاع على الأسرة أكثر من نصف مليون فرنك ، ولكن « سابين » تلح على أمها ، وتبالغ في الالحاح ، ثم تغلظ القول حتى تخرج عن طور الاجلال لأمها ، فتشعر بأن هذه المرأة قد أخذت تضحي بأمها في سبيل ابنتها ، تلح فلاتزداد العجوز إلا اصرارا على الرفض · ثم تعلن العجوز الى ابنتها أنها لن تستطيع أن تنفق شيئا لأنها عاهدت زوجها وهو يموت على ألا تعرض مابقى من الثروة لخطر قليل أو كثير ، ثم تنصرف وتترك ابنتها في شيء من الذهول يشبه اليأس · وتأتى بعد ذلك مارى جان ، فاذا عرفت رفض جدتها أخذها شيء من الجزع عظيم ، وظلت تتوسل الى أمها في أن تخلص زوجها من هذه الضائقة · وتشعر بأن هذه الفتاة لاتفكر الا في زوجها ولا تنظر الى أمها الا من حيث هي وسيلة ممكنة لتفريج الكربة عن هذا الزوج ولكنها لاتشعر بذلك ولا تحسه ، فتبالغ فيه حتى تعرض على أمها أن تكتب الى صاحبها الأمريكي القديم تسأله هذا المال · تثور الأم لهذا العرض وتأباه ، لأن فيه امتهانا لكرامتها ولأنها لاتستطيع أن تكتب الى هذا الرجل سائلة مستجدية بعد أن أساءت اليه ورفضت الاقتران به ، ولكن ابنتها جزعة والهة وهي لاتحتمل جزع ابنتها ، فما أسرع ماتجيب الى الكتابة ، وفي نفسها مع ذلك شيء من الأمل ضئيل ، فهي ترجو أن يعيد كتابها في نفس صاحبها ذكرى الحب القديم فينجد صهرها من جهة ويفكر في الزواج من جهة أخرى ·

فأنت ترى هذه المرأة تسيء لأول مرة الى أمها في سبيل ابنتها ، ثم تضحي بكرامتها الخاصة في سبيل ابنتها أيضا ،

وهي مع ذلك لاتشعر بما تفعل لأنها تفعل شيئا طبيعيا ·

***

فاذا كان الفصل الثالث فقد بلغت الأزمة أقصاها وانتهى الخطب الى غايته · لم يجب الامريكى ولم تغير العجوز رأيهـا فأعلن افلاس الفتى وحجز على مابقى له من ثروة ولامرأته من متاع ، وهو يعيش مع امرأته فى بيت العجوز ترزقهموتعولهم فى غير ضجر ولا من ، لأنها لاتحب الثروة للثروة ، وانماتريد أن تكون هذه الثروة موئلا لابنتها وذويها لاينالهـــا العبث · هى اذن تضحى يصهرها فى سبيل ابنتها ·

ولكن لهذا الصهر بقية من أمل فقد يستطيع أن يتفق مع الدائنين فيسترد شيئا من شرفه التجارى ، وهـــو فى ذلك محتاج الى مائة ألف فرنك يرضى بها هؤلاء الدائنين ، والعجوز وحدها تستطيع أن تقرضه هذا المقدار ، ولكن العجوز تأبى بعد خصام عنيف · وكانت الفتاة قد احتملت هذه الخطوب كلها فى شجاعة وجلد واشتركت فى جهاد عنيف لتمنعزوجها من الانتحار · فلما رأت جدتها تغلو فى الاباء حتى كادتتقضى على كل أمل لزوجها الذى تحبه خانتها القوة وأعوزها الجلد فأصابها اغماء ، ودعى الطبيب فأنبأ بأنها فى خطر وان مصدر هذا الخطر اضطراب الاعصاب ·

هنا تخرج « سابين » عن طورها فلا تفكر الا فى شيء واحد هو انقاذ ابنتها من الموت · وقد ضرب الدائنون للفتى موعدا ظهر اليوم الذى نحن فيه ، ونحن فى الساعة العاشرة صباحاء والفتى يتحدث الى أبيه ينبئه بهذا كله ، ولكنه ينبئه أيضا بأن الله قد أراد انقاذ الفتاة من الموت ، فقد اقبلت أمهافرحةمبتهجة وأنبأتهما بأنها قد وجدت المال وأنها ذاهبة الى المصرفلقبضه، ثم يأتى الطبيب وينصرف مع الفتى لعيادة المريضة ، وتقبـل سابين فى ذهول يشبه الجنون ، فلا يكاد الشيخ يستنبئها حتى تنبئه أنها رأت ابنتها مشرفة على الموت فاقترفت الاثموارتكبت الجريمة ، سرقت أمها وأمها نائمة ، سرقت طائفة من الاوراق المالية وأمضت بقية الليل تقلد امضاء أمهاحتى أجادتالتقليد· فلما كان الصباح أنبأت ابنتها بأنها وجدت المال ، وذهبتالى المصرف فلم يشك أحد فى صدقها ودفع اليها المال فقبضته ،

ولكنها أرادت أن تمضي الوصل فكتبت اسم أمها مكان اسمها الخاص ، وفطن لذلك صاحب المصرف فاسترد المال ، ولولا صلة سابقة بينه وبين الأسرة لألقى بها في أعماق السجون • وهي مع ذلك مضطرة الى أن تكذب على ابنتها ، فلو قد أنبأتها بالحق لصعقها النبأ وقضى عليها ثم يعود الطبيب فينبيء بأن الفتاة مازالت في خطر وبأن العناية القوية قد تنقذها ، ولا بد من نقلها من باريس الى جبال الألب لتقضي فيها الصيف ، ولا بد من العناية بأعصابها • ولكن الشدة لم تبلغ أقصاها بعد ، فالطبيب يعلن الى سابين أنها اذا وافقت ابنتها فلا بد من أن تترك أمها في باريس لأن أمها تشكو مرض القلب ، وهي اذن لاتستطيع أن تعيش في الاماكن المرتفعة •

ينصرف الطبيب وتقبل العجوز ، فلا تكاد تعلم بأن ابنتها تريد السفر حتى تعلن أنها سترافقها فيه • تأبى سابين ، وتلح العجوز وحجتها ناهضة ، فسابين لاتريد أن تفارق ابنتها، وهي أيضا لاتستطيع أن تفارق ابنتها • فاما أن ترافقها في السفر ، واما أن تبقى معها في باريس وأن تترك الفتاة تسافر مع زوجها ، وهي تفترض ذلك وتنذر بقطع النفقة عنهم جميعا اذا لم تجب اليه • ثم تنصرف مغضبة ، وتقبل الفتاة ومعها زوجها وفيهما شيء من الأمل يحيي نفس هذه المريضه • ولا يكادون يتحدثون ولا تكاد الفتاة تشعر بشيء من التردد في صوت أمها حتى يعاودها الاغماء ، فاذا أفاقت أعلنت اليها أمها أن الأزمة قد انحلت وأنها تحتمل تبعة ذلك وأن زوجها يستطيع أن يطلب الى الدائنين أجلا فلا ينقضي هذا الأجل حتى تكون قد حصلت على المال • ثم تنبيء ابنتها بأنها ستبقى في باريس مع أمها العجوز ، فتأبى الفتاة وتتوسل الى أمها وتلح في التوسل ، ويكاد يعاودها الاغماء ، فلا تستطيع سابين الا أن تجيبها الى ماتريد • هي اذن قد ضحت بأمها تضحية أخيرة فستحملها الى حيث تلقى الموت ، وهذا كله في سبيل ابنتها •

***

فاذا كان الفصل الرابع فالقوم جميعا في ناحية من جبال « الألب » ، وقد جعلت آثار هذا الجو تظهر في العجوز فيلاحظ

ضعفها واضطرابها ، ولكن هذا الفصل هوموضع العظةوموضع اقتناع « سابين » بالنظرية التي بسطهاالكاتبفي أول القصة. ذلك أن صاحبها الامريكي يلقاها في هذه الناحية ، يلقاها لأن كتابها اليه كان لم يصل اليه أمريكا وقد وصل اليه هناصباح هذا اليوم ، ثم بحث عنها فعلم أنها تقيم في هـــذا الفندق ، فأسرع اليها معتذرا مقدما ماطلبت اليه من معونه . تشكره « سابين » ثم لاتلبث أن ينالها شيء من اليأسعظيملأن صاحبها ينبئها بأنه تزوج ورزق غلاما وفقد هذا الغلام ، فهو لايستطيع أن يعيش في البيت الذي فقد فيه هذا الغلام وامرأته كذلك لاتحتمل هذا البيت . ولهذا ترك أمريكا الى فرنسا . يكاد يصعقها نبأ الزواج ، ولكن قصة هذا الطفل تنسيها يأســها فتفكر في ابنتها وما تعرضت له من خطر ، وتعزي صاحبهـا ويشترك هذان العاشقان في عاطفة واحدة هي تلك التيتفنى الآباء في الأبناء . ويقدم الصهر فيقدم اليهالامريكيمعونته ، ثم تتصرف سابين ويقترح الامريكي على هذا الفتى أن يذهب الى أمريكا ليعمل في أرضه حيث يصلح من أمره ويصل من الثروة والغنى الى مايريد في زمن قصـــير . ولا تكاد امرأته تسمع هذا كله حتى تغتبط به وتبتهج له وتشجع زوجهـا ، وتنبيء بذلك أمها فتغتبط به أيضا ولكنها تنبئها بأنهاسترافق زوجها في السفر الى أمريكا . هنا تجزع الأم جزعا شديدا وتتوسل الى ابنتها في أن تبقى ، ولكن الفتاة ترفض فيغلظة أن تترك زوجها لتبقى مع أمها . تضرع الأم وتقسو الفتاة ، ثم يثور ثائر الأم فتذكر صهرها بالمكروه وتنذرها ابنتهـــا فلا تحفل بالنذير . هنا تعلن الفتاة سخطها وتنتهر أمها في عنف ، ثم تتركها الى حيث لاتعود ، وتدعو الأم ابنتهـــا فلا تجيبها فتلتفت وراءها مستغيثة بأمها العجوز فتقبل العجوز ، وما تكاد تسمع النبأ وترى ابنتها تبكي وتعول حتى تعلن الى ابنتها أنها تنزل عن ثروتهاكلها لتحول بينهاوبين هذا العذاب . فليبق الزوجان اذن ، ولكن الزوجين لن يبقيا ، فلقـــد فتح

الامريكى أمامهما بابا من الأمل تحقر دونه هذه الثروة • تبكى سابين وتشعر الآن بأنها قد ضحت بأمها ونفسها وكرامتها ، فى سبيل ابنتها ، وأن ابنتها لم تحفل بشىء من ذلك بل ضحت به كله لتسافر مع زوجها ، تشعر بهذا فتستغفر أمها ،وتشعر بأن أمها وحدها هى التى أحبتها ، ولكن أمهاقد سقطت ! فهى لاتجيب ، وتلتفت سابين فاذا نوبة من مرض القلب قد أصابت العجوز فقضت عليها • تنظر الى ذلك فتجزع وتصيح : «قتلت أمى فى سبيل ابنتى » ! ••



قصة تمثيليةللكاتب الفرنسي « بول هرفيو »

لعلك تذكر قصة التيه وتذكر موقف تلك المرأة بين زوجها القديم والجديد وبين ابنها ، وما نشأ عن هذا الموقف من مصاعب وعقاب لم يكن الى تذليلها من سبيل . في تلك القصة طلب الطلاق فظفرت به المرأة التي طلبته ، ولكنها لم تسعد بالطلاق بل كان كل مصدر شقائها ، ولم يسعد بالطلاق زوجها القديم ، ولم يسعد به زوجها الجديد وانما لقيا منه ضروبا من المحن والآلام انتهت بهما الى الموت ، ولم يسعد الطفل بهذا الطلاق وانما شقي الشقاء كله ، تنازعه رجلان ثم أصبح يتيما . أبيح الطلاق اذن ولكنه لم يستطع أن يضمن الخير للزوجين اللذين ساءت بينهما العشرة فاضطرا الى أن يفترقا .

وفي هذه القصة التي نعرض لها اليوم نظرية أخرى تناقض

هذه النظرية مناقضة تامة ، ولكنها مع ذلك صحيحه صادقة • نظرية تثبت أن حظر الطلاق أو عسره لايضمنان الخير ولا يوصلان الى السعادة أيضا ، وانما قد يستلزمان من الشقاء والآلام مثل ماتستلزمه اباحة الطلاق أو يسره • واذن فالطلاق لايضمن الخير ، وحظر الطلاق لايضمن الخير ، والانسانيه مضطرة الى أن تحمل الحياة على مافيها من خير وشر دون أن تجـد السبيل الواضحة الى اتقاء الشر أو الاستزادة من الخير ، هي مضطرة الى أن تحتمل الحياة كما هي ، والى أن تؤمن بأن في هذه الحياة قوة قاهرة ليست هناك سبيل الى أن تحملهـا على ماتريد فتجعلها خيرة أبدا أو تطبعها أن تكون شريرة أبدا • ومهما نشرع من قانون ، ومهما نبتدع من حيلة فلن نصل الى اتقاء الشر ولن نجعل الحياة خيرا خالصا • وهذه القوة القـاهرة ليست شيئا مستقلا بنفسه منفصلا عن أنفسنا مباينا لطبيعتنا،وانما هي طبيعتنا نفسها ، هي هذه الطبيعة التي تجهل نفسها أو تنكر نفسها فيضطرها هذا الجهـل الى أن تقسم على مالا تعـلم ، ويضطرها الانكار الى أن تتورط فيما لاينبغي أن تتورط فيـه ستظل هذه الطبيعة على ماهي عليه من تورط في جهل نفسها حينا وفي انكار نفسها حينا وفي تضليل نفسها حينا آخر ، ستظل كذلك فتسعد مرة وتشقى مرة أخرى ، ستظل كذلك لأنها ضعيفة بفطرتها ليست معصومة من الجهل ولا من الخطأ ولا من الضلال • ليحظر الطلاق أو ليبح فليس الطلاق مصدر سعادة ولا مصدر شقاء ، وانما النفس الانسانية وحدها هي مصدر السعادة ومصدر الشقاء • الى هذه النظرية يرمي الكاتب في قصته هذه • والى تلك النظريه رمي الكاتب في قصته تلك ، وكلتا النظريتين صحيحة ،واذن فالكاتب من المتشائمين، أو قل انه من الشاكين ، والشك والتشاؤم قديحدثان في النفس الانسانية أثرا واحدا ، وهو سوء الظن بالحياة وقلة الأمل في السعادة • غير أن الشك أهون احتمالا من التشاؤم فهو لايخلو من ابتسامة قد تكون مرة ولكنها ابتسـامة على كل حال ، ولا يخلو من سخرية قد تكون مؤلمة ولكنها تؤلمك وتضحكك في وقت واحد ، وقد يكون من الخير أن تألم ضاحكا لا أن تألم باكيا• وفي الحق أن هذا الكاتب النابغة يؤثر الشك على اليقين ، وهو

يسخر من الحياة الاجتماعية وما استحدث فيها من نظم وشرائع ، هو شاك وهو مستهزئ ، ولكن شكه واستهزاءه لا يتناولان كل شيء ، وانما يتناولان غرور الانسان وثقته بنفسه وايمانه بالرقي وبأن هذا الرقي قادر على أن يصلح من حاله ويخفف من آلامه . يشك الكاتب في هذا كله ويسخر الكاتب من هذا كله ، ويضع هذه القصص التمثيلية المختلفة يبين بها هذا الشك ويؤيد بها هذه السخرية ، ويثبت للانسان في طائفة من أطواره المختلفة أنه يجهل نفسه جهلا تاما ، وهو يجهلها أشد الجهل حين يعتقد أنه يعلمها أحسن العلم ، ولكن ! ماغاية الكاتب من هذه القصص ؟ وما الذي يريد أن يصل اليه حين يضع يد الانسان على شقاء الانسان ويبين للانسان أنه عاجز مهما يفعل ومهما يبالغ في الحيلة عن أن يحقق السعادة ويظفر بها كما يحب ويرضى ؟ ليس للكاتب حظ من هذه القسوة الشيطانية التي تبتهج وتلتذ حين ترى الناس يشقون ويشعرون بأنهم أشقياء ويؤمنون بأن ليس لهم من هذا الشقاء مخرج ، ليس للكاتب حظ من هذه القسوة الشيطانية التي تبتهج وتلتذ حين ترى الناس بائسين ، وأكبر ظني أن الكاتب انما يرمي بهذه القصص كلها الى شيئين اثنين كلاهما خير : الأول أن يشعر الانسان بأنه مغرور ، وبأنه مسرف في الايمان بقوته وعقله وشرائعه وقدرته على اصلاح أمره ، واذا شعر الانسان بأنه مغرور مسرف فقد يكون من الخير أن يخفف من هذا الغرور ويقصد بعد اسراف . الثاني أن هذا الغرور وهذا الاسراف يغرسان في نفس الانسان آراء شديدة قاسية خطرة يتخذها مقياسا للحياة فتنغص عليه الحياة ، ويؤمن بأن الطلاق مباح وبأن في اباحته الخير فيسرف في الطلاق ويبالغ في الاستمتاع بحقه منه ، فلا يجر ذلك عليه الا شقاء وألما ، ولو أنه فكر وروى واقتصد لاستطاع أن يتقي هذا الالم وهذا الشقاء ويؤمن بأن الطلاق محظور وأن الخير في حظر الطلاق فيتشدد في ذلك ويأبى الطلاق على نفسه وعلى الناس فلا يجر عليه هذا الاباء الا شقاء وبؤسا . ولو أنه لان ولم يتشدد ، ولو أنه اقتصد ولم يسرف لاستطاع أن يتقي الشقاء والبؤس وأن يعصم منهما نفسه وغيره أيضا . الى هذين الشيئين يرمي الكاتب فيما أظن ،

واذن فهو ليس متشائما كل التشاؤم ، ليس يائسا من الخير مادام يرى هناك سبيلا الى الخير هى التواضع والاقتصاد . وهو ليس شاكا أو ليس مسرفا فى الشك مادام يرى أن هناك خيرا ممكنا وأن هناك شرا واقعا وأن هناك سبيلا الى اتقاء هذا الشر الواقع وتحقيق هذا الخير الممكن . هو اذن لايتخذ الشك المطلق ولا التشاؤم المطلق مذهبا ولا عقيدة ، وانما يتخذهما منهجا من مناهج البحث ووسيلة من وسائل التحليل النفسى والاجتماعى وقد رأينا وسنرى ان هذا المنهج قد يؤدى الى النتائج الصحيحة المعقولة . على أن الكاتب حين ينهج فى بحثه وتحليله منهج الشك وسوء الظن لايجاوز العصر الذى كان يعيش فيه ، بل هو لايعدو الروح العلمى الذى انتصر فى هذا العصر الحديث والذى يعتمد قبل كل شيء على أن الحق ليس مطلقا . وانما هو اضافى ، وعلى أن الشك هو الوسيلة المعقولة الى اليقين الاضافى وعلى أن التواضع العقلى وحده هو الحلة التى تليق بالعلماء .

***

« ايرين فرجان » امرأة فى الثامنة والعشرين من عمرها ، بارعة الجمال ، متوقدة الذكاء ، حادة المزاج ، عصبية تشعر بكل شيء شعورا قويا ، لاتعرف الهدوء فى شيء ، حياتها اضطراب متصل ، هى جذوة ملتهبة ولكنها تأكل نفسها ، غنية تزوجت من رجل كغيره من الناس ، وربما كان مسرفا فى الهدوء وجمود الطبع وفتور الشعور ، وربما كان بليدا ، وهو على كل حال رجل كغيره من الناس ، مؤمن ايمانا قويا بنظام الجماعة التى يعيش فيها ، يرى أن كل خروج على هذا النظام أو مجاوزة للمألوف منه اثم لاينبغى أن يغتفر ولا ينبغى أن يتورط فيه الرجل الذى يريد أن يعيش عيشة سهلة محترمة . وهو ضيق العقل محدود الذكاء ، قد اتخذ من الحياة الاجتماعية التى حوله قيودا تقيد عقله وتفكيره ، هو نقيض امرأته الا أنه غنى مثلها . وقد تزوج امرأته هذه وهى فى الثامنة عشرة من عمرها ، لم يكن لها اختيار فى هذا الزوج وانما تأثرت فيه بأختها « بولين » التى كانت لها عليها سلطة أمها والتى كانت قد تزوجت من رجل يشبه هذا الرجل شبها قويا ، فقبلت الحياة معه واطمأنت

وقدرت أن اختها ستكون مثلها راضية مطمئنة ، ولكن الحياة أظهرت ان الاختين لاتتفقان فى المزاج ولا فى التصور ولا فى الحكم على الاشياء . وان ماترضاه « بولين » وتطمئن اليه قد تكرهه « ايرين » وتنفر منه أشد النفور .

تزوجت « ايرين » من زوجها غير مختارة ، ولو أن لها الخيار أو لو أن لها قدرة على أن تفكر وتقارن وتحكم لتزوجت من شاب آخر « مشيل دافرنييه » الذى كان جارها وكان صديق طفولتها وصباها . ولكنها لم تكن تقدر الحب يومئذ ولا تعرفه فتزوجت من زوجها ، وأتم الفتى دراسته ثم شعر بأنه لايستطيع الحياة فى باريس فسافر الى بلاد اليونان والتحق بالمدرسة الفرنسية فى أثينا ، واشتغل هناك بالبحث عن الآثار زمنا ثم عاد الى باريس وقد صلح أمره وأصبح ذا مكانه فى الجامعة وعادت الصلة بينه وبين « ايرين » .

***

فاذا كان الفصل الأول فقد مضى على هذا الزواج عشر سنين ، وقد انتهى الأمر بين الزوجين الى فساد ليس بعده فساد « فايرين » تغاضب زوجها مغاضبة متصلة ، لاتستطيع أن تحتمله ولا أن تطمئن الى جواره ، بل يكفى أن تراه لتعبس ، وأن تشعر بأنه منصرف لتفرح . وقد جلست اليها أختها فى هذه الليلة بعد عشاء حضره صديق صباها ، وأخذت أختها تتحدث اليها تريد أن تصرفها عما هى فيه من مغاضبة لزوجها وتقنعها بأن ترضى ما قسم لها من الحظ ، ولكنها لاتجد منها الا اباء ونفورا لأنها لاتستطيع أن تجد شيئا ولو قليلا يوجد بينها وبين زوجها صلة ما . هما مختلفان فى الطبع ، مختلفان فى المزاج ، مختلفان فى العاطفة ، بل قل ان « ايرين » ليست الا عاطفة متوقدة وان زوجها يخلو من العاطفة خلوا تاما . هى تبغض زوجها فاذا سئلت عن مصدر هذا البغض أجابت : أبغضه لأنه لايستطيع أن يجعلنى أحبه ، وأبغضه لأنه لايستطيع أن يبعث فى نفسى عاطفة ما حتى عاطفة الاشفاق عليه ، وأبغضه لأن الصلة بينى وبينه ليست الا هذه الصلة الممقوتة صلة السيد بالعبد ، فهو يعتقد أنه مولاى ، وهو مقتنع بأنه محق فى كل شىء ، يصبح وقد اعتقد بأنه سيكون محقا حتى يمسى ،

محق حين يخالف الخدم ، محق حين يخالف الناس ، محق حين يخالف امرأته ، محق في كل شيء ومع كل انسان . ثم تنصرف لتصلح من أمرها ويأتي الزوج فتتحدث اليه « بولين » فيما بينه وبين زوجه من خلاف فاذا هو يرى الخلاف ويشعر به ، ولكنه لايفهمه لأنه مطمئن أمام ضميره ، يعتقد أنه قد وفى بعقد الزواج وضمن لامرأته حياة صالحة منظمة فيجب عليها أن تضمن له حياة كحياة غيره من الناس ، وهو لايطلب شيئا غير هذا لأنه لايفهم شيئا غير هذا ، وهو لم يتغير وانما امرأته هي التي تغيرت فيجب عليها أن تعود كما كانت وأن تشعر بواجب الزوجية وتؤدي هذا الواجب كما ينبغي .

يظهر لك أن التناقض بين هاتين الطبيعتين شديد ، وأن ليس لما بينهما من الخلاف حل الا أن يفترقا أو أن يكون أحدهما من القوة بحيث يستطيع أن يرغم الآخر على الخضوع لسلطانه وعلى أن يكون له أسيرا . ينصرف الزوج ويأتي « ميشيل » الصديق القديم ومعه زوج « بولين » واسمه « فرنان فالانتون » وهما يتحدثان في أمر الزواج فيأبى ميشيل أن يتزوج ، لأنه يعتقد أن الزواج شيء لاينبغي أن يختاره الانسان وانما ينبغي أن يخضع له ، فالانسان لايولد لأنه أراد أن يولد ، ولا يموت لأنه أراد أن يموت ، وانما يولد ويموت لأن الطبيعه أرادت ذلك ، فيجب أن يتزوج لا لأنه أراد أن يتزوج بل لأن الطبيعة أكرهته على أن يتزوج لأنها ملأت قلبه حبا وملأت قلبا آخر حبا ، فيضطر هذان القلبان الى أن يقترنا . هذا وحده هو الزواج المعقول الذي تقره الطبيعة وترضاه . والناس قد يكرهون الطبيعة على مالاتريد أحيانا فيتزوجون في غير حب ، ولكن الطبيعة منتصرة أبدا فهي ترغم الناس على أن يحبوا ، فاذا اقترن اثنان دون أن يحب أحدهما الآخر فاما أن تنتهي العشرة بهما الى الحب فتنتصر الطبيعة ، واما أن تنتهي العشرة بهما الى البغض فينصرف كل منهما الى الشخص الذي كان ينبغي أن يحبه وكان ينبغي أن يتزوج منه ، وتنتصر الطبيعة أيضا .

يبسط الفتى هذه النظرية فتطمئن اليها « ايرين » لأنها

راضية بحظها في الحياة ، ولهذا تسأله في شيء من السخرية : اتعلمت هذا في المدرسة الفرنسية في أثينا ؟ كلا ! ياسيدتي وانما تعلمته في الحياة ٠

ينصرف الزوجان وقد أعلن اليهما ميشيل أنه مستأنف سفره الى آسيا الصغرى لأنه كلف البحث عن الآثار فيها ، فاذا خلا الى صاحبته سألته عن هذا السفر ، فلا تلبث أن تتبين أن مصدره الحب فهو يحبها ويعلم أن ليس له عليها سبيل ، وأنه لايستطيع الحياة في باريس مع هذا الحرمان ، ولكنها أيضا تحبه ولا تفهم أن يفترق المحبان مهما يحتملا من الخطوب ، فكل شيء أهون من الفراق ٠٠ وهي تلح عليه في أن يبقى ليكون لها أملا وعونا على احتمال الحياة ٠ هو يريد ذلك، ولكنه لايستطيعه لأنه شديد الغيرة يؤذيه أن يرى زوجها وأن يفكر فيما بينه وبينها من صلة الزواج ٠ هنا تعده بما يهدىء غيرته، تعده بأنها لن تكون لزوجها أبدا ، وأنها ستستأنف حياة العذارى ، تعد وتقسم ، فيطمئن وينصرف وقد وعد بالبقاء ٠

تلبث وحدها حينا ، ثم يعود زوجها فيدخل دون أن تشعر بعودته ، ولكنه قد عاد لطيفا ظريفا فهو يتملقها ويتحبب اليها، ويريد أن يخاصرها وأن يرافقها الى غرفتها ، فتدفعه دفعا شديدا ، ثم تفلت منه الى حيث تستخفي وتوصد من ورائها الباب ، فينطلق لسانه مغضبا بهذه الجملة : « ستدفعين ثمن هذا » ٠

***

فاذا كان الفصل الثاني فقد مضت أشهر على هذا الموقف وازداد الأمر فسادا بين الزوجين ، انقطعت بينهما كل صلة حتى استيأس الرجل وظن بامرأته المرض أو الجنون فأزمع أن ينقلها من باريس الى الريف ، وأقبل يعلن اليها ذلك على أنه أمر لايقبل المناقشة ولا الجدال ، ثم يتركها لتفكر ، ولكنها لاتريد أن تفكر ولا تريد أن تأتمر ، وانما تريد أن تفارق زوجها، تفارقه بالطلاق ان رضي الطلاق ، وبالموت ان رفض الطلاق ٠

وتأتي أختها فلا تبلغ من تهدئتها شيئا وانما تقتنع بوجوب الطلاق وتأخذ نفسها بالسعي فيه ، تذهب لتلقى الزوج وتتحدث اليه في الطلاق ، ويأتي ميشيل فاذا هو لايطيق صبرا على هذه

الحال ، واذا هو قد اعتزم السفر من جديد ، فتضرع اليه في أن يبقى ، وتنبئه بأنها جادة في الطلاق وأنها ستظفر به وستكون له زوجا ، وان ذلك قد يتقرر الآن ، فلينتظر ولينتظر في مكان قريب لتستطيع أن تنبئه النبأ بعد حين .

ينصرف الفتى وقد تمت بينهما الخطبة ، وتأتي أختها فتنبئها بأن زوجها يرفض الطلاق ، ويأتي الزوج نفسه فيعلن اليها في عنف وشدة أنه لن يطلقها مهما تفعل ، وان القانون يؤيده في ذلك ، فهو لم يقترف اثما ولم يسيء الى زوجه ، وانما أدى واجبه كما ينبغي ، واذ كان قد أدى واجبه فهو يحتفظ بحقه ، وبحقه كاملا ، لايريد أن يطلق ، ولن يطلق مهما تتكلف زوجه من حيلة أو نذير .

وفي الحق أن زوجه تتكلف الحيلة فتضرع وتستعطف ، ثم تنذر باقتراف الآثام ، ثم تضرع وتستعطف فلا تجد منه الا اباء ورفضا . يتركها وقد أعلن اليها اصراره على أن ينقلها من باريس ، يتركها وقد ملكها الغيظ ثم الهلع ثم شيء يشبه الذهول فتسرع الى الباب وتدعو صاحبها ، فاذا أقبل تلقته بهذه الجملة : « أما أنت فافعل بي ماتريد ».

***

فاذا كان الفصل الثالث فقد مضى على هذا الموقف عشر سنين ، ونحن في قصر من قصور الريف يعيش فيه الزوجان وقد عاد الى حياتهما شيء من الهدوء والدعة ، ويعيش بينهما غلام في العاشرة . فأما الزوج فسعيد مغتبط ، يعلم أن زوجه لاتحبه ، ولكنه يعلم أنها قد عادت الى الطاعة وهذا يكفيه . وأما امرأته فكئيبة كاسفة البال لاتبسم لشيء ولا تحفل بشيء ولا تحيا الا لابنها .

وقد نزل على الزوجين ضيفان هما بولين وزوجها ، فترى الرجلين يتحدثان فيذكران ماكان منذ عشر سنين ، ولكنك تشعر بأن هناك خلافا جديدا قد نشأ بين الزوجين وهو شديد الخطر ، أشرف الغلام على العاشرة فلا بد من أن يذهب الى المدرسة ، وأمه تأبى ذلك كل الاباء ، وستفتح المدرسة غدا فلا بد من ارغام الأم على فراق ابنها . والأب مصر على أن يسلك في هذه المسألة مسلكه في غيرها من المسائل ، على أن

يحتفظ بسلطته الأبوية كما احتفظ قديما بسلطته الزوجية، ثم ينصرف صاحبه ويبقى هو ، وتقبل الاختان فيتركهما حينا لأمر ما ، فتتذكران الماضى وتفهم من حديثهما أن ميشيل قد مات لأنه كان مسلولا قد ورث السل عن أبيه ، فاذا ذكر لفظ السل رأيت على وجه الأم وفى لفظها ألما ظاهرا ، ثم يقبل الصبى فاذا هو نحيف ضعيف ، واذا هو يذكر سفرا قريبا قد وعده به أبوه فلا تحفل أمه بشيء من ذلك وانما تأخذ فى مداعبته وتأنيبه لأنه عاد اليها قذر الثياب وقد كان نظيفا . وهى فى هذا اذ يقبل الزوج فينصرف الغلام مع خالته لتصلح من أمره. ويتحدث الزوجان فى أمر الغلام والمدرسة ، فتأبى الأم وتلح فى الاباء ، ويريد الأب ويلح فى الارادة ، ثم يستحيل الأمر بينهما الى العنف ، فاذا أعلنت أن ابنها ضعيف رد الأب بأنها مصدر ضعفه لأنها تسرف فى العناية به ، واذا أعلنت الأم أن الأطباء يلحون فى حاجة الطفل الى أمه رد الأب بأنهما قد أفسدت الأطباء . ثم يعلن اليها آمرا عنيفا ، ان الغلام يجب أن يسلك سبيل أبيه وأن ينشأ كما نشأ وأن يذهب الى المدرسة وأنه ذاهب اليها الليلة ، وأن عليها أن تعد متاع الطفل أثناء يأمر هو باعداد العربة .

هنا تثور الأم وتعلن اليه فى ثورتها أن الطفل ليس ابنه ! لايكاد الرجل يصدق ، ولكن الحقائق البينة لاتزال تفجأه واحدة بعد أخرى حتى يتبين أن امرأته قد خانته ، وأن الطفل ليس ابنه . وهو لايعلم من أبو الطفل ، ولكنك أنت قد علمت من أبوه .

فانظر الى هذا الرجل العنيف القاسى الذى لم تكن تعرف الرحمة ولا الضعف الى نفسه سبيلا ، هو الآن يبكى لأنه قد جرح فى كبريائه ، هو يبكى وزوجه جامدة العين مرفوعة الرأس لأنها الآن ليست زوجا وليست امرأة خائنة ، وانما هى أم بائسة تدافع عن ابنها . ويقبل الصبى فرحا مبتهجا فيسأل: متى السفر ؟ فاذا رأى الرجل يبكى والمرأة تنتصر سأل :مابال أبيه يبكى الآن ولم يكن يبكى قط ؟ وما بال أمه لاتبكى وقد كانت حياتها بكاء ؟ تجيبه أمه لأنى فقدت الدموع يابنى . ثم تصرفه ويخلو الزوجان أو العدوان ، فاذا الرجل يطلب الطلاق

واذا المرأة تأباه ، يطلبه لأنه أمين ، وتأباه لانها تريد أن تحتفظ بمستقبل ابنها ، واذا الرجل مرغم بحكم القانون على أن يعترف ببنوة هذا الطفل الذى ليس له ، واذا هو مرغم بحكم الاوضاع الاجتماعية التى يقدسها على ألا يعلن الى الناس أن امرأته خانته وأنه عاش في الخيانة عشر سنين ·

فيرجان : ـ واذن فكيف تريدين أن أعيش معك وجها لوجه دائما ؟! أى حياة تريدين أن أحيا ؟!

ايرين : ـ الحياة التى كلفتنى أن أحياها الى اليوم ، لقـد أخذنا في قيد واحد ، فلتشعر الآن بثقله ولتجره أيضا فقد جررته وحدى زمنا طويلا !!

فيرجان : ـ ليس فى الحياة عدل !

ايرين : ـ في الحياة عدل الشقاء المشترك !

فيرجان : ـ أنت مجرمة وأنا برىء !

ايرين : ـ نحن شقيان ، واذا نزل الشقاء فالناس جميعا سواء !



قانون الرجل

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسى «بول هرفيو»

لعلك تسأل نفسك : مابالة لايجد سبيلا الى مفارقة هـذا الكاتب والانتقال منه الى غيره ؟ فقد حللت له قصصـا ثلاثا وكنت أستطيع أن أكتفى بهذه القصص الثلاث . والحق أنى لا أجد سبيلا ، أو لا أكاد أجد سبيلا الى مفارقة هذا الكاتب ، لأن صحبته لذيذة ولأن اعجابى به واطمئنانى اليه لايكادان يحدان . صحبته لذيذة واعجابى به شديد لأنى لاأعرف تمثيلا أخصب من تمثيله ولأنى لاأعرف قصصا أغنى من قصصه ولأنى أجد فى صحبته لذة العقل ولذة الشعور معا ولأنى أجد فى صحبته هذه اللذة التى يجدها من يسمع لفيلسوف وفنى فى وقت واحد ، فهذا الكاتب الذى أوثره قد جمع بين الفلسفة والفن فأرضى العقل وأرضى الشعور . هو فيلسوف فلا تكاد تقرأ له قصة الا رأيتها تدور حول فكرة فلسفية أو نظرية من نظريات الاجتماع ، يدرسها درسا متقنا ويحللها تحليلا دقيقا فيردها الى أصولها ويصل بها الى نتائجها المعقولة . وهو فى الوقت نفسه فنى لأنه على ايثاره للمنطق وقواعد النظر العلمى فى البحث والتحليل يتخذ الفن وسيلة الى هذا البحث والتحليل فيثير عواطفك ويؤثر فى شعورك بحيث لاتستطيع أن تقول انك قرأت كتابا علميا وبحيث لاتستطيع أن تقول انك قرأت آية من آيات الفن ليس غير ، هو يضطرك أن تقول انك قرأت علما وفنا واستمتعت بالعلم والفن مجتمعين ، ومن يدرى ؟ لعل هذا الفن هو الفن حقا بل هو الفن من غير شك ، فليس من الحق أن هناك تناقضا بين الجمال وبين الحقيقة ، وانما الحق الذى لاشك فيه والذى قاله الناس وآمنوا به منذ سقراط أن الحق والجمال شىء واحد ، فالكاتب الفنى حقا هو الذى يستطيع أن يظهر للناس فى غير تكلف ولا عنف أن الحق جميل وعلى أن الجمال حق . وبهذا يمتاز هذا الكاتب الذى لا أجد الى مفارقته سبيلا . يمتاز بهذا وبشىء آخر لعله هو الذى يحببه الى ويجعل اتصالى به شديدا ، وهو أنه يمثل تلك الفكرة القديمة

التي أوجدت فن التمثيل عند اليونان القدماء والتي مهما يختلف فيها الشعراء من اليونان فهم جميعا خاضعون لها ، متأثرون بها مترجمون عنها ، وهذه الفكرة — التي تجدها عند «ايسكيلوس» كما تجدها عند « سوفوكليس » وعند « أوروبيــــدس » بل تجدها في الشعر القصصي نفسه في «الالياذة » وفي «الاودسا» بل تجدها في الحياة القديمة كلها ، هي أن هنـــاك شيئا فوق ارادة الفرد وفوق ارادة الجمـــاعات ، فوق التشريع وفوق الشرائع ، هناك شيء فوق الأشياء يدبر هذه الأشياء ويسخرها . ولا أريد أن أغلو مع القدماء فأزعم كما كانوا يزعمون أن هذا الشيء الذي لا مرد له ولا فرار منه مسيطر يطبعـــه على كل ارادة فردية واجتماعية ، بل مسيطرة على ارادة الآلهة أنفسهم ، هذا الشيء هو القضاء الذي تمثله لنا اليونان في صور مختلفة ولكنه في جميع هذه الصور عابث بالافراد والجماعات ، عابث بعقول الناس وقواهم ، عابث بسلطان الآلهة وارادتهم . نعم ! هذا الشيء هو القضاء الذي ننساه وننصرف عنه مغرورين مرة بذكائنا ومرة بشعورنا ، وحينا بثروتنا ، وحينا بقوتنا المادية ، ننساه فنمضي كما تدفعنا الأهواء ، ونسير حيث يوجهنا الغرور ، حتى اذا خيل الينا أنا قد بلغنا من حياتنا ما نريد قال القضاء كلمته فأفسدت كل مادبرنا ونقضت كل ما أبرمنا وألزمتنا أن نعترف أمام أنفسنا وأمام الناس وأمام القضاء نفسه بأن هذه الأشياء التي غرتنا وفتنتنا ليست الا ضربا من الباطل ولونا من الخيال ولعبة في يد القضاء . تجد هذه الفكرة في شــعر القدماء من الممثلين اليونانيين ، وتجدها في قصص هذا الكاتب ، ألم تجدها في قصة «التيه» ألم تجدها في غيرها من القصص التي حللتها فيما مضى ألم تشعر حين قرأت هذا التحليل أن الكاتب يسخر من قوة الانسان وعقله ورقيه وحضارته وتشريعـــه وشرائعه ، ويزعم أن هذه الأشياء كلها عاجزة كل العجز عن أن تضمن له السعادة وتحميه من الشقاء ؟

تجد هذه الفكرة نفسها في هذه القصة التي أريد أن أحللها اليوم . ومع ذلك فيظهر من عنوان هذه القصة أن الكاتب يريد

أن يلقى على شيء معين من الأشياء تبعة مايلقاه قسم من اقسام الانسانية من ضروب التعس والشقاء ، يظهر من العنوان ومن القصة نفسها أن الكاتب يريد أن يرد ماتلقاه المرأة من ظلم وجور ، ومن شقاء وسوء حال الى التشريع الذى يقوم به الرجال وحدهم دون النساء فيستأثرون لأنفسهم بالخير ، ويتخذون لمنافعهم وشهواتهم من هذا التشريع معاقل وحصونا . ولو قد اشترك النساء فى التشريع ووضع القوانين لاستطعن أن يحمين منافعهن وحقوقهن وأن يكبحن من جماح الرجال ولو قليلا وأن يضعن أنفسهن بمأمن من ضروب الظلم المختلفة التى يخضعن لها دون أن يجدن لهن نصيرا . يدل عنوان القصة وتدل القصة نفسها على أن مصدر الظلم الذى تلقـــاه المرأة هو أن المرأة محرومة من حقوقها السياسية ، فلو أن لها هذه الحقوق ، لو أنها تنتخب وتنتخب وتأخذ بنصيبها من حقوقها الاجتماعية كما تقوم بنصيبها من الواجبات الاجتماعية لاستطاعت أن تتقى هـذا الظلم وأن تقف من الرجـــل موقف الخصم الـكفء . فالكاتب اذن من أنصار المرأة ، بل من الغلاة فى نصر المرأة ، من الذين يطالبون بالمساواة السياسية المطلقة بين الرجـــل والمرأة .

وأعترف بأن هذه القصة لو لم يكن فيها الا هذه الفكرة لما حفلت بها كثيرا . لا لأنى أخاصم النساء ولا لأنى أكره أن يكون لهن مثل مالى من الحقوق السياسية والاجتماعية ، فلو كان الأمر بيدى لما اكتفيت باقرار المساواة بين الرجال والنساء فى هذه الحقوق ، بل لنزلت للنساء عن كثير من هذه الحقوق التى أجد فى الاستمتاع بها من الشر والعناء أكثر مما أجد فيه من الخير والراحة . ولكنى مع ذلك لم أكن لأحفل بهذه القصـــة لو لم تعن الا بهذه القضية الخاصة ، ذلك لأن هذه القضية فى نفسها قابلة لضروب من الجدال والمناقشة لا حد لها ، ومن الذى يستطيع أن يقول أن مصدر ظلم المرأة هو حرمانهـــا حقوقها السياسية ؟ ولم لا يكون مصدر ظلمها أنها أضعف من الرجل وأقل حظا منه فى هذه القوة المادية التى تقوم عليها الحقوق والواجبات فى كل حياة انسانية اجتماعية ؟ ولم لايكون مصدر ظلم المرأة أنها كانت الى الآن أقل ذكاء من الرجل وأضيق حيلة

واضعف عقلا ؟ ولم لايكون مصدر ظلم المرأة أنهـــا كانت الى الآن أرقى من الرجل شعورا وأرق منهعاطفة وأصدق منهذوقا وأميل منه الى الجمال فكلفت بالخيال وكلف هو بالحقيقةالواقعة فربح الرجل وخسرت المرأة ؟ ولم لايكون مصدرظلم المرأة هذه الأشياء كلها مجتمعة وأشـــياء أخرى لم أذكرها أو لم أصل اليها ؟ ··

القضية اذن في نفسها قابلة للبحث والمناقشة ·· ولكنفى القصة شيئا آخر غير هذه القضية ، غير منافع الرجل والمرأة ، غير حقوق الرجل والمرأة ، غير الجور والعدل،غيرالظلموالمساواة، فيها أن سلطان القضاء فوق كل سلطان ، ولهذا عنيت بهذه القصة وأرجو أن يعنى بها القراء ·

***

« الكونت دى رجيه » رجل من الاشراف عظيم الثروة،قوى الجاه ، محافظ كل المحافظة على ماورث من العادات والآداب سواء منها الحسن والقبيح ، قوى الارادة الى حد العناد، محتفظ بحقوقه من حيث هو رجل ، وقد اكتسب هذه الحقوق بما له من قوة الرجولة ومن السلطان على الحياة الاجتماعية ، وهو يحرص كل الحرص على ألا يفرط فى شىء من حقوقه ولا من عاداته ولا من آدابه ، وعلى ألا ينزل عن جزء ولو قليـــل من حريته ، وقد تزوج من فتاة جميلة غنية ولكنها يتيمة فلمتجد حين تزوجت من يحسن الدفاع عنها ولا الاحتياط لمستقبلها ، وهى تحب زوجها حبا شديدا وتثق به ثقة لا حد لها وتعتمد عليه فى كل شىء الاعتماد كله ، تصدقه اذا قال وتؤيده اذا فعل ، حتى انها لتصدقه وهى تعلم أنه كاذب ، وحتى أنهـــا لتذعن له وهى تعلم أنه ظالم ، ذلك لأنها تحبه الى حيثتنمحى ارادتها أمام ارادته · اسمها « لور » وقد عاشت مع زوجهـــا عصرا ورزقت منه فتاة فى الثانية عشرة من عمرها واسمها « ايزابيل » ولكن أخذت « لور » فى هذا العصر الأخير ترتاب وتشك فى أمانة زوجها وفى أن بينه وبين امرأة أخرى صلة ، فكانت كلما قوى فى نفسها هذا الشك أفضت به الى زوجها فيمحوه فى الحال بلطفه وظرفه ورقته وحسن حيلته ، فتعود المرأة الى الثقة والاطمئنان ، ثم لاتلبث الحوادث أن تعيـــد الى

نفسها الشك ، فتشكو الى زوجها وتبكي وتظهر بائسة تعسة، ويعطف عليها هذا الزوج ويترضاها ، حتى أصبح من أخلاقها هي أن تشك وتشكو ، ومن أخلاقه هو أن يعطف ويترضى ٠ ولكن الحق الواقع أن هذا الرجل يخون امرأته ويخونها مع امرأة متزوجة هي صديقتها وهي مدام « دورسيو » يقوى الشك في نفس « لور » فلا تشكو الى زوجها في هذه المرة وانما تريد أن تتبين حقيقة الأمر فتخفي مابها من ريب وتكلف ادارة من هذه الادارات السرية المنبثة في باريس مراقبة زوجها ٠ فما أسرع ماينبئها الرقيب بجلية الأمر ، ويعين لها المكان والزمان اللذين يلتقي فيهما الآثمان فتكلف نفسها مراقبتهما ولا تشك بعد أن رأت بعينها أن زوجها يخونها ويخونها مع هذه المرأة ٠ ولكنها لاتتحدث الى زوجها بشيء فقد كرهته ، أو خيل اليها أنهـــا كرهته ، فهي لاتريد أن يترضاها أو يعطف عليها وانما تريد أن تخلص منه ومن عشرته ، تريد الطلاق ولكن ليس الى هذا الطلاق من سبيل اذا لم تقم امام القضاة برهانا قاطعا على أنه زوجها قد حنث في يمين الزواج ٠ فهي تبحث الآن عن هذا البرهان القاطع ، تبحث عنه فتفتح مكتب زوجها خلسة وتفتش فيه لعلها تجد رسائل حب قد تبودلت بينه وبين هذه المرأة ، ولكنها لاتظفر بشيء ولا تصل الا الى نتيجة واحدة وهي أن زوجها قد شعر بأن مكتبه قد فتح في غيبتـه فاتهم الخـــدم وذهب يشكو الى الشرطة ٠٠

***

فاذا كان الفصل الأول رأيت « لور » تتحدث الى صديقة لها اسمها (هنريت) بكل ماقصصت عليك ، وتنبئها بعزمها على أن تطلب الطلاق ٠ وهما في هذا الحديث اذ يقبل زوج هذه الصديقة واسمه (كربل) فيشيران عليها بالروية وايثار الصلح ولكنها تأبى ٠٠ ويأتي صاحب الشرطة ليتحقق آثار الجريمة في مكتب « الكونت » فاذا أنبأته « لور » بأنهـا هي التي فتحت المكتب أعلن أنه لم يبق له عمل ، فان لكل من الزوجـين أن يفعل مثل هذا مع صاحبه دون أن يجد القانون وسيلة للتدخل بينهما ، ويريد الرجل أن ينصرف فتستبقيه المرأة وتسأله هل من سبيل أن يعينها على أخذ زوجها متلبسا بجريمة الخيانة ؟

فيجيبها : نعم . ولكنها لاتكاد تظهره على جليـــة الأمر حتى يعتذر بأن القانون لايبيح أن يتدخل الا اذا كان الاثم مقترفا فى بيت الزوجة أو فى بيت هو ملك الزوج ، فأما اذا كان يقترف فى بيت لايملكه أحد الزوجين فليس للقانون أن يتداخل ! هذا اذا كان الرجل هو المتهم بالخيانة فأما اذا كانت المرأةهىالمتهمة فللشرطة أن تتعقبها اذا طلب الزوج فى أى مكان . فهذا أول ظلم ينزله القانون بالمرأة مع أن هذا القانون قد عدل ، ويقال: انه قد عدل لمنفعة المرأة . اذن فليس لصاحب الشرطة أنيعين هذه المرأة على أخذ زوجها مقترفا للاثم حتى تستطيع أنتطلب الطلاق ، وليس بيد هذه المرأة برهانقاطع آخر ، ولكنصاحب الشرطة يشير عليها بأن تجد شهودا متطوعين يرافقونهـــا الى حيث يقترف الاثم فاذا رأوا وشهدوا بما رأوا حكمت المحكمة بالطلاق . وينصرف الرجل فتلجأ « لور » الى صديقتها فأما صديقتها ، فتقبل هذه المهمة لأنها امرأة مثل صاحبتها ولأنها تعطف على هذه الصديقة التعسة ، وأما الرجل فيأبى لأنه رجل ولأنه صديق الزوج الخائن ولأن بينهما من الصـــلات والمودة مايحرم عليه مثل هذا العمل . فاذا طلبت « لور » الى صديقتها أن تتطوع بهذه الشهادة وحدها : أبى الزوج وأعلن اليها أن امرأته لاتستطيع أن تشهد فى مثل هذا الأمرالا اذا أذن لها بالشهادة . فهذا ظلم آخر ينزله القانون بالمرأةفيمنعها حتى من الشهادة دون أن يأذن لها الزوج ..

تفكر « لور » فى شىء آخر وهو أن تذهب فتقص الأمر على زوج المرأة الخائنة وهى واثقة بالفوز لأن هذا الزوج سيتعقب امرأته فاذا أخذها وهى تقترف الأثم فقد ظفرت هىمن زوجها بما تريد . ولكن زوج هذه المرأة الخائنة رجل عنيف معروف بالحدة وسفك الدم فهو لايلجأ الى القوانين ولا الى القضــــاء وانما يلجأ الى الانتقام . والقانون نفسه يبيح لهمبارزةخصمه، بل يبيح له أن يقتل خصمه وأن يقتل امرأته ، فهل تستطيع أن تعرض للموت شخصين تحب أحدهما مهما تقل ومهمـــا تفعل ؟ كلا ! فهى اذن لاتستطيع أن تلجأالىهذهالحيلة الأخيرة . ولكنها مع ذلك معتزمة أن تطلب الفرقة .

يتركها صاحباها ويقدم زوجها فلا تلبث أن تنبئهبكلشىء

ويسرع هو في أن يتلطف لها ويأخذها باللين والرفق منكرا ماتتهمه به ، متهما اياها بالغيرة والاسراف في الغيرة . فيكاد يخدعها ويكاد يرضيها ، ويأخذها بين ذراعيه فتوشك ارادتها أن تنمحي ، ولكنها واثقة بما رأت ، فهي لاتصدق زوجها ، وهي تريد أن تعفو عنه ولا تطلب منه ثمنا لهذا العفو الاشيئا واحدا وهو أن ينبئها بأنه لايحب هذه المرأة وأنه اذا كانت بينه وبينها صلة فقد تورط في هذه الصلة ، ورطه فيها الضعف أو ورطه فيها الغرور ، تريد منه أن يعترف بذلك ، فيأبى هو لأنه لايريد أن يعترف فيسيء الى شريكته في الاثم . فاذاعرف أن امرأته قد رأت أن ليس الى الشك في ذلك من سبيل تغير في نفسه كل شيء فعدل عن الخداع والمكر الى الصراحة والاعتراف، ولكنه لايلوم نفسه ولايرى نفسه آثما ، وانما يرى أنه ان كان قد فعل شيئا تنكره القوانين فهو نفسه لاينكر هذا الشيء لانه بطبيعته عاجز عن الوفاء لزوجه محب للذة والتنقل بهواه ،ولن ينزل من هذا عن شيء ، ولن يسمح بالطلاق لأن الطلاق لايليق بجماعة الاشراف المحافظة التي تنكر كل هذا التشريع الجديد .. وانما يسمح بشيء واحد مألوف في طبقته وهي أن تنقطع الصلة بينه وبين زوجه بالفعل على ألا يعلم الناس عن ذلك شيئا أو على أن يعلم الناس ذلك دون أن يجهر به بعضهم لبعض ، أى أنه يريد أن يحتفظا بمظاهر الزوجيه أمام الناس ليس غير . تأبى « لور » وتعلن الى زوجها أنها مضطرة الى أن تذيع اثمه وخيانته بين الناس وعلى مرأى ومسمع منه ومن صاحبته اذا لم يسمح بالفرقة بينهما ، هو اذن مضطر الى هذه الفرقه . فيسمح بها ولكن فيما بينه وبين زوجته وبين المحامي دون أن يصدر حكم بالطلاق ودون أن يرفع الأمر الى القضـــاء على أن يخصص لزوجه وابنته مايحتاجان اليه من نفقة . ذلك مع أن زوجه غنية ولكنها لاتستطيع أن تتصرف في ثروتها بحكم الزواج نفسه ، وهذا ظلم آخر ينزله القانون بالمرأة .

***

فاذا كان الفصل الثاني فقد مضى على هذا خمس سنين وأقبلت « لور » تزور صديقيها في مصطاف على البحر ، فيتحدثون في

أمر هذا الزوج ، فاذا هو ماض في اثمه ، ويتحدثون في أمر الفتاة فاذا هي في السابعة عشرة واذا هي قد بلغت سن الزواج ، واذا أنت تشعر بأن شيئا من الخلاف لابد أن يظهر بين الأبوين حين يأتي لهذه الفتاة أن تتزوج ، واذا أنت تشعر بأن الفتاة الآن عند أبيها وبأنها ستعود الى أمها بعد ثلاثة أيام وبأن رسائلها تدل على أن مزاجها غير معتدل وبأن أباها ليس بعيدا من هذا المصطاف • وهم في هذا الحديث اذ تسمع جلبة قوم قادمين ، فلا يكادون يتبينون هؤلاء الناس حتى تعلم أن القادمين هم الزوج وابنته وشريكته في الخيانةوزوجها وابنهما • تستخفي « لور » بعد أن تكلف صاحبيها أن يجدا لهاوسيلة للقاء ابنتها • ولا يكاد القوم يقبلون حتى تعلم بأن شيئا جديدا قد طرأ ، وهنا تشعر بأن القصة قد انتقلت من طورها الأول الى طور جديد ، فليست دفاعا عن حق المرأة ، وليست اتهاما للرجل ، وليست سخطا على القانون ، وليست انكارا للتشريع ، وانما هي شيء آخر فوق هذا كله ، فوق ارادة الزوجين ، فوق ارادة الابوين ، فوق ارادة النظم الاجتماعية كلها • تشعر بهذا وتحس أن الكاتب قد تأثر بما كان يتأثر به شعراء اليونان فأدخل القضاء في قصته ، أو قل ان القضاء قد دخل في القصة رغم الكاتب ورغم أبطال القصة • ذلك أن « ايزابيل » هذه الفتاة الناشئة قد أحبت « أندريه » ابن تلك المرأة التي خانت أمها « لور » وفرقت بين أبويها • أحبت الفتى وهي تجهل كل شيء ، وأحبها الفتى وهو يجهل من أمر أمه كل شيء • وتحدث الفتيان بحبهما وتعاهدا على الزواج ، وأفضى الفتيان بهذا الحب وهذا العهد الى أهلهما • فأما أبو الفتى فهو يجهل كل شيء كابنه ، وهو يرى هذا الحب خيرا فيشجعه ويؤيده ويعد المحبين بالمعونة على الزواج • وأما أبو الفتاة وأم الفتى فهما يعلمان كل شيء ويمانعان في هذا الحب • ولكن أين السبيل الى ممانعة الحب وهما لايملكان من أمره شيئا ! وهل يعرف الفتيان كيف أحب كل منهما صاحبه؟ وأين السبيل الى منع هذا الزواج ؟ وهل يستطيع الرجل أن يقول لابنته انه خان أمها مع حماتها ؟ وهل تستطيع المرأة أن تقول لابنها انها خانت أباه مع أب الفتاة ؟ ليس الى ذلك من سبيل •• فحجة المحبين قائمة ويؤيدها أبو الفتى وليس مايمنع

هذا الزواج الا أن ترفض أم الفتاة ؟ أتستطيع أن تجهر بالامر ؟ ذلك شيء ستعلمه · أرأيت كيف دخل القضاء المحتوم في هذه القصة فغيرها التغيير كله وجعلها فوق طور الانسان ؟ لم يصبح الأمر الآن مقصوراً على زوجين يختصمان ، وانما هناك شخصان بريئان يجهلان كل شيء ويريد كل منهما أن يقترن بصاحبه وليس لأحد أن يحملهما اثم آبائهما ··

تعاهد الفتيان على الزواج ، وأخذت الفتاة نفسها بأن تقنع أمها بقبوله · فاذا خلت الى أمها وقصت عليها القصص جزعت هذه جزعا شديدا وأسرفت في اتهام زوجها لا بأنه يخونها فحسب بل بأنه يخون ابنته أيضا · وهل تستطيع هذه المرأة أن تقدر أن هذا الحب قد جاء عفوا ؟ أليس هذان الخائنان قد تواطئا عليه حتى اذا ماتم بينهما لم يكن هناك سبيل الى قطع مابينهما من صلة ؟ وهل تستطيع أن تفكر على نحو غير هذا النحو ؟ أليست سيئة الظن بزوجها ؟ أليست سيئة الظن بعدوتها ؟ أليست تعتقد أن ابنتها دون أن تحب أو تقدر الحب كما ينبغي ؟ هي جزعة ولكنها لاتجهر بهذا الجزع ولا تنبيء ابنتها بشيء ، وانما تريد أن تستنبئها · وبم تنبئها الفتاة ؟ انها تحب هذا الفتى لانهماتجاورا فيالمصيف ، تجاورا فتعارفا فتحابا فتعاهدا على الزواج ، وهي لم تكتب الى أمها بشيء من ذلك لأن الخصومة بين أبويها عودتها أن تحتاط حين تكتب الى أحدهما وهي عند الآخر ، والفتاة لاتفهم جزع أمها ولا تفهم بغضها للفتى وأبويه · وهما في ذلك اذ يقبل الخادم فيعلن أن الأب يريد ابنته ، فتقول الأم : ليأت ان كان يريدها ! ··

***

فاذا كان الفصل الثالث فقد أخفت الأم ابنتها في غرفة مجاورة وتلقت زوجها فتسأله عن هذا الأمر ، فاذا أنبأها بحقيقته لم تصدق من نبئه شيئا وتلقته بهذه التهم التيقدمتها لك في هذا الفصل الماضي · ثم أعلنتلزوجها أنها لاتسمحبهذا الزواج · يلح عليها زوجها ، فاذا رأى منها الاباء أعلن اليها أن هذا الزواج قد يتم رغم ارادتها لأن القانون يبيح ذلك ، فهو يشترط لصحة الزواج أن يرضى الأبوان ، لكنه ينص على أنهما ان اختلفا فرأي الأب مقدم وهو الذي يعتد به ، وهذاظلم

آخر ينزله القانون بالمرأة . ولكن أين نحن من القانون ؟ هناك شيء فوق القانون ، بل هناك شيئان فوق القانون ، هنـــاك عاشقان يريدان أن يتزوجا ، وهناك أم تأبى على عدوتها أن تأخذ منها ابنتها بعد أن أخذت منها زوجها،وهذه الأم تريد أن تدفع عن حقها بكل وسيلة . وقد سلبها القانون وسائل الدفاع،فهي ستجد وسائل الدفاع في ناحية غير ناحية القانون ، ستنبيء ابنتها بحقيقة الأمر وهي ان تفعل فستحول بين ابنتها وبين هذا الزواج . تعلن ذلك الى زوجها فيحذرها عاقبته،ولكنهالاتحفل، فيتركها الزوج منذرا بأن للحرب حدودا . ولكن المرأة لاتكاد تخلو الى ابنتها حتى تحاول أن تصرفها عن هذا الزواج ، فلا تنصرف الفتاة لأنها تريد أن تعلم لماذا يطلب منها أن تضحي آمالها وحياتها دون أن تفهم لهذه التضحيه سببا ودون أن يطلب اليها أبوها هذه التضحية . تريدالفتاة أن تفهم ، وتأبى الاذعان دون أن تفهم ، فاذا أنبأتها أمها بجلية الأمر جزعت هي أيضا وناء بها الجزع ، فتنبيء أمها بالعدول عن هذا الزواج . ولكن في الأمر شيئا فوق ارادة الفتاة وفوق ارادة الأم ، في الأمر هذا الحب الذي لابد من أن تتم كلمته .

وقد أقبل الفتى فرحا مبتهجا يريد أن يسأل صاحبته عما أجابت به أمها وهو يعتقد مقدما أنها قبلت ، فتنبئه الفتاة بأن أمها قد رفضت ، فيحاول أن يتبين مصدر هذا الرفض فلايجد من الفتاة جوابا . يسأل : أتنكر أمها من شخصه شيئا ؟ أتنكر من سيرته شيئا ؟ أتنكر من أبويه شيئا ؟ فتجيبهالفتاة بالنفي ، ولكنها تنبئه بأنهما لن يتزوجا ، يتهمها بأنها لم تحبه ، فتعلن اليه أنها تحبه وتحبه حبا شديدا ولكنهما لن يتزوجا .. يبلغ الجزع من الفتى الى حيث ينبيء صاحبته بأنه قد يئس من الحياة وبأنه وهو ضابط في الجيش سيطلب أن يرسل الى احـــدى المستعمرات حيث يلقى حتفه في ثورة من تلك الثورات المتصلة . ينصرف فتدعوه ويجدد لها نذيره . فتلح ، فيلح في النذير . فتعده أنها ستتزوجه رغم ارادة أمها . ينصرف الفتى مغتبطا ، وقد انتصر الحب على البنوة وانتصر أمل البنوة على أمل الامومة .. وعدنا الى تلك القصة التي عللتها فيما مضى والتي تثبت أن الانسانية انما هي ابنة عاقة وأم برة أبدا . تقبل الأم فاذا علمت

أن ابنتها لم ترفض الزواج أحست ثقل الكارثة وعرفت أن ابنتها قد ضحت بالأم في سبيل الزوج . وهي بعد لم تعرفه الا منذ شهر ، أفيمكن أن يكون الشباب من الأثرة وحب النفس بحيث يضحي بالأم وجهودها وعشرتها الطويلة وعواطفها الحادة الرقيقة في سبيل فتى أو فتاة لم يطل بهما العهد ؟! يقبل الأب وقد فقدت الأم سلاحها فخرجت عليها ابنتها فهي تزعم أن ابنتها لاتحبها ، وفي الحق أن الفتاة تلقي بنفسها بين ذراعي أبيها ، فاذا سمعت من أمها هذا عادت اليها ، فالفتاة مترددة بين الابوين يتنازعانها وقد كره كل منها صاحبه . ثم تنصرف الفتاة وتعلن الأم الى زوجها أنها قد فقدت هذا السلاح ولكنها لم تفقد كل سلاح .. فبيدها سلاح آخر قوي عنيف ، ستعلن الأمر الى الناس جميعا . وهما في ذلك اذ تقبل أم الفتى في ذهول يشبه الجنون فتنبيء بأن زوجها قادم ليخطب الفتاة الى أمها ، وتضرع الى هذه الأم أن تكون رحيمة رفيقة ويضرع اليها الأب أيضا ، ولكنها لاتريد ان تكون رحيمة ولا رفيقة ، هي تدفع عن حقها وتدفع عن ابنتها لاتقبل في ذلك شيئا ولا ترضى في ذلك هوادة . ويقبل الرجل فيخطب الفتاة ، فترفض الأم ، فيحاول أن يتبين مصدر الرفض فيسأل عن أشياء ليس بينها وبين الحقيقة صلة فاذا أجابته الأم بالنفي ألح في أن يتبين موضع الحق فتنبئه النبأ ، ويزعم زوجها أنها قد جنت ، ولكن الرجل لايكاد يتبين القوم جميعا حتى يثق بأنها عاقلة وبأنها صادقة وبأن امرأته قد خانته وبأن هذا الصديق قد خانه في امرأته . يأخذه الغيظ ويظهر عليه الميل الى سفك الدم ولكنه يسمع من امرأته في ضراعتها واستعطافها ذكرى ابنه .. فاذا كل شيء قد تغير واذا غيظه قد هدأ ، واذا هو ليس بالزوج الذي يريد أن ينتقم لشرفه ، وانما هو الأب الذي يريد أن يحمي ابنه من سوء السمعة ، بل يريد أن يحمي ابنه من الموت ، هو أب لا زوج ، فلا يريد أن ينتقم ولكنه يريد أن يزوج ابنه من هذه الفتاة . وقد ظل هذا الأمر مجهولا فيجب أن يظل مجهولا . واذن فيجب على صديقه أن يرد زوجته الى بيته رضي أم كره ، رضيت هذه الزوج أم كرهت ، يجب أن يشعر الناس بأن هذين الزوجين قد أصلحا ماكان بينهما من خلاف وأن

هـــذا الزواج الجـــديد يتحقق بين أسرتين شريفتـــين لاتشوب شرفهما شائبة . فاذا قال الزوج : ان زوجي لن ترضى أن تعيش معي ، أجاب هذا الرجل : يجب أن ترضى . واذاقالت الزوجة لا أستطيع أن أعيش مع هذا الخائن ، أجاب : سأعيش أنا مع هذه الخائنة . وهما في ذلك اذ يظهر الفتيان من بعد !.. يظهران والرجل يحاول أن يقنع هذه الأم بايثار الصلح حبـا لابنتها وبأن هذا الصلح قد لايخلو من خير في الحياة ، فتجيبه: انها لاتأمل الا فيما بقي لها من حظ في الآخرة . تجيب بذلك ويظهر الفتيان فيشير الرجل اليها قائلا : حياتنا الآخرة اهذه هي ! ..

أرأيت كيف ابتدأت القصة ؟ أرأيت كيـــف انتهت ؟ فكرة اجتماعية أراد الكاتب درسها وتحليلها فأحسن الدرس والتحليل وأثبت ما أراد أن يثبت من أن تشريع الرجال ظالم للنســـاء ، ولكن عقل الانسان مهما ينقد ومهما يحلل فهو عاجز عن تدبير الحياة ..

وانما لهذه الحياة مدبر آخر فوق العقل وفوق الارادة وفوق العاطفة والشعور ، وان كان قد يصدر عن العاطفة والشعور . للحياة مدبر آخر هو القضاء ! .



أعرف نفسك

ومن ذا الذى يعرف نفسه حقا ؟ ومن ذا الذى يثق بما تطويه نفسه من دخيلة وبما يستره ضميره من خصلة ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يوجه أهواءه وميوله وعواطفه وشهواته كماينبغى؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يوفق بين نفسه وبين واجبه حقا ؟ أليس الاقدام الصحيح على شىء من الأشياء ينبغى أن يكون نتيجة للعلم الصحيح بهذا الشىء ؟ ألست اذا أقدمت على الشىء وأنت تعلمه حقا استطعت أن تتجنب الخطأ وتتنكب الضلال ؟ بلى ! ولكن العلم الصحيح بالاشياء ليس ميسورا وليس متاحا لك فى كل وقت . ألا ترى الى آراء الناس كيف تتغير بالقياس الى الأشياء العادية ، فهم يرونها خيرا ثم يرونها شرا ثم يعودون فيترددون ثم ينالهم شىء من الاهمال وعـــدم الاكتراث ، هو الاعتراف بالعجز عن فهم الأشياء وتعرف حقائقها ؟

ليس العلم الصحيح بالأشياء ميسورا ، ومن هـــذا تورط الناس فى الاغلاط وتخبطوا فى الظلمات . والأمر ليس واقفا عند جهل الناس بحقائق الأشياء وانما هو يتعداه الى ماهو شر منه ، فأنت لاتعرف صاحبك كما ينبغى أن تعرفه ، وأنت لاتتبين دخيلة خليطك وعشيرك كما ينبغى أن تتبينها ، ومن هنا تقـــع بينك وبينه الخصومات ويسوء بينك وبينه الظن ، ومن هنـــا تناله بالمكروه حين تريد به الخير ، وينالك بالسوء حين يريد اليك الاحسان ، لأن كلا منكما يجهل صاحبه ، ولو قد عرف أحدكما الآخر لما كانت بينكما خصومة ولما ساء بينكما الظن ولما وقـــع بينكما خلاف . بل لايقف الأمر عند هذا الحد ، فأنت تجهـــل الأشياء والناس ، تجهل نفسك ، تجهلها جهلا قويا مظلما ، يدفعك الى أمور لو عرفت نفسك لما اندفعت اليها ، تقدم ولو عرفت نفسك لأحجمت ، ترضى ولو عرفت نفسك لأبيت ، وهل تستطيع أن تفسر الندم الا بأنه شعورك بأنك أقدمت على الشىء وأنت تجهل هذا الشىء وتجهل مايمكن أن يكون بينه وبين نفسك من صلة ؟ أفتظن أن ذلك الحكيم الذى كتب على معبد (دلف) هذا المثل اليونانى القديم « اعرف نفسك بنفسك » قد أخطأ أو

قال غير الصواب ؟ أفتظن أن سقراط حين اتخذ هذا المثل أساسا لفلسفته وجعله أساسا لكل فلسفة خلقية بعده قد أخطأ أو أقدم على غير الحق ؟ كلا ! نحن نجهل الأشياء ولذلك نتعلم . ولذلك أنشأنا العلم . ونحن نجهل الناس وتجهل أنفسنا ولذلك نبحث عن الناس ونبحث عن أنفسنا ، ونحاول أن نضع الشرائع والقوانين وأن نؤسس الفلسفة الانسانية وأن نؤسس علم الأخلاق وأن نبحث عن الطريق التى تنظم الصلات بيننا وبين أمثالنا . ليس هذا كله الا اعترافا بأننا نجهل أو محاولة للتخلص من هذا الجهل ولكننا مغرورون ! ننكر هذا الجهل ولا نشعر به فيخيل الينا أنا نعلم كل شيء ويخيل الينا أن علمنا بالنفس هو أشبه أنواع العلوم صحة وأقربها الى الصواب فيقول أحدنا انى أعرف هذا الشيء كما أعرف نفسى ، ولو أنه فكر قليلا لاستيقن أن هذه المعرفة لاتغنى شيئا ولا تدل الا على الجهل . فهو يجهل نفسه ويجهلها الجهل كله ، فاذا كان حظه من العلم بالأشياء كحظه من العلم بنفسه فويل له من هذا العلم ..

الى هذه النظرية قصد الكاتب فى هذه القصة ، فأثبتها فى وضوح وجلاء ، ولكنه أثبت الى جانبها نظرية أخرى ليست أقل منها شأنا ولا أدنى منها خطرا . أنت تجهل نفسك ولكن ما السبيل الى أن تعلم هذه النفس ؟ أتظن أنك تستطيع أن تصل الى هذا العلم بالنقد والبحث وبالتحليل والامعان فى التحليل ؟

لقد نقد من قبلك سقراط واتباع سقراط . وأمعن الفلاسفة وعلماء الأخلاق فى النقد وفى التحليل ، وتأسس علم النفس وانتهى بأصحابه الى النتائج الباهرة ، ولكن النفس الانسانية مازالت غامضة وما زال كل واحد منا يجهل نفسه حقا ، ومهما تقرأ من فلسفة سقراط وأتباعه ومن فلسفة القدماء والمحدثين على اختلاف ألوانهم ومذاهبهم فلن تعلم من أمر نفسك شيئا .

فشل اذن سقراط حين زعم أن أحسن وسيلة الى العلم بالنفس انما هى أن تعرف أنت نفسك بنفسك . فشل سقراط وفشل من قبله ومن بعده . فقد بحثت الانسانية عن نفسها وبحثت عنها كثيرا فلم تهتد من أمرها الى شيء . لن تعرف نفسك بنفسك وانما الوسيلة الصحيحة الى أن تعرف نفسك انما هى

هذه الحوادث الجسام التى تلم بك من حيث لم تحتسب والتى تصيبك على غير استعداد ، فاذا هى قد هزت نفسك هزا عنيفا فالقت عليها فى غير اختيار ولا ارادة هذه الألوان المختلفة وهذه الضروب المتباينة من زينة الحضارة وبهرجهـــا ، ومما كلفتك الحضارة وما كلفك العلم وما كلفتك نظم الحياة المختلفة من مظاهر لم تخترها ولم تسع اليها ، وانما اضطررت اليها اضـــطرارا واصطنعتها وأنت لاتعلم كيف اصطنعتها ·

ما الشرف ؟ وما الفضيلة ؟ وما حسن المعاملة بين الناس ؟ وما ضروب الأدب والتلطف ؟ وماهذه العقائد الكثيرة التى قامت عليها أوضاعنا الاجتماعية ؟ لم تلبس على هذا النحو دون غيره؟ ولم تأكل على هذا النحو دون غيره ؟ ولم تلقى صاحبك على هذا النحو دون غيره ؟ أتستطيع أن تقول انك اخترت شيئا من ذلك أو ابتكرت ؟ كلا ! ولكنك رأيت الناس يسلكون فى الحياة هذه الاتجاه فسلكتها معهم ، ومهما تجاهد ومهما تبحث فلن تستطيع أن تتخلص منها جملة ، يجب اذن أن تكلف الحوادث الجسام تخليصك منها ولو لحظة لترى نفسك كما هى ولو مرة فى العمر كما يقولون ·

ان الذين لم تصبهم الحوادث الجسام ، ولم تنزل بهم هـــذه النوائب التى تخرجهم عن أطوارهم يقضون حياتهم ولما يعرفوا من أنفسهم شيئا · أعرف نفسك ولكن لا بنفسك ، بل بالتأمل حين تنزل بك الحوادث · وهذه الحوادث لن تنزل بك متى أردت ولن تصيبك متى أحببت ، وقد لايوفقك الله الى أن تعرف نفسك فيكفى أن تشعر بأنك تجهل نفسك وأن تعرف عجزك عن العلم بنفسك ، وأن تتروى كثيرا قبل أن تقدم ، وقبل أن تحكم ، وقبل أن تعمل ·

***

« سيبران » قائد من قواد الجيش الفرنسى وهو رجـل من الاشراف · محافظ ، مستمسك كل الاستمساك بما ورث فى طبقته من نظم الحياة وطرق التفكير · تغيرت الحياة من حوله ولم يتغير أو لم يشعر بأنه تغير · فهو ضيق العقل أومحدود الفكر يقرب فى هذا الضيق الى شيء من الوحشية · فقد امرأته وأراد

أن يتزوج من جديد فتخير أن يتزوج فتاة متقدمة فى السن قد جاوزت الخامسة والعشرين على أن تكون فقيرة من أسرة شريفة قد حسنت تربيتها وفيها من الذكاء وحسن الخلق مايضمن له شيخوخة هادئة مطمئنة بعيدة عما يسيء الى الشرف والكرامة أو يدخل التنغيص والألم بين الزوجين · بحث عن هذه الفتاة فوجدها واقترن بها واسمها « كلاريس » ·

وقد عاش معها خمس سنين فاحبها حبا جما وكلف بها كلفا لا حد له ، ولكنه أحبها كما يستطيع هو أن يحب ، فأخذها بما ألف من ضروب الشدة وألوان المحافظة ، وكلفها حياة قاسية خالية من كل ابتسامة ، بريئة من كل لين ، وهو يعتقد أنه يؤدى واجبه وأكثر من واجبه ، لأنه قد حال بينها وبين البؤس وضمن لها حياة مطمئنة ، وكان لها وفيا فى صلاته الزوجية · هو مقتنع بحظه مطمئن الى سيرته · ولكن امرأته ليست كذلك فهى تشعر بأن زوجها قد أحسن اليها وبأنه قد وفى لها وبأنه يحبها ولكنها تشعر بأنها لاتحبه ، وأن عواطفها وأهواءها لاتجد فى نفس زوجها قد أحسن اليها وبأنه قد وفى لها وبأنه يحبها ولكنها تشعر بأنها لاتحبه ، وأن عواطفها وأهواءها لاتجد فى نفس زوجها هذا الصدى الذى كانت تنتظر أن تجده ، هى تعيش عيشة راضية من الجهة المادية ، ولكن قلبها قد حرم كل عزاء · هى شقية ولكنها رضيت هذا الشقاء فهى وفية لزوجها مكبرة له ، ولكنها تشعر بأنها بائسة ويتردد على هذا البيت ضابط مختص ، هو « بافايل » كان يتيما فقد أمه ثم مات أبوه فى ثورة وكان « سبيران » يعمل فى قمع هذه الثورة · فرأت زوجه الأولى هذا اليتيم فتبنته وقامت على تربيته مع ابنها الوحيد « جان » وجهل هذا الفتى من أمره كل شيء حتى ماتت أمه الثانية فعرف الصلة التى تجمع بينه وبين القائد ، وكان وفيا لهذه المرأة التى كفلته فأنكر زواج القائد من غيرها ، ولكنه لم يكد يعرف « كلاريس » ويتحدث اليها حتى أحبها وكلف بها ثم شعر بأنها شقية تعسة فلم يزده ذلك الا حبا لها وعطفا عليها · وقد نزل على هذا البيت ضيف من أسرة القائد هو « دنسيير » ومعه زوجه « آنا » وهذان الزوجان مؤتلفان يحب كل منهما صاحبه حبا شديدا ·

فاذا كان الفصل الأول من القصة رأيت كلاريس جالسة الى مكتبها وقد دخل عليها الضابط « بافايل » وتكلف عله لهذه الزيارة حين كان يجب أن يذهب الى مكتبه ، وأخذا يتحدثان فتفهم من حديثهما كل ماقدمت لك ولكنك لاتكاد تشعر بأن بينهما حبا . وهمـــا يتحدثان اذ يدخل الخـــادم فينبىء بأن « دنسيير » قد أقبل وهو يبحث عن زوجـــه « أنا » فلا يكاد « بافايل » يسمع هذا حتى ينصرف في عجل واضطراب، فتلاحظ « كلاريس » هذا ولكنها لاتفهمه . ويدخل زوجها القائد فينبئها بأن حادثا قد حدث ، ذلك أنه كان يمشي في الصباح مع « دنسيير » فلما قاربا منزل « بافايل » أبصرا امرأة تخرج منه وتبيناها فاذا هي « أنا » وقد رأتهما فأعرضت عن الطريق وانطلقت تعدو في الغابة وتبعها زوجها فلم يظفر بها لأنها كانت أسرع منه عدوا ، ولكنه عاد ومعه أحد قفازيها فلم يكن عنده شك في أن زوجه كانت في هذا المنزل . واستنتجا من ذلك أنها ذهبت اليه لموعد كان بينها وبين صاحبه . فاذا سمعت « كلاريس » هذا فهمت اضطراب الضابط وانصرافه في عجل ، وأحسست منها شيئا من الغيرة قويا ولكنه خفي . ثم تقبل « أنا » وينصرف القـائد فاذا سألتها « كلاريس » لم تحاول أن تخفي من أمرها شيئا . ومن الواضح أن « كلاريس » قد لقيتهـــا في شيء من العنف وأنكرت عليها ماتورطت فيه ، فتنصرف ويعود القائد فتنبئــه زوجه بأن الأمر كما كان قد افترض ، وتظهر سخطها على هـذا الضابط الذي كان يظهر لها مظهر الرجل التقي والذي كانت تعطف عليه وترثي له حينما هو منافق يستمتع بلذاته متكتما مستترا . ثم يقبل « دنسيير » فاذا خلا الى صاحبه القائد وتحدث اليه أحسست أنه يشعر بشيء من الرفق والعطف على زوجه ، ويود لو عفا عنها واستأنف معها الحياة . ولكنه لايجد من القائد الا سخطا واشمئزازا بل لايجد منه الا ازدراء وسخرية . ينبئه القائد في لفظ عنيف بأنه ان يعف عن زوجه فقد جاوز السنة والخلق والعادة الموروثة ، وهو مضطر الى أن يقطع الصلة بينه وبينه ضنا بكرامة امرأته أن ينالها الأذى . فيقتنع « دنسيير » لأن الكرامة والشرف والحق والواجب ، كل ذلك يقضي عليـه بأن يطرد الخائنة ويطلقها ، وينصرف على أن يذهب الى باريس

ليكلف محاميه أمر الطلاق وأما القائد فيبعث فيطلب الضابط ٠

***

فاذا كان الفصل الثاني رأيت هذا الضـــابط ينتظر قدوم القائد ، فيقدم هذا ويكون بينه وبين الضابط حديث عنيف ، يقسم الضابط فيه أنه لم يأت اثما ولم يقترف منكرا ، ويكذبه القائد ويلح في اهانته حتى يكاد يخرجه عن طوره ٠ ثم يصدر اليه الأمر أن يكتب الى الوزير كتابا يطلب فيه أن يرسل الى احدي المستعمرات القاصية ، فيأتمر الضابط لأنه يريد أن يخلص من حياته بجوار هذا القائد ٠ يجلس ليكتبه ، وينصرف القائد وتدخل « كلاريس » فتسأله في سخرية عما فعل وعما قال ، ولكن الحديث لايكاد يتصل بينهما حتى يظهر أنه برئ وأنه لم يقترف اثما ولم يأت نكرا ، وأن كل مافعل هو أنه نزل عن بيته في بعض الأحيان لصديقه ابن القائد ، وكان هذا الصديق قد طلب اليه ذلك ليخلو بصاحبته الخائنة ٠ هو اذن برئ ولكنه لم يتهم صاحبه ولم يتهم أحدا لأنه لايرى لنفسه الحق في أن يتهم أحدا ، وهو سعيد بهذه النتيجة فسيفارق القائد وسيخلص من حياة قاسية لايجد فيها الا شقاء وبلاء ٠ فاذا سمعت «كلاريس» هذا الحديث وآمنت به ذهبت غيرتها وعادت اليها الثقة وأخذها شيء من الغبطة بان هذا الضابط لم يخنها ، وحاولت أن تقنع الضابط بالبقاء وأن يبرئ نفسه أمام القائد ، ولكن هذا الضابط أبى كل الاباء ٠ ثم يريد أن يعلل اباءه فيعلن الى صاحبته أنه يحبها ويحبها من زمن طويل ، وأنه أصبح لايستطيع صبرا على هذا الجوار وعلى هذا الحرمان ٠ فلا تكاد تسمع اعلان هذا الحب حتى يملكها تأثر شديد ، فترى في نفسها أنها هي أيضا تحب هذا الضابط وأنها كانت تجهل هذا الحب أو تخفيه على نفسها وأنها قد علمت به وأخذت تراه رأى العين في الوقت الذي لم يبق فيه بد من أن تفارق حبيبها هذا ٠ تحس ذلك وتتحدث بشيء منه الى الضابط ، ولكنها حين تتحدث اليه بما تحس تغير في نفسه كل شيء ٠ فقد كان يريد السفر ويرضاه لأنه كان يائسا من حبها اياه ، أما الآن وقد أحس هذا الحب ورآه فقـد ذهب اليأس وخلفه الأمل والرجاء ، واذن فلم يســافر ؟ ولم يمحو سعادته بيده ؟ لن يسافر وسيبرئ نفســـه وســيبقى

وسيذوق لذة هذا الحب ·
أما « كلاريس » فتجزع لذلك وتندم على أنهـا قد أظهرت من أمرها ماكان يجب أن يظل خفيا ، وتلح عليه أن يسافر لأنها لاتريد ولا تستطيع أن تؤمن لهـذا الحب ولا أن تخون زوجها ولا أن تتورط فيما كانت تنكر على صاحبتها · وهنـا موقف عنيف مؤثر بين هذين العاشقين ، قد تصارحا بالحب ولكن بينهما أمرا يحتم عليهما الفراق · بينهما عهد الزواج والحرص على الوفاء · تلح في أن يسافر فلا يستطيع لها مقاومة، فينصرف على أن يظل متهما لنفسه وعلى ألا يراها بعد اليوم · أما هي فتستلقي وقد ناءت بها خيبة الأمل · ذلك أنها كانت قد اطمأنت الى شقائها ورضيت حظها من الحياة · أما الآن وقد أحست أن أحدا من الناس يحبها وأنها تحبه أيضا وأنها ربما لم تخلق الا له وربما لم يخلق الا لها فقد مر الأمل بنفسها ورأت من سلطان القضاء مايحول بينها وبين الاستمتاع بهذا الأمل · وهي في هذا اليأس اذ تقبل « أنا » فاذا المرأتان تتحدثان على نحو جديد من الحديث ، واذا أنت لاترى من « كلاريس » عنفا ولا قسوة وانما ترى منها لينا وعطفا ، ذلك لأنها قد شاركت صاحبتهـا في الحب وان لم تشاركها في الاثم ، هي مثلها فمن الحق أن تعطف عليها · ويقبل « جان » الذي اقترف الاثم وقد علم بكل شيء فيعلن اليهما أنه يحتمل تبعة عمله وأنه سيبرىء صاحبه من هذه التهمة · فتجزع لذلك كلاريس لأن معنى هذه البراءة أن يبقى « بافايل » ، واذا بقي فسينتصر الحب وستتورط هي فيما تورطت فيه صاحبتها · وهي لاتريد ذلك ولا ترضاه · تحاول أن تقنع « جان » بالعدول عن هذا الأمر ، فيأبى ويلح في أنه سيعلن الأمر الى أبيه ، ويقبل أبوه وتنصرف « أنا » · يأخذ القائد في قراءة الكتاب الذي سطره الضابط للوزير ، ولكن ابنه ينبئه بأن يريد أن يتحدث اليه ، فلذا استمع له عرف الحق فغضب غضبا شديدا وأنزل بابنه ضروبا من اللوم والتأنيب ، ولكن ابنـه ينبئه بأنه سيصلح ما أفسده ، سيتزوج « أنا » بعد أن يحكم بالطلاق ·

هنا تنشأ في نفس الأب عاطفة جديدة ، ابنه يريد أن يتزوج من هذه المرأة التي خانت زوجها ! ·· أليس في هذا نزول عن

الشرف ؟ أليس فيه عدول عن السنه والكرامة ؟ ! كلا ! لن يكون هذا الزواج . ولكن ابنه يعلن اليه أنه سيكون مهما يستتبع من نتيجة ، فسيخاصم أباه وسيحتمل ماينشأ عن هذه الخصومة ، لأنه لن يترك صاحبته وحيدة بعد الطلاق . يطرده أبوه مغضبا فينصرف الفتى ويبقى القائد وزوجه فيتحدثان . وترى من هذا الحديث أن القائد كان يجهل نفسه حقا ، هو ساخط ممتعض ولكن مصدر سخطه وامتعاضه انما هو أن ابنه سيتزوج من امرأة خائنة فيهين الشرف ويسيء الى الكرامة . فان هذه المرأة التي خانت زوجها الأول تستطيع أن تخون زوجها الثاني ولعلها لم تخن زوجها الأول لأول مرة فهو يفكر في نفسه ويفكر أن يعاقب ابنه بما كان يريد أن يعاقب به الضابط . فقد عبثت اذن عاطفة البنوة بعواطف الشرف والمحافظة على القديم . تتحدث اليه زوجه بهذا كله وتتبين أنه قد عدل عن رأيه وغير منهجه وأنه مضطر الى أن ينصح لقرينه بالعفو عن زوجة لأنه بين اثنتين : اما أن يصلح بين الزوجين ويرضى عن الخائنة واما أن يرى ابنه زوجا لهذه الخائنة ، ويشعر القائد بصحة هذا وبأنه مضطرب منقطع الحجة ، فيعلن عجزه وينصرف ليعتذر الى الضابط ، فتسأله زوجه : أتطلب اليه أن يبقى ؟ « سآمره بالبقاء ، وبهذا اعتذر اليه حقا » . ينصرف وتبقى « كلاريس » شاعرة بأن عاشقها سيبقى ، متألمة لهذا بل جزعة له ، ذلك لأنها كانت في أول الأمر قد رأت الأمل وطمعت فيه ثم حال بينها وبينه الواجب فاطمأنت الى الحرمان والشقاء ، وهي الآن ترى أن صاحبها سيبقى والى أن الحرب ستكون عنيفة في نفسها بين الأمل والسعادة من جهة وبين الواجب والوفاء من جهة أخرى .

***

فاذا كان الفصل الثالث فقد اجتمع الخائنان وهما يتحدثان . وتشعر من هذا الحديث أن كلاريس قد عملت عملها وأنها جادة في أن توفق بين الزوجين حتى لايقع الطلاق وحتى لايكون هذا الزواج الجديد وحتى يضطر الضابط الى السفر . تشعر بهذا كله لانك ترى « أنا » تنبيء صاحبها بأنها لاتريد أن تكون مصدر خلاف بينه وبين أبيه وبأنها تؤثر أن يتم لها العفو من زوجها . فاذا سمع صاحبها هذا اطمأن اليه وظهرت رغبته فيه ، فتغضب « أنا » ، تغضب لأنها كانت تود لو وجدت من صاحبها الذي

أغواها بالاثم شيئا من الحب لها والكلف بها والرغبة في أن يكون زوجها حقا ، فاذا هي لاتجد منه الا اطمئنانا الى هذا الحل الجديد . هو اذن لم يحبهاوانما أغواها ، وهي اذن لم تحبه وانما خضعت له أو فتنت به . تغضب وتلقى اليه بهذا الغضب ، فيحاول أن يدفع عن نفسه أنهما كانا متحابين ، فلا يفلح الا في اظهار أنهما كانا مخدوعين ، خدعتهما الشهوة والهوى . ينصرف الفتى وتقبل « كلاريس » فاذا علمت بما تم بينهما اطمأنت اليه ونصحت لصاحبتها بأن تصلح من شأنها وتستعد لأن تلقى زوجها فتستعطفه وتترضاه وتنصرف « أنا » ثم يقبل الضابط فرحا مبتهجا لأن القائد قد طلب اليه البقاء ، فسيبقى اذن ، ولم يكن يستطيع الا ذلك فهو برىء وهو يحبها وهي تحبه، وهما يستطيعان أن يسعدا فمن الحمق أن يتكلفا الشقاء ويسعيا اليه . أما هي فتلح عليه في السفر ولكن في غير طائل . سيبقى اذن فلا بد من احتماله ، وهي أضعف من أن تقاوم هذا الحب ولكنها لاتريد أن تكون خائنة ، وهي اذا قبلت هذا الحب وأذعنت له فستنبىء زوجها وستفارقه فقيرة كما دخلت بيته فقيرة ، ولن تفعل شيئا من شأنه أن يزرى بشرف هذا الرجل . ولكنها لاتستطيع أن تقطع في شيء من ذلك ، فهي تريد أن تفكر وأن تتروى ، تريد ألا تقضى الا بعد أناة وحزم ، وهي عاجزة عن ذلك اذا لم يفارقها صاحبها حينا لتستطيع أن تفكر في هدوء واطمئنان . يجب اذن أن ينقطع عنها أسابيع أو أشهرا ، يأبى ! ولكنها تأمره بذلك وتلح فيه فيذعن ولكن على أن تمنحه شيئا يمكنه من الصبر ، على أن تمنحه قبلة ! يلح في ذلك فترضى . وانه ليقبلها اذ يدخل القائد ، فاذا هو يصيح : ويل للشقيين ! افترق العاشقان وأقبل القائد على خصمه يريد أن يقتله ، ثم بدا له فألقى سلاحه لأنه أحس أن القتل ليس من اليسر والسهولة بحيث كان يظن ، يطرد خصمه فينصرف . فاذا خلا الى زوجه أخذ يؤنبها في غيظ وحنق ، ولكنها تجيبه بأنها لم تخنه ولم تأت من الاثم الا مارأى ، وبأنها كانت ولا زالت معتزمة الا تستمتع بلذات الحياة الا بعد أن تقطع الصلة بينها وبينه ، وهي تنتهز هذه الفرصة لتعلن اليه أنها مفارقة اياه وأنها ستخرج من هذا البيت كما دخلته ، ولكن زوجها لايكاد يسمع هذا حتى يأخذه الضعف ، فاذا هو يتلمس من زوجه أن تعتذر ، يريد أن يعفو

ويلتمس سبيلا للعفو . أما هي فلاتريدعفوا وانما تريدخلاصا . وهنا يقع بينهما حديث مؤلم ، تذكر شقاءها وحرمانها وأنهـا لاتحبه ولا تطمئن اليه وانما كانت تخضع له خضوع الأسير ، وهو ينكر ذلك ويسألها : فما بالك لم تنبئينى ؟ ثم يبدو له فيشعر بأنه هو الملوم ، فقد كان من الحق عليه ألا يكون أثرا ولا ظالما وأن يتلمس بنفسه حاجات زوجه ولذاتها وماينقصـها فاذا عرفه وفاها حظها منه . يشعر بأنه قد شغل بنفسه عن زوجه وبأن ظلمه هذا وأثرته هما مصدر الشقاء ، واذا هـو مستعطف ضارع يطلب اليها أن تبقى ، واذا الضعف قد أخـذ من هذا الرجل العنيف مأخذه فتهدج صوته ثم انهملت عبرته ثم هو يجثو يطلب اليها ألا تتركه وحيدا ، ثم ينبئها فى صدق واخلاص أنه مغير خطته وأنه يؤثر الموت على الوحدة وماسيتبعها من أحاديث الناس ، واذا هو ينتظر منها كلمةليعيش أوليموت !!

أما هى فقد رقت له وعطفت عليه فأشارت اليه أنها باقية .

ويدخل هذا الوقت « دنسيير » وقد عاد من باريس ونظم أمر الطلاق فينبئهما بذلك ، فاذا صاحبه القائد قد تغير كل التغير ! الطلاق ! ! وماذا تصنع هذهالبائسة اذا أصبحت وحيدة ؟ وهل فكرت فى هذا ؟ فاذا ذكر له قرينه ماكان قد لقيه به من عنف وغيظ وماكان قد نصح له به فى شدة وحزم وأنه قد تغير الآن اعترف بأنه تغير وبأنه فى حديثهما الأول كان منـدفعا وراء العاطفة ، أما الآن فقد فكر وتروى وهو أقرب الى العفووالمغفرة منه الى السخط والغيظ . وتنضم اليه زوجه فى هذا ، فما تزال بالرجل حتى تقنعه بالعفو عن زوجه ، ولم يكن هـذا الاقناع عسيرا فقد كان الرجل يريد هذا العفو لولا مابين له القائد وما نصح له به . يقنعانه بالعفو ، ويعمد القائد الىهذا الكتاب الذى كتبه الضابط الى الوزير يطلب فيه أن ينقل الى احدى المستعمرات ، يعمد الى هذا الكتابفيأمر بحمله الىالبريد .. ثم ينصرف « دنسيير » ويبقى الزوجانفيقول القائد : لو أنه عفا أمس عن زوجه بعد ما اقترفت هذا الاثم لرأيت عفوه دناءة وانحطاطا .

فتسأله زوجه : أكنت أمس خيرا منك اليـوم ؟ فيجيب : لم أكن أعرف نفسى حقا !

« كلاريس » ــ ومن ذا الذى يعرف نفسه ؟!



قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي « فرنسوا دي كوريل »

لايترجم هذا العنوان ترجمه صحيحة عنوان القصة التمثيلية التي أريد أن أحدثك عنها اليوم ، وانما يؤدى شيئا من معنى هذا العنوان دون أن يؤذيه كله ، بل دون أن يؤدي منه الشيء الكثير .
والترجمة الحرفية لهذا العنوان هي « أرض لاانسانية » أي أرض لايعيش فيها الناس ، وانما يعيش فيها أشخاص لهم طباع وميول وعواطف وأهواء لم يعرفها الناس ، ومع ذلك فهذه الأرض التي تقع فيها القصة أرض انسانية حقا ، ويعيش فيها ناس مثلك ومثلي ، يحسون ماتحس ، ويشعرون بما تشعر به ، ويميلون الى مانميل اليه . هي جزء من فرنسا ، أو جزء من « اللورين » التي كانت موضع النزاع بين فرنسا وألمانيا حتى كانت هذه الحرب الكبرى فردتها الى وطنها الأول .
. واضع هذه القصة التمثيلية هو المسيو « فرنسوادي كوريل » كاتب فرنسي ممتاز ذهب الفرنسيون في اكباره واجلاله الى مدى بعيد حتى وصفه نفر من كبار كتابهم بالنبوغ . وقد امتاز في فن التمثيل امتيازا خاصا ، فقصصه التمثيلية رسائل في الأدب وفي الفلسفة معا ، في الأدب لأنها تكتب في أروع لفظ وأجزله . وفي أبدع أسلوب وأرشقه . وفي الفلسفة لأنها تدور دائما حول عاطفة من عواطف النفس ، أو بعبارة أصح حول غريزة من غرائز الانسانية العامة ، أو بعبارة أدنى الى الدقة وأقرب الى الصواب حول الغريزة الانسانية العامة التي تسيطر على حياة الناس فتسيرها وتضع لها النظم والقوانين الطبيعية التي نسميها الفطرة . وهذا الكاتب الفيلسوف متشائم بطبعه ، سيء الظن بالناس ، لايأمل فيهم خيرا كثيرا ، لا لأنه يحتقرهم أو يزدريهم ، بل لأنه يفهم حقا ويعلم أنهم عبيد الغريزة وأن هذه الغريزة قد كانت وستظل كما هي ضعيفة واهية مهما تختلف عليها الاطوار ، وتتبدل من حولها ظروف الحياة .
هو فيلسوف متشائم ، يرى الأشياء كما هي ، لا كما يجب أن تكون ، فليس تشاؤمه ثقيل الوقع على النفس ، ولا باعثا لليأس في القلوب ، ولكنه ليس جذابا ولا منشطا للأمل ، لايبعث في نفسك يأسا ولا يحيي في قلبك رجاء ، وانما هو قانع بما كان ،

ويود لو حملك على أن تشاركه فى هذه القناعة . ولعل أحسن جملة تختصر فلسفته هى هذه الجملة التى قالها أحد المتكلمين المسلمين: « ليس فى الامكان أبدع مما كان » . ذلك على أن تكون هذه الجملة مقصورة على الحياة الانسانية لم يجاوزها الكاتب الفيلسوف فى أدبه ولا فى فلسفته .

وقد أجمع النقاد الفرنسيون على شيئين : الأول أن هذه القصة التى نحن بازائها آية من آيات التمثيل فى هذا العصر الحديث ، الثانى أن مجد هذه القصة وفوزها باعجاب الجمهور لن يقتصرا على الملاعب الفرنسيه ، بل لابد من أن يجاوزاها الى ملاعب الأرض كلها ، لأن هذه القصة الفرنسية فى موضوعها ومكانها وزمانها ومغزاها انسانية قبل كل شيء ، صالحة لأن تقع فى كل مكان ، وفى كل زمان ، وفى كل شعب .

أجمع النقاد الفرنسيون على ذلك ، وذهب بعضهم الى أكثر من ذلك ، فكتب مسيو « اندرى ريفوار » فى جريدة « الطان » يقول : « ان تاريخ التمثيل لم يعرف آية كهذه منذ « ايسكيليوس » اليونانى أى منذ خمسة وعشرين قرنا » . فأنت ترى الى أى حد بلغ فوز مسيو « فرنسوا دى كوريل » فى هذه القصه الجديدة .

والحق أن فى هذا كله شيئا من الغلو كثيرا ، فالقصة جيدة ، بل فوق الجيدة كما سترى ، ولكن مسيو « فرنسوا دى كوريل » رجل موفق حسن الحظ مع الناقدين ، فكل مايكتبه جيد ، وكل قصصه آيات . ولقد شهدنا بعض قصصه تمثل فى ملاعب باريس فلم تحدث فى أنفسنا هذا الأثر الذى يصفه النقاد . ولم تهز قلوبنا هذه الهزات العنيفة التى يتحدث النقاد عنها ، ولكننا انصرفنا نتهم حسنا وشعورنا وحكمنا على الجيد والردىء ، ونقول فى أنفسنا ما كان هؤلاء النقاد ليجمعوا على خطأ أو تدليس ، ولكننا رأينا كثيرا من أوساط الناس فى فرنسا لم يتأثروا بهذه القصص . وانما شهدوها دهشين وخرجوا من الملعب حائرين . ذلك لأن مسيو « فرنسوا دى كوريل » فى قصصه التمثيلية يدرس العاطفة والشعور والغريزة ويحللها تحليلا دقيقا ، ولكنه لايتحدث بهذا التحليل الى العاطفة أو الشعور ، وانما يتحدث الى العقل والى العقل وحده . فقصصه رسائل فلسفية تحسن فهمها والاستفادة منها اذا قرأتها فى دعة وهدوء ، ولكنك لاتتأثر بها اذا شاهدتها .

فى الملعب لأن هذا الملعب وما فيه من جمهور ومافيه من حركة الممثلين ولعبهم يشغلك عن دقائقه الفلسفية ، فتخرج ولم تفهم أو لم تكد تفهم شيئا ٠

الأمر على غير ذلك فى هذه القصة التى نحن بازائها ، فنحن لم نشهد هذه القصة وانما قرأناها، ونلاحظ أننا لم نتأثر بقراءتها تأثرا يلائم ماقيل عنها ، ولكننا لانشك فى أن الذين شهدوا هذه القصة قد دهشوا لأنهم رأوا كاتبا جديدا يتحدث اليهم حديثا جديدا فيملك قلوبهم وأهواءهم ويجعلهم وقفا على حركات الممثلين وما يجرى بينهم من حوار ٠

ولسنا نشك فى أن المزية الأولى لهذه القصه انما هو الموقف الذى استطاع الكاتب أن يخلقه ، فيقف عاطفتين من أشد العواطف الانسانية سيطرة على الحياة واستئثارا بالنفوس يقف احداهما بازاء الأخرى ، وهاتان العاطفتان هما : الحب والخوف ٠ ولكنك لن تستطيع أن تفهم ذلك حق الفهم الا اذا لخصنا لك القصة فى ألفاظ قليلة ٠

يجب أن تلاحظ أن الكاتب من بلاد « اللورين » ، وأنه قد ألهم هذه القصة لحادثة معينة ، وهى أن أحد الطيارين الفرنسيين ، ولعله « فدرين » ، قد نزل أثناء الحرب فى أرض له فى « اللورين » وراء الخطوط الالمانية ، فاتخذ الكاتب من هذه الحادثة موضوع قصته وهو سهل ٠

فى احدى قرى « اللورين » وعلى مسافة من القريه يقوم منزل تسكنه امرأتان ، احداهما « بولين باريزو » والاخرى أختها « أنا » ٠ فأما « بولين » فهى أرملة ، ولكن لها ابنا ترك « اللورين » وذهب الى فرنسا فاسترد جنسيته الفرنسية ونبغ فى المحاماة والأدب ٠ فلما أعلنت الحرب أدى خدمته العسكرية على أحسن مايؤديها الوطنى المخلص ، وكان قبل الحرب ضعيفا يخاف ويكره منظر الدم ٠ وبينما أمه وخالته ذات يوم تتحدثان اذ أقبل ممثل السلطة الالمانية ومعه احدى الأميرات الالمانيات من أسرة الامبراطور ، يريد أن ينزلها ضيفا على هذه الأرملة ٠ وكانت هذه الأميرة (فكتوريا) زوج أحد القواد المرابطين فى (اللورين) فأقبلت تزور زوجها على غير اذن منه ، وضربت له موعدا فى هذا البيت ٠

تلقت الأرملة ضيفتها كارهة . وبينما كانت هذه الضيفة تنظر في صور فوتوغرافيه على المائدة فى غرفة الاستقبال رأت صورة أعجبتها ، فأخذت تمعن فيها النظر ، وحدثتها (بولين) بأن هذه الصورة هي صورة ابنها الفرنسى وقصت عليها أمره مفصلا ، ثم تنصرف الأميرة الى غرفتها وتتبعها (بولين) ، ويأتى ابنها (بول) . وكان قد وصل الى (اللورين) فى صباح ذلك اليوم على طيارة فرنسية أنزلته وانصرفت تنتظره فى مكان غير الذى أنزلته فيه . وكان قد جاء للتجسس ليشترى من أحد الجنود الالمان أوراقا تهم قيادة الجيش الفرنسى . فلما أنزلته الطيارة رأى أن أحد الفلاحين قد رآه أو قد رأى الطيارة فقتله واتخذ ثيابه وظل يحرث مكانه بقية النهار ، ثم أطلق خيل المحراث وأقبل يقضى الليل عند أمه حتى اذا كان الصباح لقى صاحبه الالمانى فأخذ الأوراق وذهب الى حيث تنتظره الطيارة فعاد الى فرنسا .

قص هذا كله على أمه وأنبأته أمه بمكان الأميرة الالمانية ، فذعر وأشفق أن تدل عليه هذه الأميرة ، وحاول أن يخلص فلم يوفق ، ففكر فى أن يمضى الليل عند أمه وأن يخدع الأميرة حتى ينجو منها أو يقتلها . وهنا تبدأ قيمة القصة ، فان هذه الاميرة ان رأته ودلت عليه قتل وقتلت أمه ، فان لم تستطع أن تدل عليه ، ولن يكون ذلك الا اذا قتلها ونجا بنفسه فأمه مقتولة من غير شك . وأنهما ليتحدثان فى ذلك اذ أقبلت الأميرة فدخلت ، وأصبح القضاء محتوما ، فاما أن يقتل هو وتضيع مهمته العسكرية ، وأما أن يقتل الاميرة فينجو وينفذ ماجاء له ويقدم أمه ضحية للوطن ، وكان قد انتزع الصورة الفوتوغرافية التى رأتها الاميرة وأخفاها . فلما جاءت الاميرة تقدم اليها كأنه أحد أقارب هذه الأرملة ، ثم تسمى لها باسم ألمانى منتحل ، وأنبأها بأنه قد جرح فى الحرب مرتين فأعفى من الخدمة ، لم تصدق الاميرة شيئا من هذا ، وأخذت تنظر فى الصور تلتمس الصورة التى رأتها أولا فلم تجدها ، فلم تشك فى أنها أمام « بول » الفرنسى ابن الأرملة وفى أن واجبها الوطنى يلزمها أن تدل عليه ، فذهبت الى غرفتها تفكر فى ذلك ، ولقيت فى طريقها خالة « بول » فسألتها : أمسرورة هى بمقدم هذا الشاب ، وذكرت الاسم المنتحل ؟ فلم

تحر المرأة جوابا لأنها لم تكن تعرف هذا الاسم ، ولم تشك الأميرة منذ ذلك الوقت فيما يجب عليها أن تعمل ، فأخذت تسأل متى يمر ساعي البريد ؟ فأنبئت بأن ساعي البريد لايمر منذ ابتدأت الحرب ، فسألت أليس يمكن أن تستأجر من يحمل رسالة الى القرية ، فأنبئت بأن هذا عسير في الليل . ولم يشك « بول » في أن الأميرة تريد أن تدل عليه ، فأمسى لايتردد في قتلها ، واعتزم أن يذهب اليها بعد العشاء فيعرض عليها الخروج معه الى الغابة للنزهة فاذا خرجا قتلها هناك حتى لايقع دمها على أمه .

***

يذهب « بول » في الفصل الثاني الى الأميرة في غرفتها فيتحدثان حديثا لذيذا مخيفا لأن كلا منهما يخاف صاحبه ويحاول أن يكتم هذا الخوف ، ولأن كلا منهما يضمر الغدر بصاحبه ، ولكنه يحاول ألا يظهر من نيته شيئا ، فيدور الحديث في هذه الصورة الغريبة التي ظاهرها الأمن وباطنها الخوف والغدر ، ويدعو « بول » صاحبته الى أن تخرج معه الى الغابة فتأبى ، ثم تطلب هي أن تخرج وحدها فيأبى عليها صاحبها ، يريد أن يقودها الى حيث يقتلها فتأبى عليه ، وتريد أن تخرج لتدل عليه فيمنعها من الخروج . وانهما لفي ذلك اذ يسمعان أصواتا تقبل الى البيت ، فتسأل « بولين » عن خبل الفلاح الذي قتل وتنبئها بمقتله ، وتسمع الاميرة هذا فتستيقن أن (بول) هو قاتل الفلاح ومرتدى ثيابه ، وكانت قد رأت الثياب في غرفة الاستقبال ، فيبلغ الخوف منها أقصاه وتأبى أن تخرج ، ثم تشم رائحة ثياب تحترق فتسأل فينبئها (بول) بأن أمه تحرق ثياب الفلاح الذي قتله صباح اليوم . واذن فقد صرح الشر بينهما وعرف كل منهما دخيلة صاحبه ، ولم يبق الا أن يعمل كل منهما مايستطيع لينقذ حياته ووطنه معا .

ولكن الحب قد تدخل في الأمر فعقده وجعل له خطرا فوق كل خطر ، وجعل هذا الموقف فوق ما ألف الناس . ذلك أن الأميرة بينما كانت في هذا الحوار مع (بول) دخلت عليها الأرملة تحمل اليها كتابا ، فلما قرأت الكتاب ملأها السخط والغيظ وخيبة الأمل ، لأن زوجها قد كتب اليها يأمرها أن تعود

أدراجها وينبئها بأنها لن تراه ، وبأن سيارة ستأتى صباح الغد فتنقلها الى حيث تأخذ القطار فتعود الى قصر آبائها ٠

كانت هذه الأميرة جميلة رشيقة ، قويه المزاج ، حادة الحس، متأثرة في حياتها بالعواطف وسلطان الخيال كغيرها من نساء ألمانيا ، وكانت تعلل نفسها حين أقبلت الى (اللورين) بليلة لذيذة حلوة مع زوجها القائد ، فلما حيل بينها وبين ذلك كان وقع هذا اليأس في نفسها عظيما سيئا ، وكان أمامها هذا الجندى الفرنسى ، وكان جميلا قويا يحيي الرغبة فى نفوس النساء ، وكانت تخافه وتشتهيه ، وكان يخافها ويشتهيها ، وكان الحديث بينهما منذ التقيا حديث خوف وغدر وحب واستدراج ٠ فلما صرح الشر بينهما وظهر كل منهما لصاحبه مظهره الحقيقى ظهر سلطان الغريزة فأجلت وقوع الخطب ، وكانت هـــذه الغريزة معقدة ، ولكنها قوية مسيطرة ، كانت غريزة الشهوة ، وغريزة الاحتفاظ بالنفس ٠ فانظر الى هذا الحوار الذى ينتهى به الفصل الثاني :

فكتوريا : لقد حاولت مرات ثلاثا أن تخرجني من البيت ! ٠ فمرة كنت تريد أن تسمعنى ثغاء الغزال ٠٠ وأخرى أن تزور معى كنيسة قديمة في ضوء القمر ٠٠ ثم الرجل الكريم الذى يريد أن يرافقنى الى القرية ٠٠ وكل ذلك حتى لايقع دمى على رأس تحبه وتكرمه ! ٠٠

بول : أى قدرة على الخيال ! ٠٠

فكتوريا : ولو أني تبعتك لما حييت بعدها !!

بول : اذا كنت تخشـــين صحبتى الى هذا الحـــد فاذهبى وحدك ! ٠٠

فكتوريا : ــ مذعورة ــ ستتبعنى ! ٠٠ ومن ذا الذى يشفق على ؟ ٠ ليست أمك التى أشعر بعدائها ! ٠ وقد سافرت خالتك ٠ ولعلها انما سافرت لأنكما خفتما ميلها الى ! ٠ فلم يبق لى الا أنت، ثم تلقى بنفسها بين ذراعيه ! آه انى خائفة ! ٠

بول : ــ مبتسما دون أن تراه لأنها بين ذراعيه ــ وأنا أيضا خائف ! ٠٠

فكتوريا : ــ مطمئنة شيئا ما ــ منى ؟!

بول : منك ! ٠

فكتوريا : أتوسل اليك الا تخاف ! . فلست أريد الا الخير . لست شريرة ! . لقد أعجبتني حين رأيتك لأول مرة ! ألم تلاحظ ذلك ؟ ..

بول : بلى ! ولهذا أجرؤ على أن أقبلك ! . ان من الاثم أن أستغل أزمة هذا الخوف ! . فلست أريد غصبا ! . وفى الحق أن الحب هو الذى .. !

فكتوريا : وأنا أيضا ! . وأنا أيضا ! . ليتك تستطيع أن ترى مافى قلبى ! ..

بول . لاينبغى أن ينظر المرء فى أعماق فؤاد من يحب ! فحسبه الحب !

ثم يطوقها بذراعه فى حنان بينما يسدل الستار .

فقد رأيت كيف اصطلح الذعر والشهوة ويأس هذه المرأة التى أخلفها زوجها على تعقيد موقف هذين العدوين تعقيدا بلغ أقصاه ، ثم انتهى الى انتصار الغريزة ، لانقول الانسانية بل الحيوانية ، فوقع هذان العدوان أحدهما بين ذراعي صاحبه ، وتأجل الشر حينا حتى تبلغ الغريزة ماتريد . ولكن تشاؤم الكاتب وقسوته لم يبلغا هذا الحد المنكر ، ولم يصلا بالانسان من الدناءة الى حيث تحكمه الغريزة الحيوانية وحدها ، بل جعل للعواطف الراقية سبيلا على هذا الانسان ، فقد ذاق العدوان لذة الحب . تمازجها مرارة العداء ، ولكن العواطف الانسانية عملت عملها ، فلم يجرؤ « بول » على أن يقتل صاحبته بعد أن هدأت ثورته ، لأنه كان يراها يقظة من الخوف ، وكان يرى عينها محدقة يملأها الفزع ، فكانت الشفقة تغل يده . ومع ذلك فقد كان أخفى مسدسه تحت الوسادة ينتظر أن تنام وأن تغمض عينيها ، ولكنها لم تنم وظلت عيناها محدقتين ، ولم تجرؤ هى على أن تقتل عدوها ، لأنها كانت تحس لذة الحب ، بل لعلها ترددت فى الدلالة على هذا العدو . ومهما يكن من شىء فقد قضيا الليل فى حب وذعر وعداء .

فلما كان الصباح نزل « بول » فلقى أمه . فانظر الى ما كان بينهما من الحوار :

بول :ـ مشيرا الى الطبقة العليا من البيت ـ لقد بقيت هناك ! ..

بولين : كان يجب أن تقودها الى حيث أردت ! . فقد قادتك الى السرير ! .

بول : هل من سبيل الى أن يقتل الرجل امرأة يشتهيها حين تتعلق بعنقه وهي تئن : « انى خائفة ! . آه ! انى خائفة ! . »

بولين : نعم ! لايستطيع أن يقتلها ، وانما يداعبها وينسى واجبه العسكرى ! ..

بول : لم أنس واجبى ! . لقد أخفيت المسدس تحت الوسادة حين اضطجعت . وكنت أقول فى نفسى . « ستنام وستغمض عينيها الضارعتين فأقتلها » ولكن عينيها لم تغمضا ! . وكنت أراهما فى ضوء القمر محدقتين فى .

بولين : لعلها هى أيضا كانت تنتظر أن تغمض عينيك لتأخذ ما أخفيته تحت الوسادة .

بول : ربما ! . ان القلب واليد لايتفقان دائما .

بولين : تقول انها ستذهب هذا الصباح ! .

بول : نعم ! فى سيارة الساعة الحادية عشرة .

بولين : نحن فى الساعة التاسعة ، يجب اذن أن تموت فى ساعتين .

بول : سأودعك مضطرا بعد نصف ساعة .

بولين : اذن فلك نصف ساعة تتخذ فيه قرارا .

بول : يجب اذن ألا تموت ! فأنا واثق بأنها لن تؤذيك اذا مضيت .

فتنبئه أمه بأنها لاتخاف على نفسها ، وانما تخاف عليه هو أو على صاحبه الالمانى اذا لم تقتل هذه الأميرة .

ثم تأتى الأميرة ، وتحاول بولين أن تقنعها بألا تدل على ابنها، ثم تهددها بأنها ستنبىء زوجها القائد بما كان بينها وبين ابنها من خيانة له ، فتزدرى الأميرة هذا التهديد ويأباه (بول) لأنه غير شريف ، وتخرج بولين ويبقى العدوان وجها لوجه . فانظر الى مايقع بينهما من حديث .

فكتوريا : انها واجدة عليك لأنك لما تقتلنى !

بول : بل لأنى فعلت أكثر من هذا فأسرعت الى معونتك .

فكتوريا : انى أنا أيضا خاضعة لهذا الشعور المخالف للمنطق، فكيف السبيل الى الخلاص منه ؟ . كيف نهرب من هذه الوحشية

التي يضطر اليها قلبانا الحبيبان بحكم وطنينا العدوين ؟

بول : نعم ! ان قلبينا لصديقان ، ولكن لننظر على أى نحو ! لم آكد أصل أمس حتى عرفتني ، فلو أني هربت لدللت علىأمى فقتلت .. ولم تكن لنا وسيلة الى النجاة الا فى أن أستدرجك الى حيث أقتلك بعيدا من البيت .. فكنت مضطرا اذن الى أن أعجبك ..

فكتوريا : ــ فى نشاط ــ لقد وفقت .

بول : ولكنى وقعت فى الشرك الذى نصبته لأنك أعجبتنى أيضا ، ومع ذلك فلم يمنعنى اعجابى بك أن أنتهز الفرصة للتخلص منك ، ولا سيما وانك قد كنت طلعة حين بدأت الحديث .

فكتوريا : كان شخصك يبعثنى على الاستطلاع وكنت حريصة على خيانتك ، وقد أظهرت ذلك أكثر مما كان يجب حين سألتك عن عملك العسكرى .

بول : لقد عنيت العناية كلها بألا أجيب .

فكتوريا : لقد كنت أقسمت على أن أحملك على الكلام .

بول : لقد كنت أقسمت على أن أقودك الى نزهة ، فلو أنك تبعتنى لكانت جثتك الآن مخبأة فى ناحية من نواحى الغابة .

فكتوريا : لقد كدت أتبعك ، ولكن الفلاحين الذين كانوا يبحثون عن فرس « كلودو » نجونى ، ولما عرضت عليك أن أمتحنك بالذهاب الى القرية وحدى كنت أريد أن أدل عليك .

بول : لو أنك نمت هذه الليلة لما استيقظت .

فكتوريا : رأيتك تخبىء شيئا تحت الوسادة ولو أنك استسلمت للنوم لما كان هناك جاسوس .

بول : كان الجاسوس حذرا ، لأن الرهبة والرغبة كانتا تضطرانه الى الحذر .

فكتوريا : لقد كنت أنا أيضا شديدة الرغبة فيك ولكنى كنت خائنة ! ..

بول : لقد كانت تعبث بنا أمواج الحب والبغض وما لاطف أحدنا صاحبه ملاطفة الا كان وراءها ميل الى الشر ، ولكن قد أقبلت الساعة التى تصبح فيها الشهوة والرغبة والملاطفة جرائم . وسيقضى عليك الواجب بعد لحظات أن تدلى على الضابط الذى سيأتى ليقودك ، ولأجل أن أحول بينك وبين ذلك يقضى على

الواجب أن أقتلك ، أنت الآن في قبضة يدى ! .. واذن ! ..
ثم يخرج المسدس ويصوبه اليها .
فكتوريا ـ جزعة ـ لا ! لا ! رحمة .. لك منى الوعد ! .
أقسم بالشرف لا أخونك ! .
بول : ـ وقد خفض سلاحه ـ لعلى أسيء .. ولكن وعدك ..
فكتوريا ! ـ تضطرب ذعرا ـ ثق بهذا الوعد .
بول ـ وقد ألقى سلاحه على المائدة ـ أنت مدينة لى بالحياة ! فليس لك الحق فى محاربتي ..
فكتوريا : لقد فقدت هذا الحق منذ أول قبلة .. وسأحمل فى نفسى ذكر الليلة الوحيدة التى أحسست فيهـــا لذة الحب القوى ..
ثم يستمر الحديث بينهما على هذا النحو ، وقد أمن كل منهما الى صاحبه ، فينبئها بول بأنه قد أفلح غير مرة فى التجسس على المانيا ويقص عليهـــا زيارة زارها متجسســـا فى بلجيـــكا فتقول :
فكتوريا : لم تقص على ذلك ؟ لقد كنت أتمنى لك عودا سعيدا ، وها أنت ذا تحيى فى نفسى الندم ! .. كم ألحقت بوطنى من الشر ! . وكم تلحق به من الشر أيضا ! .
بول : وما لدغة البعوضة فى جلد الفيل ؟
ثم تخرج الأميرة وتأتى (بولين) فيشتد العتاب بينها وبين ابنها ، لأنه آثر عليها هذه المرأة ، وانها لفى ذلك اذ يأتى الجندى الالمانى الذى يشارك بول فى التجسس ، فينبئها بأنه رأى فى النافذة امرأة أمرته بالالمانيـــة أن يذهب الى القرية فيعلن الى السلطة فيها أن فى هذا البيت جاسوسا .
واذن فقد حنثت الأميرة فى القسم وأخلفت الوعـــد فحل دمها ، ولكن بول يتردد مع ذلك فى قتلها ، ولا يطمئن اليـــه الا على كره منه . وتخرج أمه لتدعو الأميرة ، فيسمع الرجلان طلق المسدس ، وتعود المرأة فتعلن اليهما أنها قد قتلت الأميرة وأنها تعلم ماينتظرها من موت ، ولا تطلب الا شيئا واحدا وهو أن تستخرج من حفرتها اذا عاد الفرنسيون الى (لورين) فتدفن فى قبر ويكتب عليه : « ماتت لأجل فرنسا » .
هذه هى القصة ، ولعل مانقلناه لك من أحاديثها يغنى عن الشرح والتفسير .

الدمية الجديدة



قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي « فرنسوا دى كوريل »

لست أدرى أحدثك عن قصة من قصص التمثيـــل أم عن رسالة من رسائل الفلسفة ، ولعلي أحدثك عنهما جميعا ، فان القصة التى بين يدى الآن تمثيلية عرفت أكبر ملاعب باريس ، وهى فى الوقت نفسه فلسفية تناولت بالبحث والتحليل مسألة من أكبر المسائل التى تشغل الضمير الانسانى وتعذبه ســواء أكان ضميرا فرديا أم اجتماعيا ٠ وليس فى ذلك شىء من العجب فان صاحب القصة هو ذلك الذى حدثتك عنه فى القصة الماضية ٠٠ هو (فرنسوا دى كوريل) الكاتب الفيلسوف ٠

وضع هذه القصة سنة ١٨٩٥ ولكنه لم يقدمها الى الملعب لأنه أشفق أن تكون من الدقة والتعمق فى البـــحث الفلسفى بحيث تسبق عقل الجمهور ، فاكتفى بنشرها فى (مجلة باريس) ٠ ولم تكد تنشر هذه القصة حتى أعجب بها الناس وحتى نالت لدى القراء والنقاد فوزا لا بأس به ٠ ثم مضت أعوام فلما كانت سنة ١٨٩٩ تحدث الكاتب مع زعيم من زعماء التمثيل فى عرض هذه

القصة على الجمهور فأصلحها الكاتب وغير منها وأضاف اليها ، ثم مثلت فكان الفوز عظيما ، وأجمع النقاد أو كادوا يجمعون على أن هذه القصة آية من آيات التمثيل تؤرخ العصر الذى وضعت فيه وتدل على أن هذا الفن سينتقل من طور الى طور فيختم القرن الماضى فى طوره القديم ويبتدىء هذا القرن فى طوره الحديث ·
ولم ينكر تفوق هذه القصة الا ناقد واحد هو (سارسى) ، ومع ذلك فقد اعترف بانها قيمة مؤثرة ولكنه زعم أنها خليقة بالقراءة لا بالتمثيل · ويقول (فرنسوا دى كوريل) : ان هذا الحكم لم يصدر عن انصاف وانما صدر عن الهوى ·

وضعت هذه القصة منذ أكثر من ربع قرن ومع ذلك فلم ينسها الناس ، ولم تعرض عنها ملاعب التمثيل ، بل مازالت تمثل وتمثل فى أكبر ملاعب باريس فى ، « السكوميدى فرنسيز » ، ولعل اعجاب الناس بهـا وفهمهم اياها فى هذه الأيام أشد وأصدق منهما يوم مثلت لأول مرة ، فقد ارتقى الجمهور فى هذه السنين الأخيرة ارتقاء عقليا ظاهرا يمكنه من الوصول الى دقائق هذه القصه وأمثالها · ومهما يكن من شىء · فان اعجابى بالجمهور الذى يفهم هذه القصة ويكلف بها أشدمن اعجابى بالكاتب الذى وضعها ونظم فصولها · وأحسب أن هذه القصة لو مثلت فى مصر لما استمع لها من الناس الا نفر قليل، وقليل جدا ، ولهذا ترددت قبل أن أختار هذه القصة موضوعا للحديث ، ذلك أن الجد فيها أكثر من الهزل ، بل ليس فيها من الهزل شىء ، وليس أمر الحب فيها ذا خطر ، واذا شئت فقل أنه ذو خطر جليل ، ولكنه حب علماء يخلو من هذه الرقة ومن هذه الدعابة التى تستخفك وتستهويك · فأنا أعرفك وأعرف أنك لاتطلب الى الصحف السيارة دروسا علمية أو أحاديث فلسفية جافة ، وانما تطلب ذلك الى الكتب والمجلات والاساتذة ، فأما كتاب الصحف فأنت تريدهم على أن يسلوك ويلهوك فى أوقات الفراغ فى القهوة أو فى الترام · وفى الحق أن هذه القصة لاتسلى ولا تلهى ، بل لاتكاد تحرك عواطف القلب وانما هى تهز العقل الانسانى هزا عنيفا وتحيى الشك حينا ما · وحسبك أنها تقرب بين الذكاء والايمان أو بين العلم والدين ·

قلت ان الحب فى هذه القصة حب علماء ، ولست أغير هذا

القول ولا أعدل عنه ، فسنرى أن الاشخاص الممتازين فيهذه القصة أربعة : رجلان وامرأتان ، فاما الرجلان فعالمان من أكبر العلماء يتعمق أحدهما في الطب والآخر في علم النفس ، وأما المرأتان فاحداهما ليست عالمة ولكنها كالعالمة لأنهاتستطيع أن تفهم هذين العالمين وتناقشهما وتلزمهما الحجة ، والأخرىليست عالمة ولا شبيهة بالعالمة ولكنها أبعد عن الحب ولذاته ودعابته من العلماء والفلاسفة ، لأنها تستعد لتكون راهبة ، وهي تستعد لذلك بقلب ملؤه الدين والاخلاص .

فأنت ترى أن أحاديث الحب لايمكن أن تكون عذبة ولامثيرة لتلك العواطف الخفية بين ناس كهؤلاء الناس ، وانما هيأحاديث أرقى من هذا كله وأدق . ثم ان هؤلاء الاشخاص الذين لاأشك في أنك ستحبهم وتكلف بهم وتعطف على بعضهم ، هؤلاء الأشخاص ليسوا عاديين . ماذا أقول ؟ اني لأتساءل :

أيمكن أن يوجد في حياتنا الواقعة أشخاص كهؤلاء يتحدثون كما يتحدث هؤلاء الناس ويعملون كما يعملهؤلاءالناس ، وأكاد أعتقد أن الكاتب لم يحاول تصوير ماهو كائن في الأرض وانما استنزل المثل الأعلى من السماء فصوره تصويرا متقنا ثم عرضه على الناس ليهيج شوقهم اليه ورغبتهم فيه . ولعله حاول معهذا أن يحل هذه المشكلة العويصة ، مشكلة الجهاد العنيف المتصل بين عقل الرجل الكبير وشعوره .

فهل وفق الى هذا الحل ؟ أعتقد أنا أنه لم يحل المسألة ، ولعل هذه المسألة لاتحل . وحسب الكاتب مجدا ، وحسبه من الفوز العلمي أنه قد استطاع أن يظهر لك بطريقة لاتحتمل شكا ولا ريبا أن أشد الناس نبوغا في العلم وتفوقا في حلمعضلاته، وأشدهم مضيا في الالحاد وانكار الاله والدين خاضع كمايخضع أشد الناس جهلا وأكثرهم اغراقا في الغفلة والذهول لهذه العواطف التي تحمل على الخوف والاشفاق ، والرحمة والحنان ، والأمل في المستقبل ، والطمع في حياة أخرى بعد الموت ، بل في جزاء للأعمال التي نأتيها في هذه الحياة ، خاضع لهذه العواطف التي ينشئها الدين في نفوسنا فهو مجتمع شيئين متناقضين : عقل ملحد كل الالحاد ، وقلب مؤمن كل الايمان .

نعم وفق الكاتب الى عرض هذه المسألة وايضاحها . وسواء

علينا أوفق الى حلها أم لم يوفق ، فذلك شيء في نفسه ليس بذى خطر . وانما الأمر كل الأمر أن نعرف أن أشد الناس ذكاء وأكثرهم الحادا مؤمن سواء أراد أم لم يرد ، مؤمن لأنه انسان ليس غير ، ثم قد يكون ايمانه واضحا ، وقد يكون غامضا،وقد يكون موضوع هذا الايمان جليا ، وقد يكون خفيا ولـــكنه مؤمن على كل حال ، يحتاج حين يغلب قلبه على عقله الى أن يلجأ الى قوة قاهرة يستمد منها الغوث والمعونة . فلننظر بعد هـذه المقدمة الى القصة .

قلت أن أشـخاص هذه القصـة ليسوا عاديين والحق أنهم جميعا ممتازون ، فأولهم « البير دونا » طبيب قد نبغ فى فنـه وأصبح موضع اعجاب قومه بل موضع اعجاب العالم كله ، تفاخر به فرنسا كما تفاخر بنابغتها « باستور » ، والثانى « لويز » امرأة هذا الطبيب ، بارعة الجمال شديدة الذكاء ، رقيقة القلب ، حادة العاطفة . والثالث « موريس كورميه » نابغة فى علم النفس يعمل فيه عملا لايعرف الملل ، يستخدم التجربة ويصل الى نتائج عظيمة القيمة ، ويحاول أن يجعل علم النفس علما حقا ينتج كما تنتج العلوم الأخرى التى تم تكوينها ، والرابع « أنطوانيت ميلا » فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها فقيرة معدمة يتيمة جميلة جدا شديد التأثير فى نفس من يراها ، ولكنها مريضة قد ألح عليها السل فجزم الاطباء بأنها ميتة وهى تستعد لحياة الراهبة .

***

فاذا ابتدأت القصة رأينا « لويز » جالسة فى لبسة المتفضل مرسلة الشعر تكتب ، فتدخل عليها أختها « جان » التى لم نسمها لأن أثرها فى القصة قليل ، تنبيء « جان » أختها « لويز » بنبأ عظيم ، بخطب جلل يوشك أن يدك حولها كل شيء ، وهو أن زوجها الطبيب متهم يراد أن يقبض عليه ، وأن الناس جميعـا يتحدثون بذلك ، فاذا سألت « لويز » عما يتهم به زوجها فان التهمة شنيعة ولكنها تشرف المتهم ، تشرفه أمام العقل وأمام العلم ، وتجعله مجرما أمام القانون وأمام الضمير . واذن فقد خلق الموقف العسير الذى تدور عليه القصة ، موقف التناقض بين العقل والعلم من جهة وبين القـانون والضمير من جهـة أخرى . ذلك أن « البير دونا » الطبيب قد اتخذ المرضى موضوعا لتجربة مهلكة

فهو يبحث عن مصل يداوى به السرطان ، وقد اضطره هذا البحث الى أن يلقح « بميكروب » السرطان بعض المرضى ، فنجحت التجربة وأصيب هؤلاء المرضى بهذه العله المهلكة ، فالتجربة فى نفسها خير ، بل هى واجب علمى ، بل هى واجب خلقى انسانى ، لأنها وان ضحت بطائفة من الناس فستضمن البرء والعافية للناس جميعا ، فهى من هذه الجهة خير ، ولكنها قتل ، فهى جريمة ينكرها الضمير والخلق والدين ، ويعاقب عليها القانون . هذا هو الموقف ، أو هى العقدة كما يقول الممثلون . وليس لهذه العقدة حل الا أن تتطور الانسانية فينتصر العقل انتصارا مطلقا يخضع لسلطانه القوانين والاخلاق والعرف والاديان ، أو ينتصر الضمير انتصارا مطلقا يمحو العقل ويزيل آثاره .

ولكننا الآن فى شغل عن هذه المسألة التى ستدرس فيما بعد . ذلك أن هذا الحديث بين الأختين قد أظهر أن « لويز » لاتحب زوجها أو أنها شقية كل الشقاء مع هذا الزوج لأنها كانت تحبه الحب كله فلم تظفر منه بما يرضى قلبها وعواطفها لأن هـذا العالم شغل بعلمه وبحثه وبره بالمرضى والضعفاء عن امرأته وعما يحتاج اليه قلبها وعواطفها وحبها ، فعاشا معا عيشة أليمة لايشعر الناس بما فيها من ألم بل لايشعر الزوج نفسه بمافيها من ألم . وانما تألم هذه الزوجة المسكينة وتتعـذب دون أن يشعر بها أحد أو يعطف عليها انسان . وهى منذ عشر سنين فى هذه الحياة المرة تجل زوجها وتكرمه لأنه نابغة ، ولأنه خير ، ولكنها تشقى بجواره لأنها لاتجد عنده ماتريد ، وهى تضطرب بين شرين : أحدهما الوفاء لهذا الزوج المعرض اللاهى ومايستتبعه هذا الوفاء من ألم وضنك ، الثانى الحرية والاسـتمتاع بلذات الحياة وارضاء قلبها وعواطفها وميلها القوى الى السعادة ومايستتبعه هذا كله من الخيانة والغدر ومخالفة الضمير والخلق والدين .

موقف آخر عسير كالموقف الأول ، كانت « لويز » تحاول أن تجد منه مخلصا لاسيما وأن هنالك شخصا ثالثا يحبها ويكلف بها ويظهر لها هذا الحب والكلف ، وهى تميل اليه ولا تجـد غضاضة فى مجالسته والتحدث اليه ، وهذا الشخص هو « موريس كورميه » النابغة فى علم النفس والصديق الوفى لزوجها . كانت اذن تنتهز الفرصـة للتخلص من هـذا الموقف ، فقد سنحت

الفرصة ، أصبح زوجها مجرما وهي لاتحبه ، واذن فستفارقه وتسترد حريتها وتشاطر صاحبها لذات الحياة · وانها لتتحدث في هذا كله الى اختها اد تدخل الخادمة فتنبيء بأن فتاة أقبلت تريد أن تلقى الطبيب لأنها منه على موعد ، فيؤذن لهذه الفتاة في الدخول لأن « لويز » تفترض أن هذه الفتاة ضحية من ضحايا زوجها فتريد أن تتبين منها الأمر · تدخل هـذه الفتاة وهي « انطوانيت » ، فتقص على الأختين ماذكرنا لك من أمرها وتنبئهما بأنها قد شفيت أو كادت لحسن علاج الطبيب ، وأنها أقبلت تستشيره بعد أن كتبت اليه فأذن لها في ذلك ، ويأتي الطبيب فتنبئه أخت امرأته بما علمت من أمره وتطلب اليه أن يحتاط وأن يخفي أوراقه قبل أن تأتي الشرطة للتفتيش ، وكانا يتحدثان في ناحيه فتعلم من حديثهما أمرين : الأول أن هذه الفتاة ضحية من ضحايا الطبيب لأنه واثق بأنها ستموت ، واذن فقد اتخذها موضوعا للتجربة ، الثاني أنه سيخفي أوراقه عند صديق أمين هو « موريس كورميه » الذي علمت من أمره مع لويز ماعلمت . ثم تخرج « جان » ويعنى الطبيب بهذه المريضة فيسألها عن أمرها وتجيبه بأن صحتها جيدة وأنها تحس كأنها تخلق خلقا جديدا ، ولكن دملا قد ظهر في جسمها لايريد أن يشفي ولا أن يفتح ، ولهذا أقبلت تعرضه على الطبيب ، وقد علمت طبعا أن هذا الدمل هو السرطان · يفحص الطبيب صدر المريضه فكلما تقـدم في الفحص اشتد خوفه وذعره واضطرابه ، ذلك لأنه يلاحظ أن هذه الفتاة قد برئت من مرض السل ، واذن فهو قاتلها لأنها ستموت بالسرطان ·

الطبيب واله جزع ، ولكنه يتجلد ويسأل الفتاة في عنف عما اتخذت من دواء ، فتجيبه بأنها لم تتخذ الا دواءه هو ، وأنها قد اتخذت شيئا آخر تخشى أن تذكره فيغضب الطبيب ، شربت ماء « لورد » (وهي قرية فيها ينبوع ظهر في القرن الماضي فقدسه الناس وزعموا أن العذراء هي التي أخرجته الى آخر ماهو معروف من أمره) ·

اذن فلم يبق شك عند الطبيب في أنه قاتل وفي أنه يستحق عقاب القاتل ، ذلك لأنه كان يعتقد أن تجاربه ليست شرا فهو لايجربها الا في أشخاص لايشك في أنهم ميتون ، واذن فهـو

لم يكن يجنى على الانسانية ، بل لم يكن يجنى على المرضى أنفسهم . أما الآن وقد برئت هذه الفتاة من السل فالأمر غير ذلك ، قد جنى على الانسانية فأفقدها بعض أفرادها ، وجنى على هذه الفتاة فأفقدها الحياة واذن فهو قاتل .

تتفق « لويز » مع هذه الفتاة على أن تقيم عندها لتعالج فى البيت ، ثم تخرج الفتاة ويقف الزوجان وجها لوجه . فانظر كيف يبتدىء بينهما الحديث .

« لويز » : انك لقاتل !

« البير » — فى بطء — : نعم انى قاتل !

« لويز » : لا أعرف جريمة أدنأ من هذه ! .. فتاة بائسة ليس لها عائل وليس لها من يدفع عنها ! ..

« البير » : لقد كانت ميتة ! .. ولقد حاولت كل شىء فى انقاذها .. ولقد وصلت من الفناء الى حد أيأسنى من شفائها وأقسم لو أن طبيبا أقبل فتنبأ لنا بأن صحتها قد تتحسن لوصفناه بالحمق ! .. لقد كنت أجرب فى جثة هامدة .. فلم أزدها ألما ولا حزنا ، ولقد لقحتها ميكروب السرطان وهى فى اغماء فلم تشعر بشىء ..

« البير » : أرى أنى مجرم ولكنى أرى ذلك لأول مرة .. لقد كنت مطمئنا الاطمئنان كله .. ان الذين شهدوا مثلى احتضار كثيرين ثم فكروا لايستطيعون أن يؤمنوا بحياة أخرى نعم ! اذا رأيت الكائن العاقل يفقد قليلا عقله وبهجته وشعوره وكل مايكون الشخص الانسانى حتى لا يبقى منه على سرير الألم الا شىء تعس ذاهل يصيح .. اذا رأيت هذا شعرت بأنك انما تشهدين كائنا ينحل انحلالا مؤلما لا شخصا يبتدىء سفرا مجيدا ، واذن فنحن الذين يعلمون أن ليس بعد الموت حياة أخرى نجل الحياة ونقدسها أكثر مما يجلها ويقدسها مؤمن متعصب ، ونعتقد أن أشد الجرائم انما هو أن نضيع ولو مخطئين على الحى دقيقة من حياته التى ينتظرها الفناء ، ولن تستطيعى أن تتصورى ماكنت أتخذ من حيطة حتى لاتقصر تجاربى أجل المريض ولو ثانية واحدة .

ثم يدور الحديث بينهما على هذا النحو شديدا قاسيا مؤلما حتى تبلغ « لويز » من لومها أن تنكر عليه ثقته بعلمه ، وترى أنه كان من الحق عليه ألا يجزم بأن مريضا سيموت فقد تشفيه

معجزة وهنا ينكر الطبيب المعجزات ، ويشتد الجدال بينه وبين زوجه في ذلك حتى تخرج لويز عن طورها فتقول له : ومهما تضرع الى العلم هذا المعبود الجديد الذى يظلم العالم ان تقبل ضحيتك الدموية فان هذا العلم نفسه يظهر كراهية بشعة لهذه الضحية ·· حياة واحدة تملك تقديمها الى العلم ·· هي حياتك ! »

فيدفع الطبيب عن نفسه بأنه كثيرا ماعرض حياته للخطر في مكافحة الامراض المهلكة ، ويذكرها مرضا أصابه وأشرف به على الموت ، وأنها قدعنيت به في هذا المرض عناية ملؤها الاخلاص؟ وينتقل بهما هذا الحديث الى مابينهما من صلة ، فيذكر الطبيب أن امرأته لا تحبه ، ويحدثها بذلك فيكون بينهما حوار مؤلم ، تذكر « لويز » أنها كانت تحبه ولكنه كان يزدريها ، ويذكر هو أنه كان يثق بها ويعتمد عليها ويعتز بعطفها في جهاده العلمي ، تذكر له أنها فقدت حبها اياه ولكنها كانت تجله الى اليوم ، فيسألها عن رأيها فيه منذ اليوم ، فتجيبه أنها أصبحت تخافه ، لأنه كان ينكر على المؤمنين المتعصبين ازدراءهم حياة الناس في سبيل الايمان والعقيدة حينما هو يزدري حياة الناس في سبيل علمه دون أن يضمن لهؤلاء الناس مايضمنه لهم المؤمنون من حياة أخرى فيها الأمل والرجاء ، وفيها السعادة والنعيم · ويستمر بينهما الحديث حتى يعرض الطبيب على امرأته أن تسترد حريتها فتقبل ذلك مترددة · وهنا تظهر عاطفة جديدة في نفس هذه المرأة التى تكره زوجها وتخافه ، تظهر عاطفة الخير والرحمة ، ولكنها ليست واضحة · تحس هذه المرأة في أعماق نفسها شيئا غامضا يأمرها ألا تترك هذا الزوج الذى ينصرف عنه الناس جميعا ويتركونه يعاني وحده سخط الجماعة ووخز الضمير · وانهما لفي ذلك اذ يدخل « موريس كورميه » فينصرف الطبيب ليحضر الأوراق التى يريد أن يخفيها عند صاحبه ، وينتهز الصديق هذه الفرصة القصيرة ليتحدث الى صاحبته في الحب ، ولكن هذه الفرصة لاتطول فيعود الطبيب ويكلف صاحبه أن يعنى بمايدفع اليه من الأوراق ، وهنا ينتهي الفصل الأول وقد عرض فيه موقف الاشخاص جميعا أحسن عرض ، وفصل أدق تفصيل · فأما الطبيب فهو يرى نفسه مجرما أمام ضميره بعد أن استيقن

شفاء « أنطوانيت » من السل ، وهو جزع لهـــذا ، جزع لأن امرأته تكرهه وتخافه ، وهذه المرأة ترى زوجها مجرما وقد كانت تكرهه وتخافه ، ولكنها بدأت تعطف عليه دون أن تتبين ذلك من نفسها · فأما « موريس كورميه » فهو يجل الطبيب ويكبره وهو مع ذلك يحب زوجه ويدور حولها ·

***

فاذا كان الفصل الثاني ازدادت هذه المواقف وضـوحا ، تذهب « لويز » الى معمل « موريس كورميه » فيريد هـــذا أن يتحدث اليها في الحب ، ولكنها تنبئه بأنها تحبه غير أنها جاءت تلجأ الى العالم لا الى الصديق ، جاءت تلتمس عنده شفاء نفسها المضطربة ، أليس نابغة في علم النفس ؟ اذن فليشفها ، انهـــا مترددة بين الحرية التي هي حقها وبين العطف على زوجها ، هذا العطف الذي هو واجبها ، لقد لجأت الى الصلاة فلم تنفعهـــا ، فليشفها العلم ان لم يشفها الدين ، ولكن العلم عاجز عن شفائها لأنه لم يتقدم بعد وما زال ناشئا ، وهو لايعـــالج الا المرضى و « لويز » ليست مريضة الجسم · وانها لفي ذلك مع صاحبها اذ يقبل الطبيب فتستخفي حيث تسمع وترى دون أن يراها أحد · لذيذ جدا هذا الحوار القوى العنيف الممتع الذي يدور بين هذين العالمين ، لذيذ يستحق أن يترجم كله ، ولكني مضطر الى ألا أترجم لك منه شيئا اشفاقا من الاطالة التي بلغت حـــد الاملال ··

في هذا الحوار يظهر الجهاد بين العقل والقلب ، بين العـــلم والدين ، بين الذكاء والعاطفة ، وقد انتصرت العاطفة على الذكاء ، وقد انتصر القلب على العقل ، وقد ظفر الدين بالعلم ، فاذا الطبيب مؤمن بقوة لايتبينها ، واذا ضميره مقتنع بأنه مجرم · ولكن هذا الانتصار ليس باهرا ، لأنه نتيجة الضعف والاضطراب · يتحدث الطبيب الى صاحبه فما أسرع ماينتهي بهما الحديث الى وجود قوة قاهرة تسمو اليها الانسانية كلها ، فيعترف الطبيب بهذه القوة وينكرها النابغة في علم النفس ، ويشتد بينهما الجدال فبينما يستدل الطبيب بمظاهر الطبيعة المختلفة وميل الفطرة الانسانية والعقل الانساني الى الخلود والايمان بالخلود يجيبـــه صاحبه بأن هذا كله أثر من آثار الضعف ونتيجـــة من نتائج

الاضطراب الذى هز قواه منذ أمس ، ذلك لأن أشدالناس قوة وأمضاهم بصيرة وأكثرهم الحادا اذا دهمته الداهمات وألمت به الملمات وأعوزه النصير من أبناء جنسه الى قوة خفيه يخلقها له الضعف ويستحدثها له الوهم ويصورها له حرصه على الأمل وجزعه من اليأس . فما أسرع مايعترف الطبيب بأن هذا حق ولكن هذا الاعتراف لايحوله عن يقينه ، فهو يؤمن بأن هنـاك قوة وان شئت فقل حقيقة عليا عامة تشمل حقائق الحياة كلها ، هى الصور المجملة المفصلة لكل ماهو كائن ، يؤمن بذلك وبأن الميل الطبعى للانسان انما هو السمو الى هذه الحقيقه العليا ، يسمو اليها بقلبه تارة فيؤمن دون بحث ولا تفكير ، ويسمواليها بعقله تارة أخرى فيؤمن بعد البحث والتفكير . يصل اليهـــا الطبيب بواسطة طبه ، ويصل اليها الطبعى بواسطة بحثـــه الطبعى ، ويصل اليها كل عالم بواسطة العلم الذى يشتغل به ، ولكن العلماء يقصرون بحثهم وهمهم على مابين أيديهم من حقائق الحياة الدنيا ، ولا بد لهم من أوقات الشدة والمحنة لينتقلوا من حقائق هذه الحياة الى الحقيقة العليا التى ينتهى اليها كل شيء .
ثم يصل بهما الحديث الى ذكر امرأة مريضة كانت موضـــوع التجربة فى علم النفس فى هذا المكان فقدت هذه المرأة ابنـــا لها آكانت تحبه فخيل اليها أنها قاتلة ابنها وضاقت عليها لذلك سبل الحياة فأقبلت الى صاحبنا العالم النفسى تلتمس لديه الشفاء ، ووجد هذا العالم وصاحبه الطبيب وسيلة الى شفائها ، وهى أن أنامها العالم ووضع أمامها تمثالا يشبهها وأعطاها سكيناوأنبأها بأن شخصيتها مضاعفة تتألف من امرأتين مختلفتين : احداهماأم تحب ابنها والأخرى امرأة غادرة قتلت هذا الابن ، ثم قال لها العالم دونك هذه القاتلة انتهزى نومها فاقتليها انتقاما لابنك ، ففعلت وكان ذلك شفاء لها .

قال « موريس » لصاحبه الطبيب : ان وجهك الآن يذكرنى وجه هذه المرأة فلك صورتها ونظراتها ، قال الطبيب : لم تخطىء لأنى قتلت اليوم رجلا ، وأنبأه بأنه فى صباح هذا اليوم لقح بمرض السرطان رجلا قويا صحيح البنية ليس بالمريض ولا المتعرض للموت ، وذلك لتكون تجاربه العلمية أصح وأصدق انتاجا ، ثم دفع اليه ورقة فيها ذكر هذه التجربة ونتائجها الأولى ، وأنبأه

بأنه سيدفع اليه فى كل يوم نتائج تجاربه ، وهنـا اضطرب العالم النفسى ولم يتردد فى اتهـام الطبيب بالاجرام ، فدفع الطبيب عن نفسه بأن هذا الرجل الذى قدم نفسه ضحية للعلم حر فى أن يحيـا أو يموت ، وأنه قد اختـار الموت لا مكرها ولا مخدوعا ولا مضللا ، وانما اختار الموت رغبة فى العلم من جهة وفى الخير من جهـة أخرى ، أراد أن يستفيد العلم وأن يستفيد النـاس بعد ذلك، ثم انصرف الطبيب ، وقد قال ذلك بصوت يملؤه البكاء ..

فتخرج « لويز » من مخبئها مضطربة واجمة قد أخذها شىء يشبه شوق الصوفية ، فيحب « موريس » أن يتحدث اليها ، ولكنها تأبى وتعلن اليه أن زوجها لم يقتل الا نفسه ، وأن هـذا الرجل الذى ضحى بنفسه للعلم والخير انما هو « البير » ، وأن قربه من الموت هو الذى حبب اليه ذكر الخلود والحياة الآخرة ، وأنه جاء يلتمس معونة صاحبه وعزاءه فلم يجد الا جفاء العـلم وقسوته ، دعنى ألحق بزوجى ! ثم تتركه ويلقى الستار .

فهذا الفصل الثانى قد أوضح هذين الشخصين ايضاحا كاملا، ثم فى نفس الطبيب انتصار ضميره على عقله ، وتم الاتفاق بين علمه ودينه فهو مقتنع بأنه يجب أن يقتص من نفسه لهذه الفتاة البريئة التى قتلها ، وهو يقتص من نفسه فيلقح نفسه مرض السرطان ويحقق بهذا التلقيح شيئين : الانتقام ، وتجربتـه العلمية ، فسيصبح منذ هذا اليوم موضوعا لهذه التجربة . وسيموت بعد أشهر وقد أرضى علمه فعرف نتيجة بحثه ، وأرضى ضميره فانتقم لتلك الفتاة البريئة .

وأما زوجه فكانت مترددة بين الحرية والعطف على زوجهـا لأنها كانت تجهل هذا الزوج ، فلما سمعت له وعرفت مافعل بنفسه استقر رأيها وتم أمرها على أن تؤثر الواجب على الحق ، فنسيت حبها « لموريس » ونسيت حريتها ولم تفكر الا فى زوجها الشهيد فلحقت به تواسيه وتعزيه .

***

فاذا كان الفصل الثالث تم التفهم والاتفاق بين هذين الزوجين فأنبأت « لويز » زوجها بأنها تحبه ، لأنها سمعت ماقال عنـد « موريس » وأن حبها اياه لايعرف حدا ، فهى مستعدة لأن

تتلقى مرض السرطان ، مستعدة لأن تتلقى شرا من هذا المرض ، لاتريد من ذلك الا ان تشعر بأن زوجها يحبها .

وقد نسينا الفتاة البريئة التى نجت من السل فوقعت فى السرطان . تقدم هذه الفتاة فتنبىء الطبيب فى لطف ورفق بأنها تعلم ما أصابها وأنها سعيدة به وأنها لاتأسف على شىء لانها كانت قد وهبت نفسها للخير ، كانت تريد أن تعطى حياتها قليــــلا قليلا للبائسين ، فستعطى حياتها للبائسين دفعة واحدة لاأقساطا . فهى لم تخسر شيئا ولعلها ربحت شيئا كثيرا ، وهى ســعيدة بالموت لأنه سلمها الى السماء ..

وتنتهى القصة وهؤلاء الابطال الثلاثة قد وصل كل واحد منهم الى أقصى مايمكن أن يصل اليه البطل ، فأما الطبيب فقدم نفسه ضحية للعلم والضمير والعدل راضيا مختارا ، وأما الفتاة فقدمت نفسها ضحية للانسانية راضية مذعنة لحكم القضاء . وكل مابينها وبين الطبيب من الفرق هو أنها تثق بعدل الله فى الحياة الآخرة . وأن الطبيب يحاول أن يثق بهذا العدل ، أو ان شئت فقل يؤمن قلبه بهذا العدل ويضطرب عقله فى ذلك ، وأما « لويز » فقد نسيت حريتها وميولها وأهواءها وعواطفها وحبها وقدمت نفسها ضحية للواجب ، وللواجب وحده ، تتمنى أن يكون نصيبها كنصيب زوجها وكنصيب هذه الفتاة البائسة ، تتمنى لو تموت فى سبيل الحب وفى سبيل الواجب .

فأنت ترى الى هؤلاء الاشخاص كيف أحسن الكاتب تصويرهم ، وكيف بلغ بكل واحد منهم الى أقصى مداه . ولكنك تستطيع أن تسأل عن « موريس » ، هذا النابغة فى علم النفس ماقيمته وما خطره فى القصة ؟ ليس له قيمة ولا خطر ، وانما هو وسيلة اتخذها الـكاتب ليظهر أبطاله ، فلولا « موريس » لما تـكلمت « لويز » ولما تكلم زوجها الطبيب ، فهو اذن اختراع تمثيـــلى لا أكثر ولا أقل .

ولقد كنت أحب أن أظهرك بعد هذا التحليـــل الموجز عــلى مافى القصة من جمال اللفظ وحسن الاسلوب ودقة الحوار ، ولكن أين السبيل الى ذلك والقصة مكتوبة بالفرنسية ، واظهار هذا الجمال كله يحتاج الى ترجمة دقيقة طويلة يضيق عنها وقتك ووقتى وصحيفة السياسة .



قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي « فرنسوا دى كوريل »

حدثتك مرة عن الكاتب الفرنسي « فرنسوا دى كوريل » وعن قصصه التمثيلية ، ولعلك تذكر أنا رأينا لهذا الكاتب ميزتين : الأولى أنه ممثل فيلسوف ، فالجهاد الذى تشتمل عليه قصصه التمثيلية لايقع بين أشخاص بل لايقع بين آراء عادية قد ألفها الناس ، وانما يقع عادة بين آراء فلسفية يمثلها أشخاص القصه تمثيلا صحيحا · الثانية ميزة فنية خالصة تذكرنا بكبار الشعراء الممثلين من اليونان ، و «بايسكيلوس» منهم بنوع خاص، وتذكرنا أيضا بقواعد الفن فى عصره اليونانى العظيم ، وهى أن الكاتب لايكاد يبدأ الفصل الأول من قصته حتى يعرض عليك موضوع هذه القصة ويبين لك العقدة التى يجب أن يمضى جهاد الأشخاص والحوادث فى حلها ، فلعلك تذكر « أرض الجحيم » وانك لاتكاد تفرغ من الفصل الأول حتى ترى الجهاد قائما عنيفا بين هـذه الخواطر الكثيرة المختلفـة : بين الحب والواجب ، بين الخوف والرغبة ، الى آخر ماتحدثت به اليك حين حللت هذه القصة ·

« فرنسوا دى كوريل » اذن ممثل حقا ، وفيلسوف حقا ، ولكن فلسفته كما قلنا غير مرة ليست فرحه ولا مبتهجة وليست تقطر بشرا وسرورا كما أنها ليست عابسة ولا محزونة وليست تقطر أسى ويأسا ، وانما هى وسط بين الابتهاج وبين اليأس ، وهى الى الحزن أقرب منها الى السرور ، وان شئت فقل انهـا فلسفة تأخذ الناس على أنهم ناس فلا ترفـع قدرهم الى حيث لاينبغى ولا تحطه الى حيث لاينبغى ، وانما تعرف للناس مكانتهم وتقدر لهم حظهم من الخير والشر ونصيبهم من الفضيلة والنقيصة ولا تحمد ولا تلوم ، أو لاتسرف فى الحمد واللوم وانما تسـجل الأشياء كما هى ، وتريد أن ترضى عنها كما هى · هذه فلسفة « فرنسوا دى كوريل » تجدها واضحة جلية فى أكثر قصصه التمثيلية · ولكنى أريد أن أحدثك عن قصة لهذا الكاتب مثلت فى بيت « موليير » آخر السنة الماضية وهى « نشوة الحـكيم » أريد أن أحدثك عن هذه القصة ، ولكنى لا أدرى كيف أحدثك عنها وقد كان يخيل الى أنى قصرت وحدى عن فهمهـا وقدرها والحكم فيها ، ولكنى لم أكد أقرأ آراء النقاد الفرنسـيين حتى

رأيت أن الله لم يختصني بهذا القصور ، وأن أكثر النقاد ان لم أقل جميع النقاد قد وقفوا من هذه القصة موقف الدهش الحائر الذى لايدرى ماذا أراد الكاتب أن يمثل وماذا أراد الكاتب أن يعرض على الناس ، رأى كل ناقد فى القصة رأيا يخالف آراء النقاد الآخرين ، ولم توفق القصة من الفوز الى ماوفقت اليه القصص الأخرى ، ولكنها لم تفشل ، فما زالت تمثل الى الآن فى « بيت موليير » ،ولكن النقاد يختلفون فى تأويل هذا الفوز القليل الذى نالته القصة ، فيلقى بعضهم تبعته على الممثلين ، وربما ألقى بعضهم تبعته على ا جمهور • ومصدر هذا أن الكاتب لم يحدد موضوع القصة ، ولم يبين الغرض الذى يسعى اليه بيانا واضحا ، ولم يحاول أثناء القصة أن يجلو هذا الغرض أو يحدد هذا الموضوع ، وأكبر ظنى أنه لم يرد الا أن يتحدث الى الجمهور حديثا لذيذا ممتعا مفيدا مضحكا من حين الى حين ،دون أن يكون قد قصد الى خلق جهاد قوى عنيف بين فكرتين فلسفتين أو بين مؤثرين من هذه المؤثرات المختلفة التى تدبر الحياة ، وان زعم لنا ناشر القصة أن المؤلف سيضع لها مقدمة تفسيرية تبين أغراضها وموضوعها بيانا مريحا • فلتسجل منذ الآن أن هذه القصة قد اختلف النقاد فى فهمها وذهبوا فى تأويلها المذاهب ، ورضى عنها الجمهور ولكنه لم يعجب بها اعجابا لا حد له ، وأعلن المؤلف أن من أراد أن يتبين غرضها وموضوعها فلينظر المقدمة التى سيضيفها اليها يوم بنشرها مضافة الى قصصه المختلفة ، وليس هذا كله مما يحمل على الاعتقاد أن هذه القصة قد كانت آية من آيات الفن أو أثرا خالدا من آثار هذا الكاتب العظيم •

على أنى أتعجل فأثبت أنك لاتكاد تقرأ فصلا من هذه القصة حتى يتنازعك شيئان مختلفان : أحدهما الاعجاب الشديد بجودة اللفظ وبهذه الثروة الضخمة التى امتاز بها هذا الكاتب من الآراء الخصبة المغنية المغذية التى تجدها فى كل حوار بل فى كل جزء من حوار ، والآخر هذه الحيرة التى تحملك على أن تسأل نفسك : ماذا يريد والى أين يريد ؟ فليس الجهاد قائما بين رأيين وانما هو قائم بين آراء ، وليس هذا الجهاد عنيفا ولا حادا بحيث يحملك على أن تتوقع الشر وتستعد لهذه الهزات القوية التى

تستأثر بك أمام كل جهاد عنيف ، وليس هو من الفتور واللين بحيث يحملك على أن تستسلم للمثلين وتستعد للضحك واللذة ، هو بين بين ، يحملك على أن تضحك ويخيفك من أن تبكي، وهذه ميزة يجب أن تقدر ، ميزة ترفع القصة عن الفتور وان لم تصل بها الى الحدة والعنف اللذين يميزان كبار القصص التمثيلية ٠

« بول سوترو » رجل غنى ضخم الثروة له أرض واسعة ومعامل كثيرة يعمل فيها كثيرون تكاد تبلغ ثروته المليارات ، وهو قد نشأ فقيرا معدما ، فتعلم من الفقر الصبر واحتمال المكروه ، وتعلم من الفقر أيضا كيف يقدر الغنى ويحسن القيام عليه ، وتعلم من الفقر والغنى معا كيف ينظر الى الأشياء كما هى فلا يزدريها ولا يغلو فيها فهو فيلسوف ، قد بلغ الستين من عمره ولكن حياته المنظمة التي لم يفسدها افراط ولا تفريط قد حفظت له صحة موفورة وقوة لا بأس بها ٠ بلغ الستين ولكنه شاب ، وله ابنة أخت فقدت أبويها طفلة واضطر هو الى أن يكفلها فأنشأها فقيرة أو خيل اليها أنها فقيرة وأخفى عليها ثروته وغناه وأخذها بما يأخذ به الفقراء أبناءهم من ضروب الشدة والقصد فى غير تقتير ولا حرمان ، وأخذ يطوف بها فى أقطار فرنسا أثناء الاجازات المدرسية فلا ينزلها الا في الفنادق المتوسطة ولا يظهر لها قليلا أو كثيرا من الثروة التى لا تكاد تعدلها ثروة فى فرنسا ٠ فلما بلغت طور الفتاة وأتمت تعليمها الثانوى أرسلها الى باريس لتدرس في الجامعة وأرسل معها مربية ترشدها وتقوم منها مقام الأم ٠ هذه الفتاة تسمى « هرتانس »

اختلفت « هرتانس » الى السربون ، واختلفت بنوع خاص الى دروس أستاذ في الفلسفة قد بعد صيته وكلف به الناس كلفا شديدا فازدحمت غرفة درسه بالرجال والنساء وبالفتيان والفتيات على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم ولا سيما في هذه السنة لأن موضوع الدرس كان غريبا ، وكان من شأنه أن يشوق الناس جميعا ولا سيما النساء ، كان موضوع الدرس في هذه السنة ! « لم نحب ؟ » واسم هذا الاستاذ الذى بلغ هذه المنزلة من بعد الصيت وهو بعد شاب لم يكتهل « روجيه برميلان »٠

اختلفت « هرتانس » الى درس الأستاذ فكلفت بالدرس وشغفت بالاستاذ ، وحملها هذا الشغف وذلك الكلف على أن

تلخص دروس الاستاذ ، وتبعث بطائفة من هــذه الدروس الملخصة الى الاستاذ ليرى فيها رأيه ، فاعجب الاستاذ بالتلخيص، وكتب الى الفتاة يحدثها باعجابه ويحثها على المضى فى العمل ، ويطلب اليها أن تعرض عليه عملها من حــين الى حــين ، فكانت زيارات ومطالعات ومحاورات ، ثم كان الحب ينمو ويبسط سلطانه أثناء هذا كله على نفس الفتاة حتى تملك نفسها فى يوم من الايام أن تنبىء أستاذها بما يملأ قلبها من حب وكلف به ، فلم يتقبل الأستاذ هذا قبولا حسنا بل أظهر لها شيئا من الجفاء أهانهـا وآلمها ، فانصرفت مكلومة ولكنها أزمعت أن تملك قلب الأستاذ ، واذ كان الأستاذ فيلسوفا فليس من سبيل الى امتلاكه الا بالفلسفة واذن فقد أخذت فتاتنا تضع كتابا فى الفلسفه موضوعه «الحب وأثره فى الحياة» ، ثم كانت الاجازة ودعاها خالها الى أن تلحق به فى بيته ، وكان بيته هذا قصرا فخما فى غابة واسعة بعيدة الأرجاء ، كان قصرا يلائم ثروته الضخمة ، فدهشت الفتاة حين رأت هذا كله ، وأنبأها خالها بما كان قد أخفى عليها وأعلن اليها أنها ستنوب عنه منذ اليوم فى تدبير ثروته الزراعية ، وأنه سيفرغ لتدبير ثروته الصناعية ، وعرف خالها ما كان بينها وبين الأستاذ فدهش لأن هذا الأستاذ صديقه ولأن هذا الأستاذ سيصل الى القصر فى اليوم نفسه واعتزم أن ينظر فى هذا الامر . وانهم لفى ذلك اذ أقبل جار ينازع خالها فى حدود أرضيهما ، وهذا الجار شاب قوى جميل المنظر حسن الخلق منطلق المحيـا يعجب النساء ويترك فى نفوسهن آثارا حسانا . فكلف الخال ابنة أخته أن تناقش هذا الجار فيما بينهما من خلاف وتركهما منفردين ، وكان بين الفتاة والفتى حوار عادى ولكنه يدل عـلى أن هناك ميلا ممكنا قد يخلق بين هذين الفتيين صلة ما .

وكان الأستاذ قد وصل وتحدث الى صديقه ، وعرف منـه هذا الصديق أنه يحب فتاة كانت تختلف الى درسه ولكن أسبابا مالية وفلسفية منعته أن يتقبل هذا الحب حين أعلنته الفتاة اليه، فسأله صديقه عما يصنع لو كانت هذه الفتاة غنية ، فأنبأه بأنه يتردد فى الاقتران بها لأنه يخشى على فلسفته الفقر ثم يخشى على فلسفته الغنى ، يخشى الفقر الذى يحول بينه وبين التفكير ، ويخشى الغنى الذى يشغله بتدبير الثروة عن مشاهدة الفلسفة . ثم يتركه صاحبه فى هذا التردد ويدخل الاستاذ على الفتاة والجار

وهما يتحدثان وهو لايعلم مكانهما ، فيدهشه أن يجدهنا تلميذته وحبيبته ، ثم لايلبث أن يعرف ثروتها وأنها وارثة خالها ، ثم يكون بينهما حوار فى الحب والفلسفة والثروة والغنى ومايمكن أن يحدث الزواج فى الفلسفة من أثر حسن أو سيء ..

***

فاذا كان الفصل الثانى كانت الخطبة قد تمت بين الأستاذ وتلميذته الغنية الفيلسوفة ، ولكن الجار قد كلف بالفتاة ويظهر أن الفتاة لم تنصرف عن الجار ، فأخذ هذا الجار واسمه «البارون موبير دى بيوليه» يتكلف العلل والمعاذير ليتردد على القصر . وأخذت الفتاة تستقبله استقبالا حسنا وتسمع لما يقول فى شغف واعجاب ، وكان هذا الفتى على جمال خلقه ، وقوة جسمه رجل عمل يكره التفكير الخالص والنظر العقيم ويريد أن يكون كل شيء منتجا انتاجا عمليا وألا يتكلم الانسان ولا يتحرك الا كانت لكلامه وحركاته آثار عملية ملموسة نافعة .

كان يحب الفتاة وكان رجل عمل بالمعنى الصحيح ، وكان الأستاذ يحب الفتاة وكان رجل تفكير بالمعنى الصحيح ، وكانت الفتاة تحب الرجلين ، أو يخيل اليها أنها تحب الفيلسوف لفلسفته وذكائه وتميل الى رجل العمل لعمله وحسن خلقه ، ولكن الفيلسوف كان بفلسفته وتفكيره فى شغل عن الفتاة وجمالها وقلبها وعواطفها ، كان يحبها حبا فلسفيا ، كان يحب عقلها أو كان يحب نفسه فى هذا العقل ، لأنه كان يرى الفتاة متأثرة بفلسفته ، وكان يراها ذكية فكان يحب فيها ذكاءها وكان يحب فيها صورته الفلسفية ، كان اذن مشغولا بالفلسفة عن الحب، ولم يكن رجل العمل مشغولا بعمله عن الحب وانما كان يحب لأنه رجل عمل ، وكان الحب عنده عملا من الأعمال ، وكانت الفتاة مضطربة بين هذين الرجلين ، فلم يكن بد من أن يجتمعا بمحضر منها وأن يتحاورا فى الحب ، يجتمعان ويتحاوران ويحل الحوار المشكلة أمام الفتاة .

يسأل رجل العمل لم تحب ؟ فيجيب ، لنلد، يسخر الفيلسوف من ذلك فيشتد بينه وبين رجل العمل حوار ينهزم فيه الفيلسوف لأنه يكبر فلسفته أن يناقش فيها من لا علم له بها . ويخلو «موبير» بالفتاة فيتحاوران ويتحدث كل منهما بحياته الى الآخر، فيظهر بينهما شيء هو الحب ، ولكن الفتاة لاتريد أن تسميه

هذا الاسم ولا تريد أن تفكر فيه ، لأنها مخطوبة ولأنهـا قد وعدت بالوفاء لأستاذها الفيلسوف . تنكر حبها لهذا الشاب ولكن هذا الحب يملؤها ويتسلط عليها . فاذا أخذ الأستاذ يتحدث اليها في الفلسفة بعد حين انصرفت عنه قائلة في سخرية: دعني فاني أريد أن أجني بعض الأزهار . يظل الاستاذ متصلا بفلسفته وحبه الفلسفي ، ويعمل في نفس الفتاة رجل العمـل وصورته وبلاؤه في الصيد وحياته المنتجة المملوءة ، وصحته القويه المعجبة ، فلا تكاد تنام الليل ، أما رجل العمـل فلا يذوق طعم النوم ..

فاذا كان الفصل الثالث ظهر ظهورا جليـا سأم الفتـاة وانصرافها عن الحب الفلسفي لانها تشعر بعواطفها وميولهـا وشهواتها ، وترى أن الفلسفة والذكاء الخالص لايرضيان هـذه العواطف ولا هذه الميول ولا هذه الشهوات ، وهي في الوقت نفسه شريفة وفية لاتريد أن تغدر ولا أن تنكث ، فتحاول أن تستصبي عاشقها الفيلسوف وتذكره أن الحب يسـتطيع أن يعيش على الأرض كما يستطيع أن يعيش في السماء ، وبأن العقل وحده ليس مصدر الحياة ولا غايتها ، وبأن في الجسم وجماله مدعاة للذة والصبا . تحاول ذلك فتتكلف مايصبي وتلقي بنفسها عارية في فسقية في الحديقة أمام الأستاذ يراها وتتجاهل أنه يراها ، فلا تكاد تفعل ذلك ولا يكاد الاستاذ يرى منها ذلك حتى ينصرف وجهه الى كتاب في يده ويولي مدبرا .. فاقدر أنت مايحدث هذا الانصراف في نفس الفتاة من ألم وأسف ويأس ، ولكنها تخرج من الماء فتشعر بأن عينا مختبئة تلحظها من كثب فيملكها الحياء وتعدو الى القصر حيث تجد مربيتها ، فتتحدث اليها بما فعلت وما حاولت وما رأت ، وتتحـدث اليها بأنهـا تخشى أن يكون رجل العمل هو الذي كان يلحظها من كثب . وهما كذلك اذ يقبل رجل العمل ، فلا تشك في أنه كان يلحظها فتوسعه لوما ، وتأنيبا ، وتظهر الحوادث أن الرجل قد كان بريئا مما اتهم به ، وأن الذي كان يلحظها انما هي امرأة تعمل في أرض خالها . ولكن الحب بينها وبين الشاب يقوى وينمو ويشـتد سلطانه وان حاولت الفتاة أن تتخلص من هذا السلطان .

يحس خالها ذلك فيحاول أن يلفت الاستاذ الفيلسوف وأن يستنزله من سماء الفلسفة الى أرض الحب ، فينزل ولكن قليلا ،

ينزل ولكن ريثما يحس أن الحب والفلسفة شيئان لايتفقان فلا يلبث أن يصعد الى السماء ، ولا يلبث أن يضحي بعواطفه وأهواء نفسه وحبه في سبيل الفلسفة ، فيخطب الفتاة لهذا الشـــاب وتقبل الفتاة ويقبل الشاب ويرضى الخال ويسافر الأستاذ ٠

هذه هي القصة لخصتها تلخيصا شديد الايجاز مخلا بكثيرمن معانيها مضيعا لكثير مما فيها من الآراء القيمة ، فلم أترجم لك منها شيئا ولم أنقل عليك منها حوارا ٠ وأحسب أنك قدألممت بها الماما ، وأحسب أنك تشعر معي بأن هذه القصة تبعث الحيرة في نفس من يقرؤها ومن يشهدها ، فماذا أراد الكاتب ؟ أأراد أن يقارن بين الفلسفة والعمل ، وأن يفضل العمل على الفلسفه ؟ فان كان أراد هذا فقد ظلم الفلسفة لأنه مثلها تمثيلاسيئاووضع الأستاذ الفيلسوف موضعا مضحكا يشبه موضع الفلاسفة الذين يسخر منهم « موليير » وغير « موليير » من الممثلين المضحكين ٠ وقد كان الانصاف يلزمه أن يمثل الفلسفة تمثيلاصحيحا كما مثل العمل تمثيلا صحيحا حتى تكون نتيجة الخصومة بينهما مقنعـة للقراء أو للنظارة ، أم أراد أن يدرس نفس هذه الفتاة وأن يبين أن الحب الفلسفي الذي لايطمع الا في الذكاء ولا يرغب الا في اتحاد الميول العقلية الخالصة ضعيف الأثر في نفوس النساء لأنه يهمل أشياء لم تهملها الطبيعة : يهمل القلب والعاطفة والحس ؟ فان كان أراد هذا فليس هذا بجديد ، وانما هو شيء مألوف قاله الناس وأكثروا من الخوض فيه ، أم أراد الأمرين جميعا ؟ أم لم يرد شيئا منهما وانما حاول أن يعرض على قرائه ونظارته طائفة من الخواطر والآراء ليست متسقة ولا متصلة فتكلف لها صورة القصة التمثيلية ليوجد بينها الاتساق والاتصال ؟ ذلك ماأظن، وأرى أن الكاتب ان كان قد قصد الى هذا فقد وفق توفيقا لابأس به ٠ ولكنه لم يحسن الى التمثيل ، فان التمثيل لايقصد به الى عرض الخواطر والآراء وانما يقصد به قبل كل شيء الى تصوير الحياة الواقعة ، أو الى تصوير المثل الأعلى للحياة تصويرا يملك على الجمهور قلبه وهواه ، ويوجهه الى الطريق التي يريد الكاتب أن يتجه اليها ، وليس من شأن هذه القصة أن تترك في نفس الجمهور مثل هذا الأثر ، ولكن من شأنها أن تعجب القارىء وتلذه وترقه عليه ، وقد كان خليقا بها أن تبسط في كتاب لا في قصة تمثيلية ٠



بينيلوب

لم يطل ليـــل ولكن لم أنم ونفى عنى الكرى طيف ألم

ولكنه لم يكن طيف هند ، ولا عبدة ، لم يكن طيف عربية ، ولا مصرية ، ولا أوروبية ، وانما كان طيف امرأة بقى اسمها فى ذاكرة الانسانية وذهبت بشخصيتها الغير والأحداث • ولعلها لم توجد قط ، ولعل التاريخ لم يعرف من أمرها قليلا ولا كثيرا ، ومع ذلك فقد قضيت الليل أفكر فيها بل أسمع الى حديثهـــا ومناجاتها ، هادئة مرة ، ثائرة مرة أخرى ، يملؤها الحنـــان حينا ، وتملكها الوحشية حينا آخر • قضيت الليل أفكر فيها وأسمع لأحاديثها ونجواها حين كانت تتحدث الى خدمها ، وحين كانت تتحدث الى عشاقها ، وحين كانت تتحـــدث الى مرضع زوجها ، وحين كانت تناجى الآلهة متلطفة آنا ، ومحنقةآناآخر ، ثم حين كانت تناجى خيال زوجها الغائب ، وتتحدث الى زوجها وقد آب بعد غياب طويل • قضيت الليل أفكر فيها وأستمع لحديثها ، وأعجب بقـــدرة الفن ، لا أقول على احيـــاء من مات وتجديد ما اندثر ، بل على خلق مالم يوجد والتخييل اليك أنه قد وجد وأثر فى الحياة آثارا أبقى من أن ينالها الفناء ، لم يكن هذا الطيف طيف عربية ، ولا مصرية ، ولا أوروبية ، وانما كان طيف يونانية ، كان طيف « بينيلوب » زوج « أولس » بطل «الاودسا»

سمعتها أمس فى دار من دور الموســـيقى ، (فى الأوبرا كوميك) تتغنى عشقها ولوعتها وحزنها لبعد من أحبت وجزعها لقرب من كرهت • ففتنت بها ولم أفارق صوتها ولا عواطفها طول الليل وجزءا غير قليل من النهار •

لست أدرى أقرأت « الاودسا » أم لم تقرأ • وأنا أسمح لنفسى بهذا الشك لأنى أعلم علم اليقين وتجربة أن الأدب اليـونانى سىء الحظ فى مصر ، وأن سوء حظه قد بلغ من الشدة الى حيث لانستطيع تقديره أو تقدير عواقبه السيئة، نجهل الأدب اليونانى لا أقول جهلا تاما بل أقول جهلا فاحشا مخزيا لايليق بقوم يحبون الحياة ويطمعون فيها • نجهل هذا الأدب جهلا فاحشا بحيث نستطيع أن نحصى المصريين الذين يعلمون ما « الاودسا » وما « الالياذة » ومن « أوليس » ومن « بينيلوب » ، ومع ذلك فقد

كانت (الاودسا) و (الالياذة) وما زالتا وستظلان دائماينبوع الحياة للأدب والفن : للشعر والنثر والنحت والتصوير والتمثيل والموسيقى . بليت القرون ولم تبل (الالياذة) و(الاودسا) ، فنيت الأمة اليونانية وفنيت الأمة الرومانية واختلفت العصور والظروف على أوروبا في العصر المتوسط وفي العصر الحديث ، وستفنى أمم وتختلف عصور وظروف وتظل آيات (الالياذة) و (الاودسا) جديدة خالدة محتفظة بقوتها وبهائها ورونقها على وجه الدهر وتعاقب الأحداث ، ولا نكاد نحن نفترض وجود (الالياذة) و (الاودسا) فاذا افترضنا وجودهما فلا نكاد نعلم بشيء مما فيهما .

الى هذا الحد وصلنا من الجهل بمصدر الحياة للأدب والفن ، ويظهر أنا اذا لم نستطع أن نمعن النظر في هذا الجهل أكثر مما أمعنا فليس وراء هذا الحد مطمع لمن يحب الجهل ويرغب فيه ، أقول اذا لم نستطع أن نمعن في هذا الجهل أكثر مما أمعنا فيظهر أنا لانريد ولا نحاول أن نتخلص منه قليلا أو كثيرا . يظهر أنا سنظل على مانحن فيه من جهل الأدب اليوناني والفن اليانوني، لانا نرى كل شيء يتغير في مصر ، ونرى الرقي يتناول كل شيء الا التعليم ، فهو بحمد الله باق حيث كان لأن المشرفين عليه لايفكرون في تغييره ، ولعلهم غير قادرين على أن يفكروا في تغييره . سيظل تلاميذنا يخلطون بين أثينا وصقلية كما يخلطون بين الاسكندرية وهانيبال .

ولكني بعدت عن هذا الطيف الذي أرقت له آخر الليل بعد أن طربت له أول الليل .. قلت ان (الاودسا) و(الالياذة) كانتا وستظلان ينبوعا للحياة الادبيه والفنية ، فقد ألهمتاشعراء اليونان على اختلاف فنونهموأساليبهم ، وألهمتاالفنيينمناليونان بل ألهمتنا فلاسفة اليونان ، وكذلك صدر عنهما شعراءالرومان وكذلك صدر عنهما ومازال يصدر عنهما شعراء الافرنج منذ القرن السابع عشر الى ماشاء الله :

ولقد كانت القصة الموسيقية التي شهدتها أمس أثرا من آثار (الاودسا) اجتمع فيه جمال الشعر وجمال الموسيقىوجمالالغناء

وجمال الفن الآلي في التمثيل . فكنت تجد لذة لاتعد لها لذة حين تسمع أصوات الآلات الموسيقية وألحانها واختلاف نغمها الذي كان يرق حتى لايكاد يسمع وكان يغلظ حتى يكاد يصم السامعين . وكنت تجد لذة لاتعد لها لذة حين تسمع هذه الأصوات الانسانية العذبة الرخيمة تمازج نغم الموسيقى متغنية بهذا الشعر الجميل الرقيق الذي يمثل أرق العواطف الانسانية وأصدقها وأدناها من الوفاء والحب والاخلاص ، وكنت تجد لذة لا تعد لها لذة حين تسمع هذا كله وتنظر الى مسرح التمثيل فترى هذه الجزيرة اليونانية القديمة كما وصفتها « الاودسا » في جمالها القديم الرائع الذي يزيده بهجة وسحرا ما أتخذ الممثلون من أزياء وما اصطنعوا من آنية ومتاع . كنت تجد لذة حين كنت تسمع ما تسمع وترى ما ترى ، ولم يكن ينقص عليك هذه اللذة الا أنها كغيرها من جميع لذات الحياة قصيرة محدودة المدى لن تتجاوز ساعة أو ساعتين ، ذلك فيما أعتقد أخص ما تمتاز به اللذة الحقيقية التي تملك عليك نفسك وعواطفك وتسحرك السحر كله .. تمتاز هذه اللذة بأنك تشعر حين تشعر بها بشيء من الحزن يصاحبها لأنها ستنقضي بعد حين طويل أو قصير .. وأنت تحب ألا تنقضي وأنت تود لو كانت خالدة أو لو انقضت بانقضائها الحياة ..

اشترك في هذه القصة الموسيقى الفرنسي « جبرئيل فوريه » والشاعر الفرنسي « رينيه فوشوا » ، ومثلت منذ عشر سنين فأعجب بها الجمهور وابتهج لها الناقدون ، ولكنهم لم يجرءوا على أن يحكموا لها أو عليها .. ذلك لأن فيها شيئا من الغرابة كثيرا ، فهي لا تمثل الحياة في عصر نفهمه فهما يسيرا سهلا ، وانما تمثل الحياة في عصر بعيد منا كل البعد ، بل لعل هذا العصر لم يعرفه التاريخ ، واذن فليس من اليسير أن نحسها نحن كما نحس الحياة التي نحياها بحيث تتأثر بها نفوسنا وتهتاج لها عواطفنا فتبعث فينا ضروب الاحساس والشعور التي تبعثها فينا الحياة الواقعة ..

تردد الناس في الحكم لهذه القصة أو عليها ، ولكن كانت الحرب العظمى فهزت النفوس والعواطف وسهلت على الناس فهم هذا الشعر القصصي القديم الذي مثل ما أصاب الانسان

من محن فأحسن تمثيله ، وصور ما اختلف على حياة الأفراد والجماعات من أحداث ‎..‏ فأجاد التصوير ‎..‏ فلما استؤنف تمثيل هذه القصة لم يتردد أحد ولم يشك انسان وانما ظهر الاعجاب صريحا قويا لا يعدله اعجاب فأجمع الناقدون على أن هذه القصة آية من آيات الموسيقى الفرنسية وكان يكفى أن ترى الجمهور أمس لتعلم أن الناقدين لم يخطئوا ولم يسرفوا .

عزيز على أن أجهل الموسيقى وأن يضطرني هذا الجهل الى الا أتحدث اليك بجمال هذه القصة من الوجهة الموسيقية ‎..‏ ولكني اذا جهلت الموسيقى وعجزت عن الحديث فيها فانى أحسنها وأشعر بها ، وأستطيع أن أعلم أني سمعت شيئا طربت له أو سمعت شيئا نفرت منه ، وأشهد أني لم أنفر أمس بل أنى لم أطرب أمس وانما سحرت سحرا ليس فوقه سحر ‎..‏ أشهد أنى لم أكن أشك حين كنت أسمع هذه الموسيقى أنى فى جزيرة « ايتاك » وانى بمحضر من أولئك الأبطال القدماء ، بل أشهد أنى حين كنت أسمع هذه الموسيقى لم أكن فى حاجة شديدة الى أن يصف لى واصف مايمثله المنظر من هذه الجزيرة المشرفة على البحر التى يغمرها هواء رقيق ناعم شفاف والتى تزدان بكثبانها وتلالها الصغيرة تهبط الى البحر متدرجه قليلا قليلا نعم لم أكن فى حاجة شديدة الى أن يوصف لى المنظر لأن الموسيقى كانت تغنينى عن هذا الوصف ‎..‏ فكنت أحس فى الموسيقى القرب من البحر ، وكنت أسمع فى الموسيقى أمواج البحر تضطرب وتصطخب رقيقة حينا كأنها حديث العاشقين ، غليظة حينا آخر كأنها قصف الرعد ، وكنت أجد فى الموسيقى رقة الهواء ونعومته ، وكنت أسمع هذه الموسيقى فلا أشك فى أن الجو كان صافيا رائقا ، أو أنه كان كدرا يهيء للعاصفة ، كنت لا أشك فى شيء من هذا ، وكنت لا أشك فى شيء آخر هو أجل من هذا خطرا وأعظم شأنا ، كنت لا أشك فى أن هذه القطعة الموسيقية تمثل مايحدث فى نفسى الآن من اضطراب العواطف واصطخابها وما يقع بينها من تنازع ومشادة ، وكنت لا أشك فى أن هذه القطعة الأخرى تمثل الضعف الذى ليس بعده ضعف ، تمثل هذا الضعف الذى يسلبك كل قوة على المقاومة ويجعلك غير قادر الا على أن تفتح جفنيك لتسقط منهما

قطرات الدمع متتابعة منهمرة !! .. نعم وكنت لا أشك فى أن هذه القطعة الأخرى تمثل الغيظ والحنق ، هذا الغيظ الذى تنقبض له أعصابك فاذا جبينك مقطب واذا الدم يغلى فى رأسك واذا أنت قد أطبقت يديك واذا أنت تقاوم هذا الميل الشديد الذى يدفعك الى أن تثب وتهجم على فريستك ، لم آكن اشك فى شيء من هذا لأنى كنت احسه وأنتقل فيه من طور الى طور بل هناك ما هو خير من هذا ، هناك هذه القطع الموسيقية التى تبعث فى نفسك شيئا من الحنان والرحمة ومن الطمأنينة والدعة لا أستطيع أن أصفه ولا يستطيع انسان أن يصفه لأن وصفه لم يتح للجمل والألفاظ وانما أتيح للأنغام والألحان وحدها ..

ولكنى عاجز كما قلت عن أن أصف جمال هذه القصة من الوجهة الموسيقية ، أفتريد أن أصف جمالها من الوجهة الأدبية؟ لقد كنت أحب ذلك وأرغب فيه .. ولكن أليس خيرا من هذا الوصف الذى لا يمكن الا أن يكون موجزا مختصرا أن ترجع الى هذا الجمال فى أصله وأن تستقيه من ينبوعه فتقرأ النشيد الرابع والعشرين من « الاودسا » ؟ .. تجد فى هذا النشيد قصر الملك « أوليس » قد غاب عنه صاحبه منذ عشر سنين لأنه ذهب الى « ترواده » وانتصر فيها ، فلما أراد العودة الى بلده عبث به وبأسـطوله (بوزيدون) اله البحر فأضله الطريق وأخضعه لطائفة من المحن ، وبينما كان الملك وأصحابه يخضعون لعبث « بوزيدون » وغيره من الآلهة كانت الملكة (بينيلوب) تنتظر زوجها فى لوعة وحسرة وفى حب ووفاء ؛ كانت طائفة من زعماء اليونان قد احتلت قصر الملك وأخذت تعبث بما فيه ومن فيه فتأكل شاء الملك وثيرته كما تقول القصة وتشرب خمره وتعبث برقيقه وتلح على الملكة فى أن تختار من بينها رجلا يكون لها زوجا فيخلف « أوليس » على ملك « ايتاك » ، كانت هـذه الطائفة تلح وكانت الملكة تقاوم فلما أعيتها المقاومة أخذت تراوغ فأعلنت الى هؤلاء أنها ستختار من بينهم زوجا اذا فرغت من نسج كفن أخذت نفسها بنسجه لأبى زوجها ، وقبل الزعماء منها ذلك فأخذت تنسج الكفن يومها حتى اذا كان الليـل نقضت ما أبرمت ، ثم تستأنف النسج اذا أصبحت والنقض اذا أمست

والزعماء ينتظرون ويعبثون بالقصر وما فيه ومن فيه ..

***

فاذا كان الفصل الأول من القصة ظهر خادمات القصر يغزلن ويتحدثن فيما بينهن وحديثهن لذيذ ، فهن يغنين ما هن فيه من ألم وحرمان ، وهن يتغزلن بجمال الزعماء وترغب كل واحدة منهن في واحد منهم ، وهن يرثين للملكة وينكرن عليها غلوها في الوفاء ، وانهن لفي ذلك اذ يقبل الزعماء يريدون أن يتحدثوا الى الملكة وتأبى الخادمات انباء الملكة بمكانهم لأنهن لا يستطعن أن يدخلن عليها الا اذا دعين .. وبينما الزعماء في حوار مع الخادمات تقبل مرضع الملك فتمانعهم ويكون بينها وبينهم حوار ومسابة .. ثم تقبل الملكة فيشتد الخلاف بينها وبين الزعماء تهينهم وتنعى عليهم ، وهم يتملقونها ويتلطفون بها ، تمانعهم وتأبى عليهم ما يريدون وهم يلحون عليها في أن تسرع فتختار من بينهم زوجا ، ثم يقدم شيخ رث فان يطلب الصدقة والمأوى فينبذه الزعماء وتؤويه الملكة .. وهذا الشيخ هو « أوليس » قد وصل الى جزيرته وأمرته الالهه « أتينا » أن يتنكر ويحتال في طرد الغاصبين والانتقام منهم .. لا تعرفه الملكة ولكن المرضع تعرفه وتعاهده على أن تخفي أمره ، ينصرف الزعماء وينصرف الشيخ الى طعامه وتبقى الملكة وحدها فتنقض مانسجت ولكن الزعماء كانوا قد رصدوا لها فاستكشفوا حيلتها .. فيغيظهم ذلك ويعلنون الى الملكة أن الغد لن ينقضي حتى تكون قد اختارت لها زوجا ،ثم ينصرفون ، تخرج الملكة ومرضع الملك لتذهبا الى شاطىء البحر كما اعتادت منذ سنين تترقبان سفينة ما لعلها تقبل وعلى ظهرها الملك ، ويتبعهما الشيخ ..

***

فاذا كان الفصل الثاني رأيت رعاة الملك يتحدثون فيما بينهم ويتمنى بعضهم لبعض ليلا سعيدا ويتغنون جمال الطبيعة وسحرها .. ثم تقبل الملكة ومن معها فيكون بينها وبين الشيخ حديث بديع يظهر فيه ما يضمر الزوجان من حب ووفاء ومن لهفة ولوعة .. ولكن الملك يخفي نفسه فاذا سئل عن أمره أخبر بغير الحق ، واتخذ هذا الاخبار وسيلة الى التغزل بزوجه من طرف خفي ولكن في جمال ورقة وحسن مدخل . ثم تجزع

الملكة اشفاقا من غد فيقترح عليها الشيخ أن تعلن الى الزعماء أنها ستختار من بينهم من يستطيع أن يشد قوس « أوليس » ثم تنصرف الملكة ويتعرف الملك بعد ذلك الى رعاته ويأمرهم أن يكونوا فى القصر غدا وأن يتخذوا السلاح ليعينوه على الانتقام ..

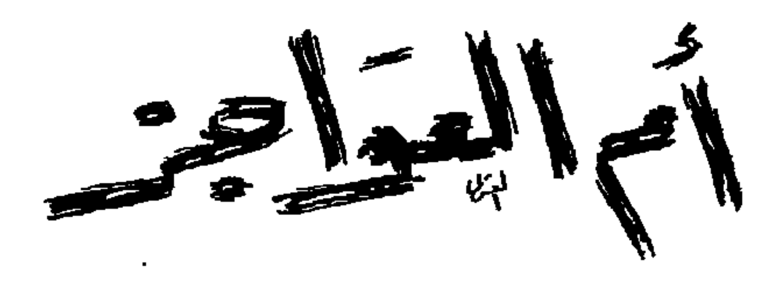
***

فاذا كان الفصل الثالث رأيت الملك وحده يتغنى غضبه وسخطه وحرصه الشديد على الانتقام ، ثم يكون بينه وبين مرضعه ورعاته أحاديث قصيرة ، ثم يقبل الزعماء وقد تهيأوا للقصف واللهو ، فيسخرون من الشيخ ويريدون طرده ، ثم يبدو لهم فيتخذونه سخرية يسقونه ويضحكون منه ويظهر الشيخ أنه سكران ، وتقبل الملكة فتعلن اليهم أن من شد قوس « أوليس » ورمى عنها فهو زوجها .. فيعجزون ، ويتقدم الشيخ الفانى الى القوس فيشدها ويرمى عنها ولكن فى صدر أحد الزعماء ، هنا يظهر الملك نفسه وينتقم لشرفه وثروته وملكه ، يعينه الرعاة على هذا ، ثم تنتهى القصة بمظهر الحب والغبطة بينه وبين الملكة من جهة ، وبينه وبين الشعب من جهة أخرى ..

فانت ترى أن ليس فى القصة شىء غريب وانها من السذاجة والسهولة بحيث تلائم القرن التاسع أو العاشر قبل المسيح أيام أنشئت « الالياذة » و « الاودسا » ، ولكنى أضمن لك لذة عظيمة اذا قرأت هذه القصة ، ولذة لا حد لها اذا قرأتها فى « الأودسا » .. فأما اذا شهدت القصة الموسيقية فى « الأوبرا كوميك » فلست أدرى ماذا أضمن لك ، وانما أحدثك صادقا بأنى قضيت ليلة سعيدة كنت أحسبنى أثناءها فى عالم آخر ، ولم أتنبه الى أنى فى الأرض الا حين سمعت ابنتى تتغنى وتصيح ، ورأيت ابنى يعبث بما حوله وسمعت أمه تزجره وتنهاه ..

نادى القصة

يقـدم



بقلم

يحيى حقى

العدد التاسع والثلاثون

يصدر فى اغسطس سنة ١٩٥٥ ــ الثمن عشرة قروش

الـكتاب الذهبى

العدد الثامن والثلاثون ـ يوليو سنة ١٩٥٥

يصدر عن دار روز اليوسف

١٨ شارع محمد سعيد ـ القاهرة

الاشـــتراكات

الخارج : ١٨٠ قرشا عن سنة ـ ٩٠ قرشا عن نصف سنة

مصـر : ١٢٠ قرشا عن سنة ـ ٦٠ قرشا عن نصف سنة

الاعلانات يتفق عليها مع الادارة

رئيس التحرير المسئول : سعد الـكفراوى خليل

تطلب مجموعة الـكتاب الذهبى من دار روز اليوسف

١٨ شارع محمد سعيد تليفونات : ٢٠٨٨٥ ـ ٢٠٨٨٦ ـ ٢٠٨٨٧ ـ ٢٠٨٨٨

جميع الحوالات ترسل باسم « روز اليوسف »

بريد البرلمان

حديث الشهر

عزيزى القارىء :

فى حيرة منك وعتاب عليك .

حيرة منك لأنك تطلب منى ما لا أكره .. وعتاب عليك لأنك تعرض على ما تلومنى عن عدمه .

تطلب منى فى الحاح أن أقدم لك وجوها جديدة .. وان أزحزح هذه الوجوه الثابتة الراسخة لأتيح الفرصة لغيرها أن يبرز من بينها اليك ويتخذ مكانه فى نفسك ..

لقد تعالت صيحاتك بى .. أين وعدك باتاحة الفرصة للمواهب الكامنة والعبقريات المدفونة .. وثرت على لاصرارى على تقديم الأسماء الشهيرة والوجوه المعروفة ..

واعتذرت لك فى بداية الأمر بأنى لابد من تقوية السلسلة وهى السلم الذى سأرفع به هذه الوجوه الجديدة اليك بواسطة عدة أقدام راسخة ثابتة .. تستطيع أن تحمل على أكتافها هذه الوجوه الجديدة .. والا هوى السلم بها :

وعاد الحاحك لى .. واستمرت صيحاتك أين الوجوه الجديدة .. ولم أكذب خبرا وبدأت أدفع اليك بالوجه تلو الوجه .. وانتظرت منك صيحات الاعجاب .. وهتاف التقدير .. ولكنى وجدتك تشيح بوجهك .. وتعرض عما قدمت اليك مما سبق أن الححت فى طلبه .. وبدا لى فارق ملحوظ بين اقبالك على القديم الذى ضقت منه .. والجديد الذى طالبت به .

وبدا لى انك قد طلبت منى ما لم ترد .. وكان على بعد أن اشحت بوجهك عن الجديد .. وصحت بى ما هذا الذى تقدمه لنا . اين فلان . وفلان . وفلان من الوجوه العتيدة والأقدام الراسخة .

كان على بعد أن عدت تعرض عما ينبغى على فعله .. ولم أجد بدا من أن أعود فأدفع بها اليك ثانية ..

ومرة أخرى أخشى أن تصيح بى .. ما هذا القديم البالى . أين المواهب الجديدة ..

ماذا افعل بك ، وقد خذلتنى وخذلت المواهب الجديدة .. وشمت فينا الشامت

ماذا أفعل بك .. حيرتنى .. حيرك الله .

يوسف السباعى


نقاوة مواده
سر بياضه الناصع
حجم عظيم للحمّام
حجم معتاد
حجم البيضة
صابون
نتو النيل
للتواليت
انتاج شركة مصانع الزيوت والصابون
ش م م (نايف عماد سابقاً)
المركز الرئيسي : طنطا ت ٣٣٠١ / ٤٩٧ القاهرة ت ٢٥٤١٠
الاسكندرية ت ٢٦١٥٩